كتاب الهلال

الإسلام بين العلم والمدنية

الأستاذ الإمام محمد عبده

الثمن ١٠ قروش

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
مؤسسة الاهرام والهلال

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ١١٤ ـ ربيع الاول ١٣٨٠ ـ سبتمبر ١٩٦٠

No. 114 — September 1960

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
(المبتديان سابقا) القاهرة

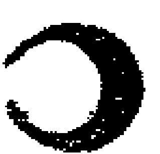
المكاتبات

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢عددا) اقليم مصر والسودان ١٠٠ قرش صاغ ـ اقليم سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا أو لبنانيا ـ السعودية والعراق والاردن وليبيا واليمن وغزة ١٣٠ قرشا صاغا ـ فى الامريكتين ٥١/٢ دولارات ـ فى سائر انحاء العالم ١٧٠ قرشا صاغا

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

المجموعة الإسلامية الجديدة
لتراث الأستاذ الإمام

الإسلام
بين العلم والمدنية

بقلم
الشيخ محمد عبده

عرض وتحقيق وتعليق
طاهر الطناحي

صدر من هذه المجموعة

كتاب

دروس من القرآن الكريم

فى شهر مارس سنة ١٩٥٩

وهذا الكتاب

هو الثانى من هذه المجموعة الجديدة

لاحياء تراث الامام



الأستاذ الإمام محمد عبده

تقديم

بقلم الأستاذ طاهر الطناحي

فى مارس سنة ١٩٥٩ قدمت الى قراء كتاب الهلال أول كتاب من هذه المجموعة لتراث الاستاذ الشيخ محمد عبده بعنوان « دروس من القرآن الكريم » اشتملت على ترجمة الاستاذ الامام وتفسير « سورة الفاتحة » و « سورة العصر » وخمس آيات من القرآن الكريم تناولت : « العلم والتعليم » و « الخير والشر » و « مسألة الغرانيق » و « زينب وزيد » و « سنن الله فى الامم »

وقد اعتزمت السير فى نشر هذه المجموعة كتابا كتابا بطريقة جديدة تمتاز بتفصيل جهاد الامام فى الوطنية والسياسة والدين ، والاصلاح الاجتماعى . وخدماته فى العلم والتعليم ، وما قام به من دفاع عن الاسلام ، وما رآه من آراء سديدة فى طائفة من المسائل العامة التى تهم أبناء الشرق العربى والاسلامى ، وما أذاعه من فتوى فى الدين لمن سأله فى ذلك من أبناء الاقطار الاسلامية ، وما وضعه من مذكرات ، وما القاه من دروس ، وما كتبه فى مختلف الموضوعات والرسائل فى الصحف ، او الى استاذه جمال الدين الافغانى ، وزملائه وأصدقائه الكبار

عرض وتحقيق جديد

ولما كان هذا التراث النفيس قد مضى عليه نحو ثمانين عاما

منذ بدأ ، رحمه الله ، جهاده في الميدان العام ، وقد توزع في اطواء الزمن بين حياته وهو تلميذ ، وحياته في رياسة الوقائع المصرية ، واشتراكه في الثورة العرابية ، وجهاده في المنفى بيروت وباريس ، ثم في مصر الى أن توفى ، فقد رأيت أنه يحتاج الى دراسة جديدة ، واخراج جديد ، والى عناية خاصة بتنظيمه وتحقيقه والتعليق عليه تعليقا علميا واجتماعيا وتاريخيا بما يحتاج اليه جيل هذه الايام الذى لم يشهد ابناؤه هذا الامام العظيم ، ولم يدرسوه دراسة وافية ، ولم يظهر عنه من المؤلفات الا القليل ، وقد جمعت طائفة من أعماله جمعا مجملا لا يكفى لبيان هذا الجهاد الطويل وهذا المجهود الضخم الذى قام به الامام العظيم ، بل الزعيم الكريم في مختلف ميادين الجهاد ، وما خلفه من مدرسة أخرجت طائفة من الزعماء والاعلام فى الدين وفي الوطنية والسياسة والاجتماع

واذا كان المرحوم العلامة السيد رشيد رضا قد قام في حياة الامام وبعد وفاته بتسجيل آثاره وأعماله على نحو ما يحتاج اليه الجيل الماضى ، وأدى واجبه فى ذلك أحسن الاداء ، فان تطور العصر ، واختلاف حياة الجيل الحاضر واسلوب تعليمه وتفكيره عما سبقه من اجيال ، يبعثان على اعادة النظر فى هذا التراث بما يستحق ، وتقديمه بما يلائم هذا الاسلوب بطريقة جديدة مشوقة ، وبعناية دقيقة فى التحقيق والتعليق وبتقسيمه على كتب توضح أنواع هذا الجهاد المتعددة التى أفنى فيها الامام حياته ، وقدمها قربانا للوطنية والاسلام واصلاح المسلمين

الاسلام بين العلم والمدنية

وهذا الكتاب الذى نقدمه اليوم بعنوان : « الاسلام بين العلم والمدنية » هو الكتاب الثانى من هذه المجموعة القيمة، التى لاريب في أن كل كتاب منها سيكون ذخيرة نفيسة . وهو يشتمل على طائفة من البحوث المتعلقة بالدين الاسلامي وموقفه

من المدنية الحديثة ، وبيان المعانى الانسانية والاهداف الاجتماعية والعمرانية فيهذا الدينالحنيف وما يتفق مع الدين المسيحى من مثل عليا ، وما يختلف معه من معاملات بشرية لا تمس جوهر التوحيد وعبادة الله سبحانه وتعالى ؛ كما يشتمل على دفاع الاستاذ الامام عن الاسلام ق المزاعم التي الصقها البعض به جهلا أو خطأ فى البحث والرأى والتقدير كمزاعم مسيو هانوتو وزير خارجية فرنسا فى عهده الذى أراد أن يخلط السياسة بالدين فقد كتب مقالين عن الاسلام والمسلمين أملاهما عليه الغرض ؛ ودفعه اليهما تشويه الحقائق خدمة للسياسة الفرنسية وللنفوذ الفرنسى الذى يريد ان يسيطر على البلاد الاسلامية وخاصة فى مستعمرات شمال افريقا فى ذلك الحين

جمعية التقريب بين الاسلام والمسيحية

ولقد كان جهاد الاستاذ الامام فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن فى سبيل الاسلام واصلاح المسلمين حافزا للكتابة والخطابة والحديث عن شئون هذا الدين وعلاقته بالدين المسيحى ، خصوصا أن بين العرب والمسلمين فى الاقطار الاسلامية والعربية عددا غير قليل من المسيحيين الذين يعيشون فى وئام تام مع اخوانهم المسلمين فى هذه الاقطار ، مما دفع بعض كبراء المسلمين والمسيحيين للدعوة الى التقريب بين الدين الاسلامى والدين المسيحى . وقد عقد الاستاذ الامام اجتماعا فى بيروت بعد عودته من باريس وتعطيل جريدة العروة الوثقى دعا اليه بير زاده ، «وعارف أبى تراب» تابع السيد جمال الدين الافغانى ، وجمال بك نجل رامز بك التركى قاضى بيروت وميرزا باقر ، وطائفة من أصدقائه المسيحيين والمسلمين ، وقد الفوا جمعية سياسية دينية سرية باسم « التقريب بين الاديان السماوية » تعمل لازالة الشقاق بين

اهلها ، والتعاون على محو الاســـتعمار من الشرق ، وتعريف الافرنج بحقيقة الاسلام من اقرب الطرق ، وقد انضـــم الى هـذه الجمعية مؤيد الملك احد وزراء ايران ، وحسن خان مستشار السفارة الايرانية في الاستانة وبعض الانجليز .
وكان من اعضائها من رجال الدين في لندن « القس اسحاق تيلر » بل كان هو من دعاتها في انجلترا · كما انضـم اليها « مستر جي دبليو لينتز » مفتش المدارس بالهنـــد . وكان الاستاذ الامام رئيســها وصاحب الرأى الاول فى موضوعها ونظامها ، وكان ميرزا باقر هو الامين العام لهذه الجمعية

انجليزيان
يدعوان لتوحيد الاسلام والمسيحية

وقد كتب مستر جي دبليولينتز فى ذلك الحين مقالا بجريدة الديلي تلغراف بعدد ٢ فبراير سنة ١٨٨٨ بعنوان : « الاسلام والمدارس المحمدية » ذكر فى أوله أنه اتيح له تعــلم اللغــة العربية والقرآن الكريم فى مكتب اسلامي بالاستانة قبل حرب القرم ، وانه فتش مئات المدارس المحمدية فى الهند ، ووصلت اليه الوف من الاخبار عن مدارس اخرى ، وهو بذلك يشهد بأن ما اشيع فى أوربا عن المكاتب الاسلامية انها «مغارات اثم» بهتان لا يصح ان يقبله عاقل ابدا ، فان الاجتماعات العائلية والعلمية والرسائل الدينية والاخلاقية التى اوجب المسلمون على التلاميذ قراءتها سياج امين للمحافظة بينهم على الاخلاق والاداب . وذم المدارس التى انشأتها الدولة الانجليزية فى الهند وتقصيرها فى تعليم الدين الاسلامى . ثم قال :

« أما السؤال الاوسع فى الفرق بين المسيحية والاسلام ، وكونهما أداة لنشر التمدن ، فانى أقــول فى صراحـــة ان من لايعرف اللسان العربى لا يستطيع أن يعرف ان أصول الدين الاسلامى اشد وأقوى ارتباطا بقلوب المسلمين فى معيشتهم

اليومية مما هو ، لسوء الحظ، للمسيحية في قلوب المسيحيين، واذا كان الامر كذلك ، فلا حجة عندنا ونحن نعاشر المسلمين بأن نترك التقريب بين الدينين ، ونأخذ بما يفرق بين الامتين !

« المسلمون يعتقدون ان اليهود والنصارى هم أهل الكتاب ، اى عندهم كتاب مقدس . الولد المسلم حين خروجه من المكتب يعترف أمام ربه ، معاهدا اياه انه مؤمن بهذه الكتب . القرآن يأمر بصيانة المساجد والكنائس والبيع التى يذكر فيها اسم الله الواحد ، كأنها غاية جهاد المؤمن . ويسمى عيسى كلمة الله وروحه ، وولادته العجيبة ، ورجعته الحميدة مقبولتان عند المسلمين بمعنى لا يخالف العقائد المعتمدة عند المسيحيين .. »

ثم قال في النهاية : « وانى لا أشك في أنه يجب الاتحـــاد بين الاسلام والمسيحية لامن الوجهـــة الدينية فقط ، بل من وجهة السياسة أيضا ! »

أما القس اسحاق تيار ، فقد كتب عدة مقـــالات في معنى التقريب بين المسيحية والاسلام في الجرائد الانجليزية ، كما القى عدة خطب في هذا الموضوع ، جاء في احداها ان بعض رؤساء الكنائس ابتدعوا في المسيحية موضوعات خيالية كعبادة القديسين والملائكة والشهداء مما ينافى تعـاليم المسيحية ، وقد قضى الاسلام عند ظهوره على عبادة الاوثان والملائـكة ، واظهر الاحكام الاساسية للدين ، وهى توحيد الله وتعظيمه ، وارشد الناس الى الاخوة الصحيحة والحقائق الأساســـية للطبيعة البشرية . ثم تكلم عن تعدد الزوجات الذى كان فاشيا في كثير من الامم قبل الاسلام بغير حد ، وتنظيم الاسلام له وتخفيفه من شره ، واقامته لكل امراة قيما شرعيا عليها ، فأنقذ البلاد الاسلامية من الفواحش الرسمية السائدة في أوربا . وهى أعظم شناعة من تعدد الزوجات . وقال :

« ان الاسلام حرم السكر ، والقمار والبغاء . وهى ثلاث

لعنات تهلك البلاد الاوربية والاميركية . ويجب علينا ان نعلم ان الدين الاسلامي لا يناقض الدين المسيحي ، بل يتفق معه في محاربة هذه الفواحش ، وفي عبادة الله الواحد . وهو صدى لايمان ابراهيم ، والمسلمون يؤمنون بأن ابراهيم أعظم هداة البشر : ابراهيم خليل الله ، وموسى كليم الله ، وعيسى كلمة الله ، ومحمد رسول الله . ولسيدنا عيسى مقام جليل في الاربعة » . ثم قال : « الاسلام قريب جدا من المسيحية ، والمسلمون كأنهم مسيحيون ، فتعالوا بنا نساعدهم على الكمال في دينهم . ولا نسعى عبثا لابطاله . وسنجد في الاسلام مسيحية ، ونجد محمدا آخذا بعضد المسيح في دينه »

وقد ظلت جمعية التقريب بين الاديان نشيطة في ذلك الحين حتى بعد عودة الامام من منفاه الى مصر ، بل كان يغذيها بمقالاته في الاسلام وحالة المسلمين ، وفي الديانة المسيحية وحالة المسيحيين ، وما يجب ان يكون عليه الفريقان من اتفاق واتحاد في سبيل الخير العام . ولقد كان دعاة التقريب من الانجليز يشوب دعوتهم بعض الاغراض السياسية لتوطيد النفوذ البريطاني في الشرق الاسلامي ، ولكن مما لا شك فيه انهم أفادوا في الدعاية للاسلام وفي تخفيف حالة التوتر والتعصب التقليدي بين الفريقين ، وفي تطور أفكار المسيحيين وتنويرها بالنسبة لتعاليم الدين المحمدي ، وما جاء به محمد من مبادىء سامية ، وسعت من رقعة المساحات الشاسعة والاقطار الكثيرة التي فتحها الاسلام ، وأقام فيها مساجده الى جانب الكنائس التي يعبد فيها الله ، كما يعبد في هذه المساجد ، والتي يقف فيها المسيحيون امام الله كما يقف المسلمون في مساجدهم متوجهين اليه بقلوبهم وارواحهم لا يعرفون الها غيره ، ولا يعبدون ربا سواه ، وهم عنده جميعا سواء

طاهر الطناحي

الإسلام والمسلمون

الانسان عالم صناعى

« ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب او القى السـمع وهو شهيد »

خلق الله الانسان عالما صناعيا ، ويسر له سبيل العمل لنفسه ، وهداه للابداع والاختراع ، وقدر له الرزق من صنع يديه ، بل جعله ركن وجوده ودعامة بقائه ، فهو على جميع أحواله من ضيق وسعة ، وخشونة ورفاهة ، وبيد وحضارة صنيعة أعماله ، أقواته من معالجة الارض بالزراعة ، أو قيامه على الماشية ، وسرابيله وما يقيه الحر والبرد والوجى من عمل يديه نسجا أو خصفا ، واكتانه ومساكنه ليست الا مظاهر تقديره وتفكيره ، وجميع مايتغنمه فيه من دواعى ترفه ونعيمه انما هى صور أعماله ومجالى افكاره ، ولو نفض يديه من العمل لنفسه ساعة من الزمان وبسط كفيه للطبيعة ، ليستجديها نفسا من حياة لشحت به عليه بل دفعته الى هاوية العدم ،وهو فى صنعه وابداعه محتاج الى أستاذ يثقفه وهاد يرشده ، فكما يعمل لتوفير لوازم معيشته وحاجات حياته يعمل ليعلم كيف يعمل وليقتدر أن يعمل ، فصنعته أيضا من صنعه ، فهو فى جميع شئونه الحيوية عالم صناعى كأنه منفصل عن الطبيعة بعيد من آثارها ، حاجته اليها كحاجة العامل لآلة العمل . هذا هو الانسان فى مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه

دعه فى هذه الحالة وخذ طريقا من النظر الى احواله النفسية ، من الادراك والتعقل والاخلاص والملكات والانفعالات الروحية ، تجده فيها أيضا عالما صناعيا ، شجاعته وجبنته ،

جزعه وصبره ، كرمه وبخله ،شهامته ونذالته ، قسوته ولينه، عفته وشرهه ، وما يشابهها من الكمالات والنقائص جميعا تابع لما يصادفه في تربيته الاولى وما يودع في نفسه من أحـــوال الذين نشأ فيهم وتربى بينهم مرامى أفكاره ومنـــاهج تعقله ومذاهب ميله ومطامح رغباته ونزوعـه الى الاسرار الالهية أو ركونه الى البحث في الخواص الطبيعية وعنايته باكتشـافه الحقيقة في كل شيء أو وقوفه عنـــد بادىء الرأى فيـــه وكل مايرتبط بالحركات الفكرية انما هي ودائع اختزنها لديه الآباء والامهات والاقوام والعشائر والمخالطون ، أما هواء المولد والمربى ونوع المزاج وشلل الدماغ وتركيب البدن وســائر الغواشي الطبيعيةفلا أثر لها في الاعراض النفسية والصفات الروحانية، الا ما يكون في الاستعداد والقابلية ، على ضعف في ذلك الاثر ، فان التربية وما ينطبع في النفس من أحوال المعاشرين وافكار المثقفين تذهب به وكأن لم يكن أودع في الطبع . نعم ان أفكارا تتجدد ، ومعقولات من أخرى تتولد ، وصفات تسمو ، وهمما تعلو ، حتى يفوق اللاحقون فيها الســابقين ويظن ان هذا من تصرف الطبيعة لا من آثار الاكتساب ، ولكن الحق فيه أنه ثمرة ما غرس ونتيجة ما كسب فهو مصنوع يتبع مصنوعا ،فالانسان في عقله وصفات روحه عالم صناعى

هذا مما لايرتاب فيه العقلاء ، ولكن هل تذكر ، مع هذا ، ان الاعمال البدنية ، انما تصدر عن الملكات والعزائم الروحية ، وان الروح هي السلطان القاهر على البدن ؟ أظنك لا تحتاج فيه الى تذكير لانه مما لايغرب عن الاذهان ، انما قبل الدخول في موضوعنا أقول كلمة حق في الدين ، ولا اظن منكرا يجحدها

ان الدين وضع الهى ومعلمـه والداعى اليه البشر ، تتلقاه العقول عن المبشرين والمنذرين فهو مكسوب لمن لم يختصهـم الله بالوحى ، ومنقول عنهم بالبلاغ والدراسة والتعليـــم والتلقين وهو عند جميع الامم أول ما يمتزج بالقلوب ويرسخ

فى الافئدة وتصطبغ النفوس بعقائده وما يتبعها من الملكات والعادات وتتمرن الابدان على ما ينشأ عنه من الاعمال عظيمها وحقيرها ، فله السلطة على الافكار وما يطاوعها من العزائم والارادات ، فهو سلطان الروح ومرشدها الى ماتدبر به بدنها ، وكانما الانسان فى نشأته لوح صقيل وأول مايخط فيه رسم الدين ، ثم ينبعث الى سائر الاعمال بدعوته وارشاده وما يطرأ على النفوس من غيره فانما هو نادر شاذ حتى لو خرج مارق عن دينه لم يستطع الخروج عما أحدثه فيه من الصفات بل تبقى طبعته فيه كأثر الجرح فى البشرة بعد الاندمال

وبعد فموضوع الديانة المسيحية والديانة الاسلامية بحث طويل الذيل ، وانما نأتى به على اجمال ينبئك عن تفصيل

الديانة المسيحية

ان الديانة المسيحية بنيت على المسالمة والمياسرة فى كل شىء ، وجاءت برفع القصاص واطراح الملك والسلطة ونبذ الدنيا وبهرجها ، ووعظت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتدينين بها ، وترك أموال السلاطين للسلاطين ، والابتعاد عن المنازعات الشخصية والجنسية بل والدينية ، ومن وصايا الانجيل : « من ضربك على خدك الايمن فادر له الايسر » . ومن أخباره ان الملوك انما ولايتهم على الاجساد ، وهى فانية، والولاية الحقيقية الباقية على الارواح وهى لله وحده . فمن يقف على مبانى هذه الديانة ويلاحظ ما قلنا من أن الدين صاحب الشوكة العظمى على الافكار مع ملاحظة ان لكل خيال أثرا فى الارادة يتبعه حركة فى البدن على حسبه ، يعجب كل العجب من أطوار الآخذين بهذا الدين السلمى المنتسبين فى عقائدهم اليه ، فهم يتسابقون فى المفاخرة والمباهاة بزينة هذه الحياة ورفه العيش فيها ، ولا يقفون عند حد فى استيفاء

لذاتها ، ويسارعون فى افتتاح الممالك والتغلب على الاقطار الشائعة ويخترعون كل يوم فنا جديدا من فنون الحرب ، ويبدعون فى اختراع الالات الحربية القاتلة ، ويستعملها بعضهم فى بعض ، ويصولون بها على غيرهم ، ويبالغون فى ترتيب الجيوش وتدبير سوقها فى ميادين القتال ، ويصرفون عقولهم فى احكام نظامها حتى وصلوا غاية صار بها الفن العسكرى من اوسع الفنون واصعبها ، وان أصول دينهم صارفة لعقولهم عن العناية بحفظ أملاكهم فضلا عن الالتفات الى طلب غيرها

الديانة الإسلامية

أما الديانة الإسلامية فقد وضع أساسها على طلب الغلبة والشوكة والافتتاح والعدة ورفض كل قانون يخالف شريعتها ونبذ كل سلطة لايكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ احكامها . فالناظر فى اصول هذه الديانة ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل ، يحكم حكما لا ريبة فيه بأن المعتقدين بها لابد ان يكونوا أول ملة حربية فى العالم ، وان يسبقوا جميع الملل الى اختراع الالات القاتلة واتقان العلوم العسكرية والتبحر فيما يلزمها من الفنون كالطبيعة والكيمياء وجر الاثقال والهندسة وغيرها . ومن تأمل فى آية : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » أيقن أن من صبغ بهذا الدين فقد صبغ بحب الغلبة وطلب كل وسيلة الى ما يسهل له سبيلها والسعى اليها بقدر الطاقة البشرية فضلا عن الاعتصام بالمنعة والامتناع من تغلب غيره عليه ، ومن لاحظ ان الشرع الاسلامى حرم المراهنة الا فى السباقة والرماية انكشف مقدار رغبة الشارع فى معرفة الفنون العسكرية والتمرن عليها ، ولكن مع كل ذلك تأخذه الدهشة من أحوال المتمسكين بهذا الدين لهذه الاوقات اذ يراهم يتهاونون بالقوة ويتساهلون فى طلب لوازمها وليست لهم عناية بالبراعة فى فنون القتال ، ولا فى اختراع الالات ، حتى فاقتهم الامم

سواهم فيما كان أول واجب عليهم ، واضطروا لتقليدها فيما يحتاجون اليه من تلك الفنون والآلات ، وسقط كثير منهم تحت سلطة مخالفيهم واستكانوا لها ورضخوا لاحكامها (١) ومن وازن بين الديانتين حار فكره كيف اخترع مدفع السكروب والمتراليوز وغيرهما بأيدى أبناء الديانة الاولى قبل الثانية ؟ وكيف وجدت بندقية مرتين فى ديار الاولين قبل وجودها عند الآخرين ؟ وكيف أحكمت الحصون ودرعت البواخر واخذت مغالق البحار بسواعد أهل السلامة والسلم دون أهل الغلبة والحرب ؟

لم لا يحار الحكيم وان كان نطاسيا ، لم لايقف الخبير البصير دون استكناه الحقيقة ؟ هل القرون الخالية والاحقاب الماضية لم تكن كافية لرسوخ الديانتين فى نفوس المستمسكين بعراهما؟

هل نبذ كل دينه ؟

هل نبذ أهل كل دين عقائد دينهم من أجيال بعيدة ؟ هل اقتصر النصارى فى دينهم على الاخذ بشريعة موسى واقتفاء سيرة يوشع بن نون ؟ هل تخللت بعض آيات الانجيل من حيث يدرى ولا يدرى بين الخطب والمواعظ التى تتلى على منابر المسلمين ، أو القى شىء منها فى أمانى معلميهم وناشرى شريعتهم عندما يتربعون فى محافل دروسهم ؟ هل تبدلت سنة الله فى الملتين ؟ هل تحول مجرى الطبيعة فيهما ؟ هل استبدت الابدان فيهما على الارواح أو وجد للارواح دبير سوى الفكر والخيال أو

---

(١) هذا وصف دقيق صحيح لما كانت عليه حالة العرب جميعا فى عصر الاستاذ الامام محمد عبده ، ولكن الاية قد تبدلت فى عهد الثورة الحاضر الذى عنيت فيه الجمهورية العربية المتحدة خاصة ، والامة العربية عامة باتباع الآية الكريمة : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة » الى جانب النهوض بالتصنيع ، ومن أهم واعظم مظاهره مصانع الاسلحة والذخيرة . ولكن الدعوة الى التسليح مازالت قائمة فى كل وقت لهذا الجيل ، وللاجيال القادمة ، ولكل أمة عربية واسلامية فى الشرق والغرب

انفلتت الافكار من سلطة الدين ، او تفاصت النفوس عن الانتعاش بنقشته ، وهو اول حاكم عليها واقوى مؤثر فيها ؟ هل تتخلف العلل عن معلولاتها ؟ هل تنقطع النسب بين الاسباب ومسبباتها؟ ماذا عساه أن يرشد العقول الى كشف المساتير وحل المعميات؟ أينسب هذا الى اختلاف الاجنساس — وكثير من أبناء الملتين يرجعون الى أصول واحدة ويتقاربون في الانساب الدانية — اينسب هذا الى اختلاف الاقطار ، وكثير من القبيلين يتشابهون في طبائع البلدان ويتجاورون في مواقع الامكنة ؟ الم يصدر من المسلمين وهم في شبيبة دينهم اعمال بهرت الابصار وأدهشت الالباب ؟ الم يكن منهم مثل فارس والعرب والترك الذين دوخوا الممالك واستووا على كرسي السيادة فيها . كان للمسلمين في الحروب الصليبية آلات نارية (١) أشباه المدافع فزع لها المسيحيون وغابوا عن معرفة اسبابها . ذكر ملكام سرجم (انكليزي) في تاريخ الفرس ان محمودا الغزنوي (٢) كان يحارب وثنيي الهند بالمدافع ،وكانت هي السبب في انهزامهم بين يديه سنة (٤٠٠) من الهجرة ، وما كان المسيحيون لذلك العهد يعرفون شيئا منها . فأي عون من الدهر أخذ بأيدي الملة المسيحية فقدمها الى مالم يكن في قواعد دينها ؟ وأية صدمة من صدماته دفعت في صدور المسلمين فأخرتهم عن تعاطي الوسائل لما هو اول مفروض في دينهم . مقام للحيرة وموضع للعجب ، ويظن أن لابد لهذا التخالف من سبب ، نعم وتفصيله

---

(١) الالات النارية ، هي التي عرفت ايام العرب باسم « النار الافريقية » ولا يعرف بالضبط من هم مخترعوها.وهي اقرب ما تكون الى ما عرف أيام الحرب العالمية الثانية باسم « سلقمولوتوف » غير ان الفرق بينهما ان الاولى كانت تتحمل مواد ملتهبة وتقذف بما يشبه المقلاع على العدو ، فتشتعل النيران حيث تقع . اما سلقمولوتوف فتحمل عدة قنابل تنفجر في عدة مواضع بدلا من موضع واحد

(٢) السلطان محمود الغزنوي من أشهر رجال التاريخ ، وكان مسلما متدينا ، فتح غزنة وافغانستانه ودخل الهند فاتحا ، وادخل فيها الدين الاسلامي

يطول ولكن نجمل على ما شرطنا :

ان الدين المسيحى انما امتد ظله وعمت دعوته فى الممالك الاوربية من ابناء الرومانيين ، وهم على عقائد وآداب وملكات وعادات ورثوها عن اديانهم السابقة وعلومهم وشرائعهم الاولى، وجاء الدين المسيحى اليهم مسالما لعوائدهم ومذاهب عقولهم ، وداخلهم من طرق الاقناع ومسارقة الخواطر لا من مطارق البأس والقوة فكان كالطراز على مطارفهم ، ولم يسلبهم ما ورثوه عن أسلافهم ، ومع هذا فان صحف الانجيل الداعية للسلامة والسلم لم تكن كسابق العهد مما يتناوله الكافة من الناس ، بل كانت مذخورة عند الرؤساء الروحانيين ، ثم ان الاحبار الرومانيين (١) لما أقاموا أنفسهم فى منصب التشريع وسنوا محاربة الصليب ودعوا اليهـا دعوة الدين التحمت آثارها فى النفوس بالعقائد الدينية وجرت منها مجرى الاصول، ولحقها على الاثر تزعزع عقائد المسيحية فى أوربا ، وافترقوا شيعا وذهبوا مذاهب تنازع الدين فى سلطته ، وعاد وميض ما اودعه اجدادهم فى جرائيم وجسودهم ضراما ، وتوسعوا فى فنون كثيرة ، وانفسح لهم مجال الفكر فيها ، وكانت براعتهم فى الفن العسكرى واختراع آلات الحرب والدفاع مساوقة لبراعتهم فى سائر الفنون

اما المسلمون فبعد أن نالوا فى نشأة دينهم مانالوا ، واخذوا من كل كمال حربى حظا ،وضربوا في كل فخار عسكرى بسهم، بل تقدموا سائر الملل فى فنون المقارعة وعلوم النزال والمكافحة، ظهر فيهم أقوام بلباس الدين وأبدعوا فيه ، وخلطوا بأصوله ما ليس منها ، فانتشرت بينهم قواعد الجبر ، وضربت فى الاذهان حتى اخترقتها ، وامتزجت بالنفوس حتى امسكت بعنانها عن الاعمال ، هذا الى ما ادخله الزنادقة فيما بين القرن الثالث

---

(١) لقد عارض الاباطرة الرومان قيام الدين المسيحى فى بداية الامر لانهم كانوا يعتقدون أن فى هذا انتقاصا من سلطتهم الزمنية فضلا عن الدينية

والرابع وما احدثه السوفسطائيون الذين انكروا مظاهر الوجود وعدوها خيالات تبدو للنظر ولا تثبتها الحقائق ، وما وضعه كذبة النقل من الاحاديث ، ينسبونها الى صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم ويثبتونها فى الكتب ، وفيها السم القاتل لروح الغيرة ، وان ما يلصق منها بالعقول يوجب ضعفا فى الهمم وفتورا فى العزائم ، وتحقيق اهل الحق وقيامهم ببيان الصحيح والباطل من كل ذلك لم يرفع تأثيره عن العامة ، خصوصا بعد حصول النقص فى التعليم والتقصير فى ارشاد الكافة الى أصول دينهم الحقة ، ومبانيه الثابتة التى دعا اليها النبى وأصحابه ، فلم تكن دراسة الدين على طريقها القويم الا منحصرة فى دوائر مخصوصة ، وبين فئة ضعيفة . لعل هذا هو العلة فى وقوفهم ، بل الموجب لتقهقرهم ، وهو الذى نعانى من عنائه اليوم مما نسأل الله السلامة منه

الا أن هذه العوارض التى غشيت الدين وصرفت قلوب المسلمين عن رعايته ، وان كان حجابها كثيفا ، لكن بينها وبين الاعتقادات الصحيحة التى لم يحرموها بالمرة تدافع دائم وتغالب لا ينقطع ، والمنازعة بين الحق والباطل كالمدافعة بين المرض وقوة المزاج ، وحيث أن الدين الحق هو أول صبغة صبغ الله بها نفوسهم ولا يزال وميض برقه يلوح فى أفئدتهم بين تلك الغيوم العارضة فلابد يوما أن يسطع ضياؤها وينقشع سحاب الاغيان ، وما دام القرآن يتلى بين المسلمين وهو كتابهم المنزل ، وأمامهم الحق ، وهو القائم عليهم بأمرهم بحماية حوزتهم ، والدفاع عن ولايتهم ، ومغالبة المعتدين ، وطلب المنعة من كل سبيل ، لا يعين لها وجها ، ولا يخصص لها طريقا ، فاننا لا نرتاب فى عودتهم الى مثل نشأتهم ونهوضهم الى مقاضاة الزمان ما سلب منهم ، فيتقدمون على من سواهم فى فنون الملاحمة والمنازلة والمصاولة حفظا لحقوقهم وضنا بأنفسهم عن الذل وملتهم عن الضياع والى الله تصير الامور

المسألة الإسلامية
بين هانوتو والإمام

كتب مسيو هانوتو وزير خارجية فرنسا فى جريدة ((الجرنال)) الباريسية مقالا عن الاسلام والمسالة الاسلامية نشر فى جريدة المؤيد . فرد عليه الاستاذ الامام بمقال بليغ افحمه فى كل ما جاء به

مقال مسيو هانوتو

وزير خارجية فرنسا

اصبحنا اليوم ازاء الاسلام والمسألة الاسلامية

اخترق المسلمون أبناء آسيا شمال القارة الافريقية بسرعة لا تجارى حاملين فى حقائبهم بعض بقايا تمدن البيزنطيين « يونان الشرق » ثم تراموا بها على أوربا ، ولكنهم وجدوا فى نهاية انبعاثهم هذا مدنية يرجع اصلها الى آسيا بل أقرب فى الوصلة الى المدنية البيزنطية مما حملوه معهم الا وهى المدنية الآرية المسيحية ، ولذلك اضطروا الى الوقوف عند الحد الذى اليه وصلوا ، واكرهوا على الرجوع الى أفريقية حيث ثبتت اقدامهم احقابا متعاقبة ، ولكن كان لايزال الهلال ينتهى طرفاه من جهة مدينة (القسطنطينية) ومن جهة اخرى ببلدة (فاس) فى المغرب الاقصى معانقا بذلك الغرب كله

فى تلك البقعة الافريقية التى اصبحت مقر ملك الاسلام جاءت الدولة الفرنسية لمباغتته . جاء القديس (لويس) (١) الذى ينتمى الى اسبانيا بوالدته ليضرم نيران القتال فى مصر وتونس، وتلاه لويس الرابع عشر فى تهديده بالايالات الافريقية الاسلامية، وعاود هذا الخاطر (نابوليون الاول) فلم يوفق الى تحقيقه الفرنسيون الا فى القرن التاسع عشر حيث أخنوا على دولة

---

(١) القديس لويس هو لويس التاسع ملك فرنسا المتدين ، وهو قائد الحملة الصليبية التاسعة التى هزمت فى المنصورة عام ١٢٥٠ ، واسر هذا القديس نفسه فى دار ابن لقمان

الاسلام التي كانت لا تني في متابعة الغارات على القارة الاوربية ، فأصبحت الجزائر في أيديهم منذ ٧٠ عاما (١٨٣٠) ، وكذلك القطر التونسي منذ عشرين عاما (١٩١٢)

قد وصلت طلائع قواتنا الآن الى أصقاع من الصحراء تنتهي اليها كثبانها الرملية ، فعظم اندهاش الباقين من خصومنا وتزايد ذهولهم لانهم بعد اندفاعهم شيئا فشيئا في الفيافي وبطن الخبوت ، وظنهم انهم صاروا في أمنع موئل ، شعروا بأنفسهم وقد حلق عليهم الاوربيون من جميع الجهات وكانت القبائل الواردة اليهم من (السنغال) أخبرتهم بأن الاوربيين امتلكوها وتقدموا منها الى (باقل) (وباماكوا) (وسيجوسيكورو) وتوغلوا في جهات اخرى حتى وصلوا الى (النيجر) وبحيرة (شاد) وان مدينة (تمبكتو) المقدسة قد سقطت في ايديهم منذ اعوام ، وأكد لهم هذه الاخبار ايضا رسلهم الذين يخترقون افريقية الوسطى ويجوبون نواحيها بما ذكروه لهم من أن جهات (صانغا) و (تجاوندره) قد وطأتها اقدام الحاملين للعلم المثلث الالوان الذين يصعدون الانهار لتنظيم البلاد وترقية شئونها ، وان وابوراتهم في (الاصل بابور على التحريف الشائع عند الامم الشرقية من تسمية البواخر النهرية او البحرية بالبابورات بدلا من البواخر)تشق عباب نهري (الكونغو) و (الشاري) (١) وتنعكس على سطحها صورة الدخان الاسود المسترسل خلفهما ، عندئذ كان يطرق الاذان صوت اليائسين وقد جلسوا أمام دورهم واضعين رءوسهم بين أفخاذهم لكثرة الغم والكدر ، وهم يدعون الله ويكررون قولهم عن (فرنسا) يشبهونها بسرادق كبير اذا حاول الانسان قلعه فلا يزال له السمو عليه ، ويختمون كلامهم بقولهم (قد كان هذا قدرا مقدورا)

---

(١) نهر شاري هو الذي يصب في بحيرة شاد في وسط غربه افريقيا

اذن فقد صارت (فرنسا) بكل مكان فى صلة مع الاسلام بل صارت فى صدر الاسلام وكبده حيث فتحت اراضيه واخضعت لسطوتها شعوبه وقامت تجاهه مقام رؤسائه الاولين ؛ وهى تدير اليوم شئونه ، وتجبى ضرائبه ؛ وتحشد شبانه لخدمة الجندية ؛ وتتخذ منهم عساكر يذبون عنها فى مواقف الطعان ومواطن القتال . تلك المملكة الفسيحة الارجاء التى أنشأتها فى باطن القارة الافريقية هى الوارثة لما أبقته الدول السابقة والامم البائدة من (قرطاجيين) (ورومانيين) و « عرب » من آثار المدنية التى كانت القارة الافريقية منبتا لثمارها اليانعة

خطر الاسلام

ان شعبا جمهورى المبادىء يبلغ عدد ابنائه اربعين مليونا ؛ لامرشد له الا نفسه ، لا عائلات ملوكية فيه تتنازعه الحكم ، ولا رؤساء يتناولون الرئاسة بطريق الوراثة ، هو الذى تقلد زمام ادارة شعب آخر لا يلبث ان ينمو حتى يساوى ضعف عدده وهو ذلك الشعب المنتشر فى الارجاء الفسيحة والاصقاع المجهولة ؛ والمتبع لتقاليد وعادات غير التى نعتنو لها ونحترمها ، هو الشعب الاسلامى السامى الاصل الذى يحمل اليه الشعب الآرى المسيحى الجمهورى الآن ملح وروح المدنية . نعم ان ظروف وشروط هذه المعضلة نادرة ، ولكن ليس على الشعب الغالب أن يحاول جهده لمعرفتها والاطلاع عليها

ليس الاسلام فينا فقط بل هو خارج عنا أيضا قريب منا فى (مراكش) تلك البلاد الخفية الاسرار التى يشبه وجودها الحاضر مقدور الابد فى الغموض والاشتباه — قريب منا فى (طرابلس الغرب) التى تتم بها المواصلات الاخيرة بين مركز الاسلام فى البحر الابيض المتوسط ، وبين الطوائف الاسلامية فى باطن القارة الافريقية — قريب منا فى (مصر) حيث تصادمت (الدولة البريطانية) فصادمتها اياها فى الاقطار الهندية وهو

موجود وشائع فى (آسيا) حيث لا يزال قائمــــا فى (بيت المقدس) وناشرا أعلامه على مهد الانسانية ، ويحسب أنصاره وأشياعه فى قارات الارض القـــديمة بالملايين ، وقد انبعثت شعبة منه فى بلاد (الصين) فانتشر فيها انتشارا هائلا حتى ذهب البعض الى القول بأن العشرين مليونا المسلمين الموجودين فى الصين لايلبسون أن يصيروا مائة مليون فيقوم الدعاء للهمقام الدعاء (لساكيامونى) ، وليس هذا بالامر الغريب فانه لايوجد مكان على سطح المعمورة الا واجتاز الاسلام فيه حدودهمنتشرا فى الآفاق ، فهو الدين الوحيد الذى أمكن انتحـــال الناس له زمرا وأفواجا ، وهو الدين الوحيد الذى تفوق شدة الميل الى التدين به كل ميل الى اعتناق دين سواه ، ففى البقاع الافريقية ترى المرابطين وقد أفرغوا على أبدانهم الحلل البيضاء يحملون الى الوثنيين من العبيد العارية أجسامهم من كل شعار ، قواعد الحياة ومبادىء السلوك فى هــــذه الدنيا ، كما أن أمثالهمفى القارة الآسيوية ينشرون بين الشعوب الصفر الالوان قواعد الدين الاسلامى ، ثم هو ، أى هذا الدين ، قائم الدعائم ثابت الاركان فى أوربا عينها ، أعنى فى الآستانة العلية حيث عجـزت الشعوب المسيحية عن استئصال جرثومته من هــــذا الركن المنيع ، الذى يحكم منه على البحار الشرقية ، ويفصل الدول العربية بعضها عن بعض شطرين

فى باحات قصر يلدز ترى العلماء والدراويش وقد تدثروا بثياب الصـــوف ، وتعمموا بالعمـــائم الكبيرة ، جالسين على الارائك بجانب سفراء الدول . هم هنـــاك يمثلون فى الخاطر أشخاص ألف ليلة وليلة لايتحركون من مقاعدهم ، ينبسون بكلمات تطابق تحريك أيديهم حبات السبح ، منتظرين مجىء دورهم فى المقابلات لعرض طلب أو توجيه لوم . وكل المسلمين ممن يقيمون فى (الاستانة) أو فى (مراكش) ، فى أرجاء آسيا

أو أصقاع افريقية ، من بدو كانوا أو حضر ، واقفين في أماكنهم أو سائرين مع القوافل ، يركعون مع الراكعين اذا حانت الصلاة ، يتوضئون أو يتيممون بالتراب ، مولين وجوههم جميعا شطر الكعبة ، وسواء منهم الذين يلبسون الثيــــاب الواسعة ، أو يتزيون بالسترة الاسلامبولية ، والذين يلبسون الطربوش أو العمائم على رءوسهم ، والذين يضعون السيف والبطقان في نطاقهم ، أو يتلقون العلوم في مدرســـة برلين الجامعة ، أو يدرسون علوم السياسة في باريس ، فانهم يولون وجوههم شطر جهة واحدة ، هي الارض المقـدسة ، هي الارض التي تكتنفها الصحراء ، هي الارض التي عاش فيها محمـد ، هي الارض التي تتضمن جسمه المبارك ، في قبر لايجسر احد على الوصول اليه الا مغطي الوجه حياء وهيبة ، هي الارض التي جاء منها الآباء ويعود اليها الابناء بحركة مستمرة ، هي الحج الابدى الى بيت الله الحرام ، وجميع المسلمين عن بكرة أبيهم يرنون بطرفهم الى هذا المكان المقدس ، ويمدون اليه أعناقهم ولا يجدون لذة في الحياة الا بأمل العودة اليه ، ومن مات منهم ولم يكن أدى فريضة الحج مات على أسف وحسرة . وخلاصة القول أن جميع المسلمين على سطح المعمورة تجمعهم رابطــة واحدة ، بها يدبرون أعمالهم ويوجهون أفكارهم الى الوجهة التي يبتغونها ، وهذه الرابطة تشبه السبب المتين الذى تتصل به أشياء تتحرك بحركته وتسكن بسكونه ، بل هي القطب الذى تنتهي اليه قوة المغناطيسية . ومتى اقتربوا من الكعبة — من البيت الحرام — من بئر زمزم الذى ينبع منه الماء المقدس — من الحجر الاسود المحاط باطار من فضة — من الركن الذى يقولون عنه انه سرة العالم ، وحققوا بانفسهم امنيتهم العزيزة التي استحثتهم على مبارحة بلادهم في اقصى مدى من العـالم للفوز بجوار الخالق في بيته الحرام — اشتعلت جذوة الحمية

الدينية فى افئدتهم ، فتهافتوا على اداء الصلاة صفوفا وتقدمهم الامام مستفتحا العبادة بقوله : « باسم الله » فيعم السكون والسكوت ، وينشران اجنحتهما على عشرات الالوف من المصلين فى تلك الصفوف ، ويملأ الخشوع قلوبهم ، ثم يقولون بصوت واحد « الله اكبر » ثم تعنو جباههم بعد ذلك قائلين : « الله اكبر » بصوت خاشع يمثل معنى العبادة

ولا تظنوا أن هذا الاسلام الخارجي الذى تجمعه جامعة فكر واحد غريب عن اسلامنا ولا علاقة له به ، لانه وان كانت البلاد التي تحكمها شعوب مسيحية ليست فى الحقيقة بدار سلام وانما هي « دار حرب » (١) فانها لاتزال عزيزةوموقرة فى قلب كل مسلم صحيح الايمان . والغضب لا يزال يحوم حول قلوبهم كما تحوم الاسد حول قفص حبست فيه صغارها، وربما كانت قضبان هذا القفص ليست متقاربة ولا بدرجة من المتانة تمنعها عن الدخول اليهم من بينها

ترى فى قرانا وبلداننا درويشا فقيرا شاحب اللون مدثرا بأرديته البيضاء المقلمة بخطوط سوداء يلهج لسانه بذكر الله والصلاة على نبيه ، لا يلويه عن ذلك شيء — هذا الدرويش الذى ينتقل من خيمة الى خيمة ، ومن قرية الى قرية ، راويا حوادث الاقطاب والاولياء من مشايخ الاسلام ، انما يبذر فى القلوب حيثما حل واينما توجه بذور الحقد والضغينة علينا

ان العالم الاسلامي منقسم الى طوائف وطرائق لا عداد لها، ينخرط فى سلكها الالوف من رعايانا المسلمين ولكن ليس لها فى الغالب مراكز ولا زوايا بالاراضي الداخلة فى دائرة نفوذنا ،

---

(١) كان عند المسلمين داران : دارالسلام ودار الحرب ، ويقصدون بالاخيرة مناطق سكنى العدو المتربص على حدود الاسلام . اما مدن الحدود فتسمى بالثغور

وغاية الامر ان العاملين فى هــــذه الطوائف والمذاهب الكثيرة يخترقون بلا انقطاع ولا توان مستعمراتنا الافريقية، فيستقبلهم أهلوها بالترحاب ، ويحسنون وفادتهم ، ويكرمون مثواهم ، حتى ان الفقير منهم لايرى فى اكرامه له أقل من أن ينحر له شاة ، هذا عدا مايجمعه له من صدقات ذوى البر والاحسان ، او من المرتبات المالية السنوية التى يبلغ ما يدفعه أهالى الجزائر وحدهم منها ثمانية ملايين من الفرنكات كل عام ، وهذا ممــا يستوجب العجب والدهشة لان مقدار ماتجبيه من الضرائب كل سنة من أهالى الجزائر لا يتجاوز ضعف هذا المبلغ

ومن بين تلك الطرائق والطوائف مايخلد أعضاؤه الى السكون؛ وربما كانت علاقتهم مع رجال حكومتنا فى الجزائر وتونس على احســن ما يرام . وما ذلك الا لان الرابطة التى تربط بعضهم ببعض قد اعتراها الوهن ، ولان الفوضى التى أصابت الاسلام الافريقى قد أخذت نصيبها منهم ، ولكن توجد طوائف غيرها بلغت شدة العصبية منها مبلغا عظيما ، لانها مؤسســة على مبدأ كفاح غير المؤمنين ، وعلى كراهة المدنية الحاضرة ، وقد اسس الشيخ السنوسى فى جهة ليست بعيدة عن الاصقــاع التى تلى أملاكنا فى الجزائر مذهبا خطيرا له أشياع وأنصار ، ومقر هذا الشيخ بلدة جغبوب الواقعة على مسيرة يومين من الواحة التى كان قائما بها هيكل الاله آمون(1) وقد هاجرأولاده الى (كوفرة) . ومن مذهبهم التشديد فى رعاية القواعــد الدينية وقد لبثوا زمنا مديدا لا يرتبطون بعلاقة ما معالدولة

---

(1) لعله يقصد به واحة سـ وة . ومن المعروف ان معبـد الاله أمــون كان يقع فى هذه الواحة . ولا يغيب من البال أن الاسكندر الاكبر المقدونى قد زار هذه الواحة ، ودخل حرم هــذا المعبد فيها حيث أخذ من الهه امــون تفويضا بحكم العالم . وقد ذكر هــذا المؤرخ و . تارن فى كتابه بعنــوان « الاسكندر الاكبر Alexander The Great »

العلية بسبب ما بينها وبين الدول المسيحية من العلاقات ،ولكن يظهر ان اخلاقهم الشديدة قد تلطفت فتقربوا أخيرا من الدولة العلية . غير ان هذا لم يمنعهم من طرح حبائل الدسائس التى اوقفت رجال بعثاتنا عن كل عمل مفيد لصالحها فى افريقية الجنوبية ، ولم يكن الامر مقصورا على وسط القارة الافريقية، فانه توجد بالاستانة نفسها وبالشام وبلاد العرب ومراكش عصابة خفية ومؤامرة سرية ، تحيطنا اطرافها وتضغط علينا من قرب ويخشى انها تفترسنا اذا أغمضنا الطرف

كنا نرى من زمن حديث رعايانا الوطنيين فى الجزائر ينقادون لاوامر سرية ، تناقلوها بالافواه ، وكانت تقضى عليهم بتأليف الزمر والافواج منهم لهاجرة أوطانهم ، والذهاب الى آسيا الصغرى حيث يجدون الامن المرجو

يؤخذ مما تقدم أن جراثيم الخطر لا تزال موجودة فى ثنيات الفتوح ، وطى افكار المقهورين الذين أتعبتهم النكبات التى حاقت بهم ، ولكن لم تثبط هممهم . نعم ليس لمقاومتهم رؤساء يديرون هذه المقاومة ، ولكن رابطة الاخاء الجامعة لافراد العالم الاسلامى بأسره كافلة بالرئاسة ، ففى مسألة علائقنا مع الاسلام تجد المسألة الاسلامية والمسألة الدينية والمسائل الداخلية والخارجية شديدة الاتصال والارتباط بعضها ببعض، وهذا يجعل حلها صعبا ومتعذرا كما سنبينه

المسائل الاساسية فى كل دين هى التى ترتبط بالقدر والمغفرة والحساب ، وهى كلمات ثلاث مصبوغة بصبغة دينية، تلقى فى النفس الاعتقاد بوعورة المسلك فى تفهمها ، مع انها من الامور التى ينبغى الوقوف عليها والعلم بها مهما صعب منالها وتعذر مرامها . ان الدين هو الوسيلة التى تمهد للانسان طريق الوصول الى الحضرة الالهية أو هو بعبارة أخرى الواسطة فى وقوف المخلوق بين يدى الخالق . اذا تقرر ذلك ، فهل الخالق

بقدرته المطلقة يودع فى نفس المخلوق استعدادا للعمل بمقتضى ارادته السرمدية بحيث لايحيد عما تأمره به هذه الارادة ، ام للانسان متى تم خلقه ارادة خاصة يعمل بحسبها واختيار مستقل لا يستمد من اختيار اسمى منه ؟ وهل للانسان الذى خلقه الله وسواه ارادة مطلقة من نفسه وتصرف مطلق فى ذاته، ام ترجع جميع أعماله من خير وشر الى القدرة الربانية القابضة على زمام الكون والمسببة لوجوده فيه ؟

فى دائرة هذا البحث تنحصر الخلافات الدينية والفلسفية التى لم يوفق دين من الاديان ولا مذهب فلسفى الى حسمها بكيفية يقتنع بها الادراك ويرضاها العقل ، مع أن البحث [illegible] لاصابة هذا الغرض السامى لم يكن بالامر الحديث ، اذ طالما بحث فيها فلاسفة الاقدمين فلم يجدوا لها حلا ، وكان حظهم منها كحظ فلاسفة وعلماء المتاخرين

وغاية ماعرف منذ الاعصر السالفة الى الآن انه وجد مذهبان تشاطرا فيما بينهما العقائد البشرية من تلك الوجهة [illegible] . فالاول منهما يقول بتناهى الربوبية فى العظمة والعلو ، وجعل الانسان فى حضيض الضعف ودرك الوهن . ويذهب الثانى الى رفع مرتبة الانسان وتخويله حق القربى من الذات الالهية بما فطر عليه من ايمان وارادة ، وبما أتاه من أعمال صالحات وحسنات

والنتيجة الطبيعية للاعتقاد بمذهب الفريق الاول هى تحريض الانسان على اغفال شئون نفسه ، وبث القنوط فى فؤاده ، وتثبيط همته ، وايهان عزيمته ، بينما تسوقه نتيجة الاعتقاد بمذهب الفريق الثانى الى ميدان الجلاد والعمل ، وتلقى به فى غمرات التنافس الحيوى ، ومن الامثال على الفريقين البوذية الذين يدينون بدين يقضى عليهم بالتجرد ، اذ

من قواعده ان الانسان والكون يفنيان فى الذات الالهية(1) وقدماء اليونان الذين يدينون بدين من قواعده تشبيه الاله بالانسان فى اوصافه المادية ، يقضى عليهم هذا الدين بالعمل والحياة لاعتقادهم بان الانسان او « البطل » يمكنه أن يعتبر فى عداد الالهة بحسناته وخيراته

وقد ظهرت على اطلال العالم القديم بعد خمسمائة عام من انقضائه ديانتان ، احداهما ربانية والثانية بشرية تمثلانه فى ذينك المذهبين المتناقضين ولكن بتلطيف فى التناقض . أما الاولى فهى الديانة المسيحية الوارثة بلا واسطة آثار الآريين والمقطوعة الصلات بالمرة مع مذهب السامية ، وان كانت مشتقة منه وغصنا من دوحته ، ومن خصائص هذه الديانة ترقية شان الانسان بتقريبه من الحضرة الالهية ، على حين ان الديانة الثانية وهى الاسلام المشوبة بتاثير مذهب السامية تحط بالانسان الى اسفل الدرك ، وترفع الاله عنه فى علاء لا نهاية له

هذان الميلان المختلفان يظهران ظهورا واضحا فى الاعتقاد الاساسى لكلتا الديانتين ، وهو اصل الالوهية ، اما المذهب المسيحى فيذهب فى هذا الاصل الى الثالوث اى ان الاله الاب اوجد الابن واتصل الاثنان بصلة هى روح القدس ، وعليه فيكون يسوع المسيح الها وبشرا — هذا الثالوث السرى المشتقة اصوله من ضرورة وجود اله بشرى يمحو ذنب الجنس البشرى ويفديه من الخطيئة التى اقترفها ، يرفضه المسلم الذى يعتقد بوحدانية الرب ، ويتمسك بهذا الاعتقاد تمسكا شديداً حيث يقول : « لا اله الا الله »

---

(1) معنى كلمة « بوذا » هى كشف نقاب الجهل عن وجه هذا العالم . وكان هدف المعلم بوذا الذى عرف بهذا الاسم هو خلاص النفس من متاعب الحياة والامها . فقد جاء فى نص قديم ينسب اليه — الى بوذا — ويوضح حقيقة الرسالة التى كافح من اجلها ما يلى :

« لما كان المحيط الكبير ليس الا مذاقا واحدا هو الملح الاجاج ، كذلك الحال مع هذه العقيدة ليس لها الا مذاق واحد هو مذاق الخلاص والتحرر »

غير ان ادراك المسيحيين من هذا القبيل هو اخف واعلى واجلب للثقة ، اذ هو يحملهم على اتيان الاعمال التى تقربهم الى الله حيث الوسائط بينهم وبين ذاته الجليلة موصولة فى حين ان المسلمين تجعلهم ديانتهم كمن يهـــوى فى الفضاء بحسب ناموس لا يتحول ولا يتبدل ، ولا حيلة فيـــه سوى متابعة الصلوات والدعوات والاستغاثة بالله الاحد الذى هو مستودع الآمال ولفظة الاسلام معناها « الاستسلام المطلق لارادة الله»

ترى الديانتين او بعبارة اخرى المدنيتين المسيحية والاسلامية احداهما بازاء الاخرى ، وتتصل الاثنتان بعضهما ببعض من حيث المنشأ العام لهما ، اذ هما مشتقتان من الاصول اليونانية السامية ومنها استمدتا جانبا من العقائد والمذاهب والآداب فهما اذن متداخلتان فى بعضهما من وجوه عدة ، ولكن مسافة الخلف بينهما شاسعة فى الحقيقة من حيث البحث فى القدرة الالهية والحرية البشرية

رايان فى الاسلام

وقد كانت هذه المناقضات وتلك الاشباه نقطة تفرع الطريقين المختلفين للذين اتبعناهما فيما يربطنا من العلائق بالاسلام والمسلمين . قصر فريق منا بحثه وحكمه على ماشـــاهده من المناقضات والخلافات بين الدينين المسيحى والاسلامى فراى فى الاسلام العدو الالد والخصم الاشد . قال المسيو كيمـون فى كتابه (باثولوجيا الاسلام) : « ان الديانة المحمدية جـذام نشأ بين الناس واخذ يفتك بهم فتكا ذريعا بل هى مرض مريع وشلل عام وجنون ذهولى يبعث الانسان على الخمول والكسل ولا يوقظه منهما الا ليسفك الدماء ويدمن على معاقرة الخمور ويجمح فى القبائح ، وما قبر محمد فى مكة الا عمود كهربائى يبث الجنون فى رءوس المسلمين ويلجئهـــم الى الاتيان بمظاهر الهستيريا (الصرع) العامة والذهول العقلى وتكرار لفظة الله

الى مالا نهاية ، والتعود على عادات تنقلب الى طباع أصلية ، ككراهة لحم الخنزير والنبيذ والموسيقى والجنون الروحانى والتيمانيا او الماليخوليا وترتيب ما يستنبط من افكار القسوة والفجور فى اللذات . . الخ الخ . »

أمثال هذا الكاتب يعتقدون ان المسلمين وحوش ضارية وحيوانات مفترسة (كالفهد والضبع كما يقول المسيو كيمون) وان الواجب ابادة خمسهم (كما يقول أيضا) والحكم على الباقين بالاشغال الشاقة وتدمير الكعبة ووضع ضريح محمد فى متحف اللوفر (وهذا أيضا قوله) ... وهو حل بسيط وفيه مصلحة للجنس البشرى . . أليس كذلك ؟ ولكن قد برح عن خاطر الكاتب أنه يوجد نحو ١٣٠ مليون مسلم وان من الجائز أن يهب هؤلاء « المجانين » للدفاع عن انفسهم والذود عن بيضة دينهم

ويذهب غير أصحاب هذا الراى الى أن الاسلام دين ومدنية يتصلان مع ديننا ومدنيتنا بعروة الاخاء والتصاحب، وتطرف البعض منهم فاعتبروا الاسلام أرقى مبدأ وأسمى كعبا من الدين المسيحى . قال المسيو لوازون (القس ياسنت سابقا) معترفا ومقرا ان الاسلام هو الدين المسيحى محسنا ومحورا ، ونصح للفرنسيين الذين يلتمسون دينهم المفقود أن يستعينوا بالاسلام للعثور على ضالتهم المنشودة ويذهب قوم غير الذين سبقت الاشارة اليهم الى وجوب احترام الاسلام وتبجيله ، مستندين فى ذلك على ما دونه أحد مؤرخى الكنيسة الذى صار فيما بعد كردينالا حيث قال : « ان الاسلام قنطرة للأمم الافريقية ينتقلون بواسطتها من ضفة الوثنية الى ضفة المسيحية ، فليس الواجب والحالة هذه مقصورا على معاملة الاسلام بالتساهل والتسامح ، بل لابد من رعايته وتعضيده، بأن نسعى فى توسيع نطاقه ، وترتيب الارزاق على المساجد والمدارس ، وجعله رائدا لمدنية فرنسا وآلة تستعين

به على فتوح البلاد »

هذان هما الرأيان السائدان بما بينهما من درجات الاعتدال والتلطف والمسالمة ، ولكنهما وان افترقا ؛ متصل بعضهما ببعض وموجودان في حيز واحد . وقد لوحظ كثيرا أن كل فرد من افراد موظفينا أو وكلائنا او ابنائنا المستعمرين قد حار بين المبدأين ، وسلك الخطة التي رسمها لنفسه تجاه المسلمين طبقا لميوله نحو قطب من القطبين المتناقضين اللذين يوجد بأحدهما المتطرفون وبالاخر المتعصبون ، ولا وسط بينهما

وتلك الميول المتعاكسة التي برزت من مكان الاعتقاد الى مجالى الفعل والتنفيذ ، هي التي أحدثت التناقض في أعمالنا الاجتماعية والسياسية والادارية ، وادت الى الشكوك والريب ، ونقض ما ابرم ، وابرام ما نقض ، الى غير ذلك مما جرت عليه حكومتنا ولاسيما في البلاد الافريقية من عدم السير على وتيرة واحدة . هذا الخلل ينمو شيئا فشيئا ويتضاعف خطره كل يوم ، اذا فكر الانسان في أنه لا يصيب بسوئه بلاد الجزائر مع سكانها الوطنيين الذين يبلغ عددهم اربعة ملايين او خمسة فقط ، بل يسري على نصف قارة باكملها عديدة السكان ؛ وسيزداد ويتضاعف عددها بامتداد رواق الامان على الاهالى وابطال التجارة في الرقيق

المسألة خطيرة

فالمسألة اذن خطيرة جدا ولابد من الاعتماد على أمر واحد في حلها ، اذ لا يكفي للوصول الى هذا الحل تنميق عبارات وتسطير كلمات ؛ ولذلك خيرت أن أعرضها على محك الرأى العام ، مبينا أحكم الوسائل واكثرها انطباقا على العقل والصواب ، للوصول الى نتيجة فعلية ، وموردا شيئا واحدا هو من ألزم الاشياء لموضوع تلك المسألة واشدها ارتباطا به

قد سبق لي وقتما تم تشكيل مملكتنا الافريقية تشكيلا تاما ، ان سألت ـ ولا زلت اكرر هذا السؤال ـ الحكومة ان تبحث بحثا علنيا في علاقاتنا مع الاسلام والمسلمين ، بمعرفة أناس خبيرين وعلماء عارفين ، ليتجلى هذا البحث عن الخطة التي يتحتم على الجميع اتباعها من حاكم منا ومحكوم عليه

ان الراغب في الاستعمار من أبناء بلادنا يصل الى الجزائر أو تونس أو السنغال ، فيجد نفسه في اتصال مع العربي ، أو بعبارة أعم مع المسلم ، اذ منه يشتري الارض التي يريد استنباتها ، ومنه يطلب اليد العاملة ومعه يدبر شئونه المعيشية ، فبالرغم عن هذا الاتصال وعن هذا الجوار والتلاصق تراهما يجهل احدهما الاخر ، وتنفرج مسافة هذا الجهل وتكون عواقبه أكثر خطرا ، اذا كانت العلاقة بين الاهالي وبين الموظف أو الحاكم او القاضي أو الضابط او غيرهم ، ممن هو منوط بالفصل في خصوماتهم ، والقيام على شئونهم ، وتنفيذ قوانيننا بينهم ، وما أسوأ مغبة ذلك الجهل اذا كانت العلاقة بينهم وزارة مستعمراتنا أو رجال حكومتنا المركزية التي يديرها أحد عشر وزيرا ، ربما لايوجد من بينهم سوى واحد أو اثنين أنعما النظر في خريطة الانحاء الواسعة والاصقاع القصية التي عهد اليهم أمر ادارتها وتنظيمها

مع أن الواجب متى رضينا باحتمال هذه المسئولية على عواتقنا ، ونلنا هذه السلطة ان نطيل البحث ونمعن النظر في طرق استخدام هذه السلطة وان نسأل الخبيرين والعارفين ، ونستفيد ممن شاهدوا واختبروا ونستمد من معلوماتهم ما نستعين به على تحرير متن سياسي وجيز يتضمن أصول ومباديء علاقاتنا مع العالم الاسلامي . ان فريقا كبيرا من العلماء النظريين والعمليين من موظفين وضباط وأساتذة ومهندسين ومزارعين ومستعمرين قد كانوا ولا

يزالون على اتصال بالمسلم . وجعلوا أحوال معيشته وطرق اعماله موضوع بحثهم ودراستهم . ولكن المسلمين انفسهم قد ينبئوننا بما نجهله من بقية أخبارهم ، فهم اذا سئلوا اجابوا ، واذا أجابوا أفاضوا ، وقد كثرت الابحاث فى كل موضوع ، حتى فى الموضوعات الصريحة الواضحة ولم يفكر أحد فى الامر الذى نحن بصدده ، وهو من اكثرها غموضا والتباسا ، فلماذا لا نستعين بالوسيلة التى تفيض علينا انوار الحقيقة ، ونطرح من هذه الانوار شعاعا على من يريدون اتباع الصراط المستقيم ، حتى اذا ما تم التحقيق والبحث حررنا بما ينبعث عنهما من الحقائق رسالة تذاع على الالسنة ، وتتداولها أيدى الموظفين والمستعمرين ، وتنشر بين الطلاب فى المدارس فتنمحى بها آثار الاضاليل والترهات الكثيرة ، وتزول العقبات القائمة ، وتقال الاقدام من العثرات، وتكون تلك الرسالة بمثابة قانون ثابت لفرنسا الاستعمارية يجرى على نهجها كل عامل ، فيعم نفعه وتجتنى ثماره ، وربما كان سببا فى أن نعيش مدة نصف جيل على أساس اختيار الفرنسيين المستعمرين الذين انتشروا فى عرض البلاد وطولها لا رابطة بينهم ولا صلة ، يواصلون الصباح بالمساء فى الندم والحسرة من عواقب هفوة أو زلة سقطوا فيها . وكانت كلمة واحدة كافية لاقالتهم من عثرتهم واصلاح هفوتهم

ولست أظن احدا يرتاب فى نتائج ذلك التحقيق . وانما قبل ختام هذا الفصل أورد بعض اعتبارات أخالها ضرورية للوصول الى الغاية المقصودة من اقوم طرقها

اشرت سابقا الى الصلة الاكيدة بين السياسة والدين فى العالم الاسلامى ، والمسلمون فى الاحوال الراهنة شاعرون شعورا قويا بإيمانهم العام ، غير أن ادراكهم من حيث الجامعة

السياسية ، وما كان يسميه القدماء بالرابطة المدنية او الوطنية ، اذ ينحصر الوطن عندهم فى الاسلام ، فلا يجوز أن يتولاها الا من كان من عقيدتهم . ولم تدخل فى رءوسهم حتى الان فكرة سوى هذه التى تمكنت من افئدتهم ، واخذت من قلوبهم أمتن ماخذ ، فكان ذلك سببا فى حدوث سوء التفاهم بين الحاكمين والمحكومين فى البلاد الاسلامية الخاضعة لحكومات مسيحية

على انه بالرغم من ذلك قد حصل انقلاب عظيم فى بلد من هذه البلاد فصلت فيه السلطة الدينية عن السلطة السياسية بدون جلبة ولا ضوضاء ، نريد به القطر التونسى الذى وضعت عليه الحماية التى مؤداها احترام النظام السابق على الفتح بصيانة القوانين والعادات من المساس ، والمحافظة على مركز الباى ، وقد بالغنا فى ذلك بحيث تمكنا بواسطة ما ادخلناه من التعديلات الطفيفة شيئا فشيئا ، وأجريناه من المراقبة على شئون الامور الادارية والسياسية من التداخل فى شئون البلاد ، والقبض على أزمتها بدون شعور من أهلها

تم هذا الانقلاب بسرعة ولين فلم يتالم منه الاهلون ولم تنخدش له احساساتهم ، اذ لبثت المساجد مغلقة فى أوجه المسيحيين ، والاملاك الموقوفة محبوسة على السبل التي خصصت لها ، وتركت ازمة الاحكام بأيدى القواد والقضاة ، ولم يغير شيء من القوانين الاهلية الا برضا وتصديق من الاهالى ، وربما كان بطلب منهم ، وقام باعمال هذا التغيير والتبديل وهذا النسخ والتحويل عدد قليل من الموظفين اكثرهم من التونسيين . وجملة القول أن انقلابا عظيما حدث بدون أن يجر وراءه الما أو توجعا او شكوى ، بحيث وطدت الان دعائم السلطة المدنية من غير أن يلحق بالدين مساس ، وتسربت الافكار الاوربية بين السكان بدون أن يتالم منها

الايمان المحمدى ، واقترنت السلطة الفرنسية بالسلطة الوطنية اقترانا لم تغشه سحابة كدر

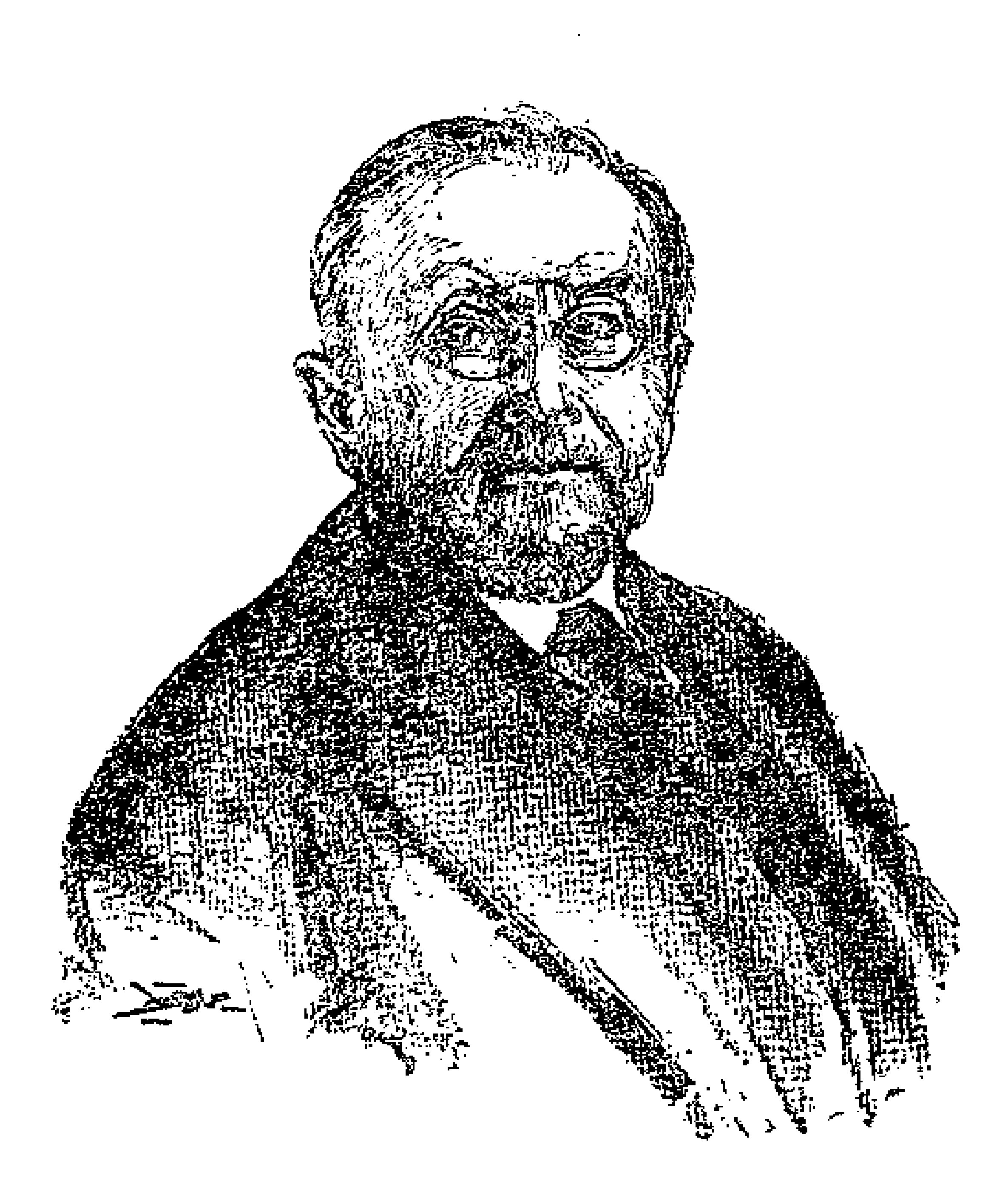
اذن يوجد الآن بلد من بلاد الاسلام قد ارتخى بل انفصم الحبل بينه وبين البلاد الاسلامية الاخرى الشديدة الاتصال بعضها ببعض . اذن توجد أرض تنفلت شيئا فشيئا من مكة ومن الماضي الاسيوى . ارض نشأت فيها نشأة جديدة ؛ انبتت في قضائها وادارتها وعاداتها وأخلاقها ، ارض يصح ان تتخذ مثالا يقاس عليه ، الا وهى البلاد التونسية

كانت هذه البلاد ميدان التنافس والجلاد اذ حكمت فيها قرطاجة وروميّة وبيزنطية والعرب وسان لويس وشارلكان فأصبحت الان مهبط المسالمة ومعهد التصالح والوئام ، ففيها الديانتان بل المدنيتان متلاصقتان بل متداخلتان ؛ حتى تأكدت نقط التشابه بينهما وانحسرت فرجة الخلاف وارتفعت الاحقاد من الصدور رغبة من الفريقين في التمتع بمزايا الاراضى الخصبة والسماء الصافية الاديم التى ينزل منها على القلوب برد وسلام بلطافتها ولعل الاطلال العديدة الشاهدة على ما تعاقب في الاقطار التونسية من المدنيات القديمة ، تندثر تماما ولم يسمح اثرها كى تهتز لاستقبالنا ويوصل بعضها ببعض ما انقطع من حلقات الدهر الماضى

ان مسجد القيروان (١) الجامع شيدت عقوده على الاعمدة القديمة ، وبنيت كنيسة الكردينال لافيجرى الكاتدرائية تجاه آكمة (بيرسا) التى عبدت فيها تانيت . وخلاصة القول أن مزيجا من التاريخ يركب في هذه الارض تحت رعاية فرنسا وانسانيتها ، ومن المحتمل أن تنبعث تلك الآثار من قبور الماضى فتعيش في خلال الجيل الذى نطرق الان ابوابه

---

(١) القيروان مدينة تونسية شهيرةبمسجدها . انشأها عقبة بن نافع عام ٦٧٠ م فصارت عاصمة افريقيا . وقدبلغت أوج عزها على أيام الملوكالاغالبة في القرن التاسع الميلادى . وكانتدارا للصناعة ومحطا للقوافل وسوقا للتجارة



مسيو هانوتو

مقال هانوتو الثانى

من المسلم انه يتعذر علي الرد فى هذه الجريدة على جميع الرسائل التى ترد الى بشأن ما أنشره فيهـا من الفصـول والمقالات ، ولذا أشكر جميع الذين راسلونى شكرا جزيلا ، وارجوهم أن يعتقدوا ويثقوا بأن ما اشاروا به على وابانوه لى محفوظ فى مخيلتى . ولا يبرح عن ذاكرتى ، واننى اجد فى تبادل الافكار على هذا المثال خير معوان واحسـن مشجع ؛ وبالرغم مما يخالجنى من الميل الى عدم قصر البحث فى نوع خاص من الموضوعات ، أرى أن لا مندوحة لى من العود الى بعض المناقشات التى أثار عجاجها الفصلان اللذان نشرتهما حديثا فى مسألة الاسلام ، والحق يقال اننى أصبحت بسببهما كما يقال ، بين نارين فالمسيحيون أنحوا على بالتعنيف واللوم قائلين : اننى تظاهرت بالميل للاسـلام ، واتخذنى المسـلمون خصما لدودا لدينهم ، وهو ما يثبط همة الانسان عن اتباع خطة المسالمة والتوفيق ، لو لم يعرف من قديم الزمان أن الذين يتصدون الى بيان الحقائق بالتصـور والتعقل انمـا يشبهون سندان الحداد تتلاقى عليه ضربات المطرقتين

ويجب قبل الدخول فى الموضوع أن اشير الى طريقة من الجدل : كان الجهـل بلغتنا ، وهو فى نظرى أكثر تأثيرا من سوء القصد ، سببا فى اتباع بعض الجرائد الاسلامية لهـا وسيرها على سننهـا ، فان جريدة « المؤيد » التى تظهر فى مصر القاهرة قد نشرت ترجمة أو بالاحرى خلاصة فاسدة من الفصلين اللذين كتبتهما على الاسلام ، ولعل القراء يذكرون

أنني أوردت فيهما آراء كيمون التي أبداها في كتابه (باثولوجيا الاسلام) وأن ايرادي لها كان على سبيل الحكاية والنقل ، اذ أشرت الى خطر شدتها ، وابنت العواقب الضارة التي يفضي اليها انجذال السياسي في الخواطر السريعة التأثر والانفعال ، ولكيلا يختلط على الذهن شيء من اقوال كيمون التي اوردتها ، وضعت في آخر كل عبارة من عباراته كلمتي (أنا انقل) محصورتين بين قوسين دفعا للالتباس ومنعا للشك

بالرغم من هذه الاحتياطات نسبت الي تلك الافكار التي عمدت الى دحضها واظهار فسادها حتى ان احد (١) كبار ائمة الدين الاسلامي كلف نفسه مئونة الاجابة في جريدة المؤيد على افكار ليست افكاري ، بل هي نقيض ما ذهبت الى تعضيده واستحسانه في بحثي، ولذلك أرى أن ذلك الامام العظيم صار في بحثه أشبه بمن يدفع بابا مفتوحا من ذاته سواء قرأ ما سطرته في الاصل الفرنسي أم وقف عليه من الترجمة . اما انه لم يفهم مرادي واما ان الترجمة كانت فاسدة لم تتوافر فيها شروط الامانة ، لذلك أناشده بلمته الطاهرة أن يوقف من يأتمرون بأمره ويصيخون لاقواله على حقيقة فكرتي التي كشفت النقاب عنها في آخر مقالتي ، وكلها احترام واعتدال ومسالمة ، وتوفيق على احدى الجرائد العربية التي تنشر بمصر ، ولها شهرة فائقة في جميع العالم الاسلامي الا وهي جريدة « الاهرام » قد اتت بتلك الملاحظات احسن مما أستطيع ايرادها به ، فان محررها (المسيو تقلا) الكاتب الشهير الذي يدير في آن واحد جريدة «البيراميد الفرنسية» قد اقتفى اثر ملاحظات الامام فرد عليها نقطة نقطة ولم يبق لي بعد مناقشته التي روعيت فيها أساليب اللطف والحذق

---

(١) يشير الى الشيخ محمد عبده . وسيأتي رده في الفصل القادم

مجال الكلام ، أو شيء كثير من القول أضمه الى قوله ؛ على انني استنتج من هذا الحادث عبرة تزداد قوتها في نظري كلما تقدمت في طريق العمر ، وحبوت نحو الشيخوخة ؛ وهي أن منشأ المشاكل والصعوبات التي تقوم بين الناس هو سوء التفاهم والخطأ في معرفتهم مقاصد بعضهم بعضا ، اذ كثيرا ما كان الغلط الناشيء من سوء تلاوة كلمة أو القصور عن ادراك معنى جملة ، أو فهم مغزى راى من مرامي حيلة من حيل المناظرة ، سببا في جر ما لايحصى من المصائب بل سببا في انشقاق قوم كانت تجمعهم لحمة الاتحاد ورابطة الجوار ؛ وكانوا الى الالتئام والاتفاق أقرب منهم الى الخلف والانشقاق

ولو أمكن محو ما تراكم شيئا شيئا حول ما يقع بشأنه سوء التفاهم من العواقب الضارة والشدائد التي لا فائدة منها ، وتيسر العود الى النقطة الاولى التي كانت مبدأ النزاع وسبب الاختلاف ، لاندهش الانسان من السهولة في تذليل الصعاب ، وتمهيد المشاكل التي جعلت الفارق عظيما ومسافة الخلف بعيدة . ولقد قيل ان العالم ميدان يتنازع فيه بنو الانسان ، وهو قدر مقدور لولاه لتعذر على الفهم أن يدرك كيف تكون مقدمات أمثال تلك النتائج البالغة في الرداءة والسوء مبلغا عظيما ، حتى لقد تمر على الانسان لحظات يسائل فيها نفسه ، عما اذا كان في الامكان اصلاح ما انثلم من حوادث التاريخ باجتهاد الناس في فهم مقاصد بعضهم بعضا

ومن الامور التي لايزال خاطري منصرفا اليها أن المسائل المشكلة ، ولو كانت من أهم المسائل واخطرها تتضمن في ذاتها الحل اللائم لها والمطابق للانصاف والسلام ، وكنت ولازلت على اعتقاد وطيد في المباحثات المتعلقة بمصلحة من المصالح وفكرة من الافكار ، بانه متى كان الطرفان على جانب من

طهارة الذمة وحسن النية ، وجعلا غايتهما القصوى المسالمة والاتفاق ، واتخذا لذلك وسائل الحكمة والتدبر ، وصدق اجتهادهما فى التجرد عن الاهواء ، فانهما يصلان الى نقطة تتفق فيها مقاصدهما وتتطابق رغائبهما.

وقد اعتقدت دائما أن السياسة على الخصوص مهمة فى هذا المعنى ينحصر فيها شرفها ، وترجع اليها كرامتها : ليس بما تعلقه الشعوب من الشكر والاعتراف بالجميل فقط ، بل بحسن العمل العقلى الذى يقوم به السياسيون بدون لغط ولا ضوضاء فى سكون مكاتبهم ، أما الاعتماد على القوة والركون الى العنف الذى هو أخص ما يلتجىء اليه القوى فهو من أخريات الوسائل وأحطها ، وهو حيلة من لا حيلة له

ويظن الناس فى الغالب أن الواجب التفرقة بين الاتفاق والمجاهرة بالشقاق ، وهو خطأ بين وغلط ، اذ بين السلم والحرب ميدان فسيح يمكن للسياسة أن تجول فيه جولتها ، وكما انطبقت هذه الطريقة على السياسة تنطبق أيضا على المناقشات الفلسفية والدينية ، اذ للافكار والعقائد سياسة مرجعها التسامح والاحتمال ، وليس التسامح من مخترعات هذا العصر ، بل نقيضه من مخترعاته ، لاننا اذا نظرنا فى أصول المشاكل البشرية الكبرى يكون اندهاشنا من التشابه بين الآراء التى تعذر التوفيق بعد فيما بينهما ، أعظم من الانفراج المستحكم بينها . وخلاصة القول أن معيشة بنى الانسان مع بعضهم بعضا بسلام ميسورة لمن يريدون ذلك ويقصدونه برغبتهم وحسن ارادتهم

وقد حدا بى هذا البحث الى نوع آخر من الانتقاد صوبه نحوى بعض المسلمين ، وليس المقصود به السياسة فى هذه المرة بل المقصود به الفلسفة والعلوم الدينية . وقد انتهت الى رسالتان غريبتان فى هذا الباب ، أحداهما من رجل

مشهور الاسم فى فرنسا وهو (أحمد رضا) مدير جريدة « مشورت » الذى جمع ملحوظاته فى رسالة سماها (التسامح الاسلامى) وقصد بها الرد على الكتاب الغربيين الذين يتهمون العالم الاسلامى بالتعصب الدينى ، واستشهد فى خاتمتها بكلمات قالها الكردينال « لا فيجرى » وهى : (اجاهر علانية باننى اعتبر اثارة خواطر الشعوب الاسلامية بعدم التدبر فى دعوتهم الى الدين المسيحى اثما من الآثام وضربا من ضروب الجنون) ، وانه ليفيض بى الكلام على الوصف الذى وصف به صاحب الرسالة تسامح المسلمين ؛ ولكنى على ثقة من ان تبادل الشكوى او الشتم لا يحدو بنا الى الغاية السلمية التى تقصدها ، وان الاجتهاد فى فهم بعضنا مقاصد بعض اولى واحسن من الصياح والعويل لمنع الناس من الاتفاق والوئام

وقد وردت الى رسالة ثانية من أحد عظماء المسلمين وهو حضرة أحمد افندى مدحت أكبر كتاب الترك فى الوقت الحاضر ، وانى آسف شديد الاسف من عدم امكانى نشر مضمونها باكملها فى هذا المقام لطولها وغموض مباحثها ؛ ولا ريب فى أن القراء الفرنسيين كان يسرهم أن يتلذذوا بتلاوة انشاء شرقى مكتوب بلغة فرنسية صحيحة ، غير أن فى المباحث الدينية ، ولو كانت متعلقة بالاسلام ، شيئا من الاكفهرار والتجهم . على أن هذا لايمنعنى من ايراد شذرة قصيرة يبين فيها الكاتب مبدأ الدين الاسلامى ، وهاهى : « فيما يتعلق بالايمان والضمير كل مسلم رقيب نفسه ، فهو لايقدم لاحد سوى الخالق جل وعلا حسابه عن أقواله وأعماله ، ولم ير النبى محمد عليه الصلاة والسلام ولم تسمح له فرصة رأى منها لنفسه حقا أو سلطة مما يخوله لانفسهم رجال الاكليروس (الدين) فى الديانة المسيحية ، بل

لم يفرقه فارق عن بقية العالمين أمام عدالة الحق سبحانه وتعالى وهو مايؤخذ منه انه لو سأل أحدهم ماهو الاسلام ، لأجاب المسلمون على اختلاف مذاهبهم بأنه العمل بما قرره القرآن الشريف — فالديانة القرآنية لا تهوى بالانسان باقصاء الاله عنه فى نهاية الفضاء — اذ جاء فى القرآن الشريف (ونحن أقرب اليه من حبل الوريد) . هذا الدين فرق بين الانسان من وجهتيه الادبية والمادية ، فحدد أحواله فيهما بكيفية موافقة للادراك البشرى » . ثم استنبط الكاتب من هذا الفرق دفاعا عن الدين الاسلامى يراه أرقى وأحسن مايدفع عنه به ، واخذ يعتب على لكونى اختصرت البحث فى المسألة الفلسفية ذريعة الى قصر الكلام على المسألة السياسية

وانني اعترف بانني انصرفت أثناء سياحتى فى الجزائر وتونس الى الوجهة التاريخية السياسية اكثر منها الى غيرها ، واذا كان القارىء لايمل حديثى فانني أورد هنا بايجاز كيفية الاسباب التى حملتنى على هذه السياحة وقصر مباحثى مؤقتا على أعظم مشكلة قامت منذ قرون بين الديانتين المسيحية والاسلامية :

لما كنت أقرر مباحثى فى تاريخ الكردينال ريشليو ، وصلت الى النقطة التى أفضت به الظروف الى اتخاذ طريقة من الطرق المختلفة التى حومت حوله ، واستلفتت انظاره ، ففى أواخر عام ١٦٢٢ وأوائل عام ١٦٢٣ أى فى ابان استلامه زمام الاحكام ، ظهرت المسألة البروتستانتية ، وسوف أورد كيفية حله لها ، ولكن ما يعرفه القليل هو أنه عرض عليه الحكم فى المسألة المحمدية ، أو بعبارة أهل ذلك الوقت فى المسألة الصليبية (١)

---

(١) ليس عجيبا أن يدافع الوزير هانوتو الفرنسى عن الوزير الفرنسى ريشليو . والحقيقة التى تبدو واضحة من تاريخ ريشليو انه كان رجلا شديد الدهاء ، عظيم الذكاء ، وأن تنحيه عن الاشتراك فى الحروب الصليبية ، وعدم

وكان يوجد فى فرنسا وقتئذ جم غفير من الناس يجاهرون بضرورة استئناف الحروب الدينية التى اشتهرت بها القرون الوسطى ، واسترسل فى هذا الموضـــوع كثيرون من أخص أصدقاء الكردينال ريشليو الذين أخذوا بناصره فى خطـاه الاولى ، ووالوه بنصـائحهم وســطوتهم ، ومنهم الدوق دى نيفير ، والاب جوزيف صديق ريشليو الحميم ومشيره الخاص الذى انطوى معهم فى افـكارهم قلبا وقالبا ، حتى لقد بدىء فى ذلك الحين بتجهيز الحرب الصليبية ، ويمكن القول بأن حـزب الملـكة مارى دى مـدیسى الذى أجلس ريشليو على منصة الاحكام ، وكان يسمى بحزب الكاثوليكيين حزب من الصليبيين

فما كان من الكردينال ريشليو الا ان قطع كل صــلة من اصــدقائه رافضـــا ان يكون آلة بايديهم ، بل كان منه ان جذب الاب جوزيف الى ناحيته ثم ولى وجهه عن الاســلام فحارب — كما هو مشــهور — الاسرة النمساوية . والحق يقال أن الكردينال كان من أقل الناس تعصبا ، فانه قبل أن ياتى بما عمل به ، بنى عمله على اسـباب تأمل فيها طويلا واستنجد وقارن ، وان هذه الاسباب هى التى كنت أروم الوقوف عليها لاظهارها

وقد تابعت البحث والتنقيب على هذا المثال فى اسـبانيا

الاستجابة لرغبة الذين اشاروا عليه بذلك ، لم يكن ذلك منـــه الا بدوافع أخرى غير عدم الرغبة الشخصية ، فقد كان أول كل شىء يريد ان يوطد مكانته، ويرسى قواعد حكمه على اسس قوية . وكان ريشليو يحارب مختلف التيارات السياسية فى بلاده ، ويقف بالمرصاد لمؤامرات خصومه ، فلم يكن من حسن الرأى بتاتا ان يرسل الى خارج بلاده جيشا هو فى أمس الحاجة اليه داخل البلاد . وكان من ناحية أخرى لايرى ثمرة لمثل هذه الحروب المشتركة ، مما يمكن ان يعود على فرنسا بفوائد يستطيع ان يواجه بها خصومه الكثيرين ويفخر بها عليهم . فلم يكن تنحيه عن الحروب الصليبية نزعة استقلالية كما يقــول هانوتو ، ولكنها دواعى السياســـة الداخلية هى التى ارغمته على هـــذا الموقف .

وافريقيـة الى حيث تلك البقعة التي تم بهـا الاقتران بين العالمين الشرقي والغربي ، أريد بها تونس ، هذا هو السبب الذى استحثنى مع أسباب اخـرى على النقـلة الى تلك الاصقاع باحثا ومفكرا . شاهدت فيها أطلال قرطاجنة اى أطلالها في عهد هانيبال (١) والقديس أوغسطين (٢) وفي عهد سـان لويس وشـارلكان ، فتجلى لى وأنا واقف على تلك الطلول أن الارض التى كانت ميدان النزال والجلاد يمكن أن تكون أيضا مهبط السكينة والسلام

أما الاسباب التى حملت ريشليو على العدول عن الحروب الصليبية فلسـوف أبينها في يوم ما . ولكننى بالبحث فى الماضى والمشاهدة العيانية فى الحاضر قد توصلت الى البحث عن مبادىء الاتفاق والوئام فى عين المكان الذىاشتهر بأسباب الشحناء والبغضاء ، بحثت عن أصول هذه الاسباب فأشرت الى السلم الناشىء من الحمـاية ونوهت بذكر أمر مهم وهو معيشة فريقين من الناس ، كان لا يظن أنهمـا يجتمعان فى وئام واتفاق ، باحترام كل منهما معتقدات الاخر . لما لاحظت هذه الامور ، كنت أود مداراة العواطف ، والاقتصـار على عبارات التسامح والمسالمة ، والاكتفـاء بالكلام على الحيـاة الفعلية ، ولكن يظهر أن هـذا صـعب المرام ، اذ الجميع لم يفهموا مرادى ولم يقفوا تمام الوقوف على مقصدى ، ومهما

(١) هانيبال قائد افريقي من قرطاجنة دوخ الرومان والدولة الرومانية فى عز مجدها وسطوتها ، وقد هاجم روما براً من ناحية اسبانيا ثم عبر جبال البرانس الى فرنسا ثم عبر جبال الالب الى حوض البوفى ايطاليا ، وبعدئذ اتجه جنوبا الى أن هزمته روما فى موقعة ترازمين عام ٢٠٢ قبل الميلاد . ولقد تعقبت روما القرطاجيين من بعـده الى أن انتهى الامر بتدميرهم قرطاجة (فى مكان تونس الحالية) تدميرا تاما فى عام ١٤٦ ق . م

(٢) القديس سـانت أوغسطين كان رجلا متدينا راعته غزوات الجرمان الوثنيين المروعة على مدينة روما المسيحية فكتب كتابه المشهور « مـدينة الله » صور فيه اختلاجاته وعقيدته ، وأهاب بالمسيحيين انقـاذ مدينتهم وديانتهم

يكن من الامر فان من الامور المهمة قيـام الافكار فى البـلاد المسـيحية والاسـلامية قيـاما اذا تحركت فيه بالحـركة الطبيعية المبنية على حسن النية وطهارة الضـمير ، كانت نتيجتها التقريب والتوفيق لا الابعاد والتفريق

هـذا ما كتبه هانوتو وليس فيه رد لشيء مما خطأه به الاستاذ الامام من المسائل الدينية والتاريخية ولكنه تنسم من الكلام ان الترجمة تشعر بانه مستحسن لما نقله عن كيمون وما هو بمستحسنه وهـذا صحيح .



حديث مع هانوتو لصاحب جريدة الاهرام

فى يوليوسنة ١٩٠٠ – الذى نشر فيه هانوتو رده السابق على الاستاذ الامام سافر الاستاذ بشارة تقلا والتقى به فى باريس ، فجرى بينهما حديث عن هذا الموضوع نشر فى عدد الاهرام يوم ١٦ من هذا الشهر ، وقد قدمه صاحب الاهرام بما يلى :

رايت وانا فى باريس ان اقابل المسيو هانوتو واقف منـــه على حقيقة الاحوال بوجه عام ، وعلى الغـــــاية التى قصدها ويقصدها من كتاباته الاخيرة عن الشرقيين والمسلمين بوجـــه خاص ، ولما كان هذا الموضوع من اهم المباحث لدينا مع رجل مثل هانوتو الكاتب البعيد الصيت والسياسى الواقف عـــلى احوال اوربا والشرق ، وكنا نعتقد ، كما قالت الاهرام مرارا وتكرارا ، ان تقدم الشرق يكون بتقدم الامة الاسلامية ،توخيت أن انشر اقواله وآراءه ، فاستأذنته بذلك فأذن لى . قال :

أنتم تعرفون من تاريخ أوربا أن أممها ماتقدمت علما ومدنية واختراعا الا يوم تقيدت السلطة المدنية ، وعـــرف الشعب والحكام فروضهم المتبادلة ، وانا لم اكتب الا الى ابناء وطنى الفرنسيين ، ولم استشهد بكيمون ، وهو يونانى الجنس ، الا لافنـد اقواله التى لم ينفرد بهـــا ، فان كثيرين من الكتـــاب الالمانيين والفرنسيين والانكليز وغيرهم حذوا حذوه ، وقالوا قوله ، وخلاصة كتاباتهم ان تقدم المسلمين مستحيل ،ونجاحهم بعيد ، لان الاسلام معتقدهم يحول دون ذلك ، وحجـــة هؤلاء واحدة ، وهى انه كلما تقدمت اوربا تأخر الشرق ، لان الواقف

يتأخر بقدر مايسير الماشي ، وان كل حكومة انفصلت عن الشرق سارت على منهاج أوربا علما ومدنية نجحت ، مع ان الدولة العثمانية وافغانستان ومراكش والعجم لا تزال على ما كانت عليه فى السنين الغابرة ، وانما ذكرت من هؤلاء الكتاب كيمون وحده ليعرف المسلمون مايقال عنهم ، ولافند مزاعم هذا الرجل وغيره من الكتاب الذين على رايه لاعتقادي أن الاسلام لا يحول دون الاصلاح والمدنية ، واستشهدت على صحة معتقدي هذا بتونس ، فذكرتها مثالا اؤيد به اقوالي وسياستي هذه هي روح كتابتي السابقة وانها ستكون روح اللاحقة

والذى دعاني الى ذلك ما كان من هؤلاء الكتاب الذين لايخرج مغزى كتاباتهم عن اعادة الكرات الصليبية كما كان فى الاعصر الخالية ، وما دفعهم فى الايام الاخيرة الى ذلك الا الحوادث الارضية وغيرها (١) ، ولما كنت قد وقفت نفسي لدراسة حياة ريشليو السياسي الشهير ، وسرت فى اكثر اعمالي وكتاباتي على منهاجه ، وعرفت ان هذا الرجل مع أنه كاثوليكي وكردينال من أعمدة الكنيسة الرومانية رفض على عهد وزارته تلك السياسة العوجاء ، سياسة الصليبيين ، وحال دونها بدهائه المعروف ، مع أنه كان القابض على سياسة فرنسا وأوربا معا ، فاذا كان هذا السياسي الكاثوليكي قد امتنع عن تأييد سياسة اقرب المقربين اليه فى تلك الاعصر ، اى السياسة الصليبية ، فهل مثل هذه السياسة يجوز اليوم انفاذها .
لا لعمري ، فلهذا عارضت بالامس ، ولهذا اعارض اليوم ، ولحسن الحظ ان الراى العام اذا قال بوجوب مساعدة الضعيف ضد الظالم ، فهو لايريد حربا تشب نارها اعتداء ، ولا سيما

---

(١) اختلفت الاراء وتضاربت فى تقرير دوافع الحروب الصليبية فقال البعض انها حروب دينية بحتة ، وقال اخرون انها حروب استعمارية . والواقع الذى يستطيع كل من تتبع تاريخ هذه الحروب ان يلمسه ويدركه ، هو أن هذه الحروب كانت دوافعها دينية واستعمارية

الحرب الدينية ، فهي عدوة المدنية بل هي أفظع الاعمال

على أن ممارضتي لامثال هؤلاء الكتاب ، أى نقضى لاقوالهم ، لا يمنعني عن ان اقول لكم الحقيقة ، لانه يستحيل على ان اقول أن شرقكم سائر على منهاج حكومات أوربا في العدل والحرية والمدنية ، كما انه يستحيل على أن اقول ان حالتكم الحاضرة ضمان لمستقبلكم السياسي ، فاعلم أن أوربا حاربت السلطة الدينية مدة ثلاثة قرون لا عن عــــدم اعتقاد ، بل لتفصلها عن السلطة المدنية ، فان المتحاربين كانوا من معتقد واحد ، ولكن اراد أفراد أممها اولا ولفيف شعوبها ثانيا ان تكون الكلمة الاولى للسلطة المدنية في احوال الحكومات وشئــون الشعب ، وأن يكون للمعتقد حق الادبيات الدينية بأن يعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله

واعلم ان الذى ايد هذه السياسة أيضا في بلادنا فرنسا هو اعظم تلامذة روما واحد اقطـــاب الكنيسة الكاثوليكية اى الكردينال ريشليو ، فهو الذى قال بفصل السلطتين، ولم تنسه واجباته الكنسية الدينية معرفة الحقيقة ، وهو بهذه السياسة خدم السلطتين اشرف خدمة ، اذ أيد السلام بينهما فتأيدت سطوة الحكومات وتقدمت شعوب أوربا تقدما عجيبا ، واعتزت السلطة الدينية ايضا ، وعاشت السلطتان بوفاق وسلام

وهذا ما نريد تأييده نحن الفرنسيين في مستعمراتنـــا بأن يكون الامر المطلق للسلطة الحاكمة ، مع احترام عقائد الشعوب التى تحت حكمنا وسلطتنا ، وهو ماسرنا عليه في الجـــزائر وتونس وغيرهما من المستعمرات الفرنسية

وانى لا أكلمك كمسيحي بل كمؤرخ أو كاتب حر الضمير ، لا شأن لغيره في معتقده الخاص ، ولكننى احترم ادبيات كل دين ومعتقده ، واقدر تلك الادبيات حق قدرها ، ولكن الماديات غير الادبيات ، والاولى من شئون عالمنا هذا الذى نعيش فيـه

ونحيا به ، وكل أمة لم تتقدم فى ماديتها لابد أن تموت ، اذ لاحياة بلا مادة ، والهكم انتم أيها الشرقيون اله أوربا واله أمريكا، اذ ان اله الجميع واحد ، ولا يمكن أن يكون أكثر انعطافا على الاوربى منه على الامريكى ، فالشرقى ، بل ان الشرقيين عموما، اكثر تمسكا بعقائدهم من الغربيين ، وقد علمنا أن أوربا فاقت شرقكم بمراحل ، ونرى اليوم أمريكا تزاحم اوربا ، وكثيرا ما فاقتها فى اختراعاتها وفنونها ، ولم يكن ذلك لان الله سبحانه وتعالى أميل الى الامريكى منه الى الاوربى أو الشرقى، ولكن لان الاخير مستميت والاول حى ، هذا يشتغل مجتهدا ، وكلما زادت ارباحه زاد نشاطا واقداما ، وذاك يقضى حياته بين القنوط واليأس مستسلما ، ولهذا تقدم الاوربى وتأخر الشرقى وضيق اوربا بأهلها دفعها الى الاستعمار فى كل صوب . فصادف ابناؤها ارضا واسعة وشعوبا لا حراك بها ، فقبضوا على الاعمال السياسية والاقتصادية فيها

وهنا استمحت حضرة المسيو هانوتو وقلت له : اذا كنت تحب مصلحة المسلمين ، وتعتقد انهم راضون فى تونس ، فهل تعتقد ذلك فى أهل الجزائر ، ولماذا لا تسأل الحكومة الفرنسية ان ترى فى أحوال هؤلاء ؟

فقال : اما التونسيون فلا خلاف فى أنهم مسرورون بحالتهم، ونحن قد دخلنا بلادهم وهى قاع صفصف فرق شملها افراد حكموها . واما نحن فقد تركنا للسكان حقوقهم المذهبية ، فاحترمنا جوامعهم وعقائدهم واحوالهم الشخصية ، ولم نسألهم الا أمرا واحدا اى احترام سلطتنا السياسية ، فادركوا هذه الحقيقة وعملوا بها ، ولهذا كان النجاح عظيما فى مدة قريبة ، وانت تعلم ان مذهبى فى الاستعمار وضع الحماية كما هو فى تونس لا ضم المستعمرة الى فرنسا ، كما فعلنا فى مدغشقر بالرغم من معارضتى ذلك ، وقد رضيت به منقادا

لاوامر أكثرية دار الندوة ، ولا أنكر انه يجب تعـــديل بعض قوانين الجزائر ، وقد شرعنا فى ذلك ، وسأكتب كثيرا فى هـــذا الموضوع ، لانى ذهبت بنفسى الى تلك البلاد ، ودرست أحوالها ، وأملى ألا يمضى طويل زمن حتى ترى ذلك الاصلاح الذى طلبه غيرى وشرعت حكومتنا فى انفاذه

ــ قلت : انى اعرف ما سردته لى عن تاريـــخ السلطتين الدينية والسياسية فى أوربا وعن أحوال شعوب القطرين ، (تونس والجزائر) ولكن ذلك مستحيل فى الشرق ولا سيما فى الحكومات الاسلامية ، والذين يقولون به من الاجانب ليسوا الا خصوما للمسلمين ، لاعتقاد هؤلاء أن فى فصل السلطتين ضعفا ترومه أوربا لتنال بغيتها منهم

قال هانوتو :

انا لا أسأل الشرق ذلك فهو حر يفعل ما يشاء ، ولكن أعتقد ان أوربا لم تتقدم الا بعد تعيين حقوق السلطتين ، وجعـــل الكلمة الاولى للسلطة الحاكمـــة ، كما انى أعتقد ان جمع السلطتين فى شخص واحد لم يمنع ان تخسروا فى الحـــروب الماضية ، وأعتقد أيضا أن صاحب السلطتين ولاسيما فى بلاد كالشرق يستطيع أن يجرى اصلاحات لا يقدر غيره عليهـــا . ويعلم المسلمون أن جمع السلطتين فى شخص واحد لم يمنع فرنسا من الاستيلاء على الجزائر وتونس ، وانكلترا من التهام الهند ، وروسيا من أخذ تركستان وغيرها الى حدود افغانستان ، كما أنه لم يمنع استقلال مراكش وبلاد فارس ، والمملكتـــان اسلاميتان ، فاذن كان يستحيل توحيـــد سلطتهما الدينيـــة واذا كان الاسلام كما قلتم ويقول كتابكم أنه لا يحـــول دون التقدم العصرى فما بالكم متأخرون ونحن متقدمون ؟ وبمـــاذا تردون على أولئك الكتاب الذين لا يعتقدون اعتقادكم ؟ فاذا قلتم ان أوربا تحـــول دون الاصلاحات ، اذن ، فلم تأخرتم

واليابان تقدمت ؟ وهي لم تشتغل الا ربع قرن حتى وصلت الى ما وصلت اليه اليوم ، فأصبحت أوربا تقدرها قدرها فى جميع مسائل الشرق الاقصى

واذا قال لكم أولئك الكتاب اننا مقتنعون بأن أوربا وشعوب تركيا حالت دون اصلاح الولايات الواقعة فى أوربا والقريبة من أوربا كسوريا مثلا سالتكم ، هل مسلمو بغداد وما بين النهرين وحلب راضون عن أحوالهم ؟ أيظن رجالكم وكتابكم اننا نحن وكتابنا جاهلون أحوالهم هنالك حيث لا أوربى ولا غيره يحول دون تعميم العدالة وحفظ حقوق المتقاضين ؟

وانا اعرف ان امثال هذه الحقائق يجرحكم ذكرها ؛ ولكن قد حان لكم الا يعميكم غرضكم عن الحقيقة ولو انها خارجة من فم أجنبى ، ما دام كتابكم لا يقولونها فقط بل يكذبونها ، كأنى بهم يساعدون الظالمين من حكامكم على ما يأتونه من المغارم والمظالم ، فكان ذنبهم نحو وطنهم أعظم من ذنب الحكام الظالمين

وانى اقول لك هذا بعد الذى قرأته فى جرائدكم ردا على ماكتبته ، فقد عدونى خصما لهم ، ونسوا خدماتى لهم وانا فى منصة الوزارة الخارجية فى ايام المسالة الارمنية ؛ فاذا كان هذا رايهم فى صديق خدمهم ، فماذا يكون حكمهم على خصم جهر بعداوتهم ؟ ولكن فليعلم هؤلاء انه اذا حدثت امثال تلك الحوادث فى المستقبل فيستحيل على وزير أوربى ان يقبل مثل تلك السياسة . ولا اقول هذا من باب العداء ، بل لما نراه من تعديل أوربا على وجه عام مبادىء سياستها الخارجية مع الشعوب الشرقية ، فان الدول ستكون واحدة فى المستقبل كما ترى الان فى مسالة الصين

فقلت للمسيو هانوتو : وما شانكم والشرق واسه فكلاهما راض عن حاله ، ومفضل لها على كل سلطة اجنبية أو

اوربية ، والذى ينفر الشرقى هو ظلم أوربا فى سياستها هذه ، وعتبنا على فرنسا أكثر من غيرها لانها عودتنا حماية الضعيف من القوى

فقال الوزيربعبارة صريحة : ان هذه الاقوال خيالية لاتنطبق على حالة أوربا فى هــذا الزمان ، فهى بعـــد ان كانت لا تهتم بغير قادتها ، قد اندفعت الى الاستعمار ، ولا تقف عند دعوى العدالة وغيرها ، واعلم ان فرنسا مضطرة ، ما دامت لا تقدرعلى منع الدول الثانية عن توسيع نطاقها الاستعمارى والتجـارى الى الاقتداء بالدول المذكورة . وانى أرى كتابكم وأفراد امتكم يجهرون فى غالب الاحيان بأفكار صبيانية فيستعبدون للالمانى لنكاية الانكليزى ، وينتصرون للفرنسى على الالمانى ، ولكن اما حان لهم ان يعلموا ان الاوربيين مهما اختلفت اجناســـهم ومذاهبهم من السهل اتفاقهم على الشرقيين ؟ لان هــؤلاء لا يعملون عمل العامل البصير باستخدام مصلحة هذه الدولة او اغراض تلك الامة لاصلاح شئونهم بل لمعارضة دولة ثانية ، وهى سياسة قديمة العهد لا تعتد بها أوربا اليوم . وانت تعلم ان المانيا اكثر الدول فى أوربا استقرارا ، وابعدها عن الاستعمار ، وهى التى اقترحت تجديد مناطق النفوذ فى الصـين ، وهى التى سألت امتياز انشاء « سكة حديد » بغداد ، مما يدلكم على ان أوربا لا تسعى الا الى مصلحتها السياسية

ثم قال لى : انت تقول لى ان الساسة المسلمين لايعتقـدون باخلاص سياسة اوربا كلها أو بعضها ، ولهــذا يخافون من مصافاة هذه الدولة خوفهم من معاداة تلك لاسيما وان أكثر الدول تطمع فى املاكهم ، وحضرتك اكدت ذلك فى كلامك الآن عن سياسة أوربا

والمسلمون يعتقدون ايضا انمصلحة اوربا المسيحية تخالف مصلحتهم الاسلامية ، ولذلك لا يأمنون على انفسهم من سياسة

الدول المسيحية ، وقد أدى بهم فقدان هذه الثقة الى الايأتمنوا مسيحيا عثمانيا ولو أخلص لهم الخدمة وصدق معهم ؛ وهم يؤيدون سياستهم هذه لما راوه من تدخل اوربا فى اعمالهم ؛ ومن افعال الموظفين غير المسلمين فى المناصب السياسية العثمانية سواء اكان فى بلاد الدولة ام فى سفارتها ، وأنت تقول لى أن فى ذلك بعض المغالاة ولكنهم يعذرون

فهذا الذى تقوله لى اليوم قد سمعته منك من قبل وقاله لى بعض العثمانيين فى الاستانة وباريس ، ولكن تفنيده أمر سهل ، واليك البرهان :

لا يسعك والساسة المسلمين ان تنكروا ان بعض دول أوربا قد اتفقت مع الدولة العثمانية على دول ثانية مسيحية فى اوربا ، فان هذا حصل قولا وفعلا فى حرب القرم ، فنحن وانكلترا لم نبخل بالمال والرجال لمساعدة دولتكم العثمانية ، ونحن وروسيا والمانيا منعنا بعض دول أوربا عن نيل اغراضها فى المسألة اليونانية ، وهذه الدول الثلاث خدمت سلطنتكم اجل خدمة فى المسألة الارمنية ، بالرغم من هياج الرأى العام الاوربى وتصريح بعض الدول بمعارضتكم ، وتلك أمور حديثة العهد يعرفها رجالكم كما نعرفها نحن

واذا راجعنا حوادث التاريخ القديمة تبين لنا ايضا انفرنسا وبولونيا وغيرهما حالفت الدول العثمانية ضد دولة ثانية مسيحية ، مما يدل على أن ضالة اوربا مصلحتها الاقتصادية والسياسية ، ولا دخل للاعتقاد البتة فى أعمالها ، ولعمرك هل منع المانيا كونهـا مسيحية ان تحارب أوستريا وفرنسا المسيحيتين ؟ والم تحارب ايطاليا أوستريا ؟ وهل منع فرنسا مذهبها الكاثوليكى من أن تحالف روسيا ومذهبها أورثوذكسى؟ وهكذا قل عن التحالف الثلاثى بين البروتستانتى الالمانى والكاثوليكى النمسوى والايطالى ، وهـذه الترنسفال دينهـا

كدين انكلترا واهلها من أقرب العناصر الى الجنس السكسوني، وقد حاربها الانكليز وغرضهم سلب استقلالها

كل هذه شواهد قديمة العهد وحديثة تفنــد زعم حضرتك ومزاعم ساسة الشرق

واني أتساهل معك واقول ، ان بعض دول أوربا يريد لكم سوءا ، وان هذا ولد فيكم عدم الثقة بنا نحن الاوربيين ، ولكن اذا كان قد استحال على دول الشرق ، وهي في أوج مجــدها وشامخ عزها ، ان تتحد وتوحد كلمتها ، فهل يسهل ذلك عليها اليوم ؟ واذا كان المسلمون يعدون سياسة أوربا عداء لمصلحة الاسلام ، لان أوربا مسيحية ، وهــو زعم باطل ، فهــل كان ما ينادون به من وجوب الاتحاد الاسلامي وجمع كلمة المسلمين مما يخيف اوربا ، ويمنعها عن انفاذ مايتهمهــا به المسلمون ؟ وكيف يمكن ذلك الاتحاد المزعوم ؟ اترضى به أوستريا ولهــا البوسنة والهرسك وهي طامعة في غيرهما ؟ أم تقبله فرنسا مع املاكها الافريقية الواسعة ؟ أم تؤيده انكلترا وعــدد رعاياها المسلمين عظيم ؟ ام تعضده روسيا ؟ اليس ذلك خرقا في الراى من الذين ينادون بهذه السياسة ؟ كأني بهم هم الذين يريدون انفاذ ما يطلبه كيمون وغيره من كتاب أوربا ، وقد كان اولى لمثل أولئك الكتاب أن يكتبوا كتابات ادبية بلغــات الـكتبة الاوربيين لتفنيد اقوالهم ولاستمالة الرأىالعام الاوربي اليهم

اما ما كان يجب عمله على رجالكم سواء كان الذين عركتهم حوادث الســنين الغابرة أو الذين درسوا في أوربا وتعلموا بعض علومها ووقفوا على قليل من مبادئها وسياستها فهو أن يهتموا بنشر العلوم العصرية في بلادهم ، وان يعملوا في الخــارج على ازالة سوء التفاهم الواقع بين الشرق والغرب ، بأن يتخذوا أقدام أوربا واجتهاد ابنائها مثالا يســيرون عليه ، وانموذجا يعملون بموجبه ، أى كما فعل اليابانيون في السنين الاخيرة .

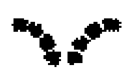
وانت تعلم أن الذى نبه اليابان هو خوفها من اوربا ، وهى التى لم تتعز عن ضعفها باحتقار الاوربى وذمه والمباهاة بمجد الاباء، ولم يقل يابانى بتحقير الاجنبى ، لانه عنصر غريب ، أو لانه مسيحى ودينه بعيد بمراحل عن دين أهل اليابان ، بل قال رجال هذه المملكة بوجوب محاربة اوربا ، ولكن بسلاح أوربا ، اى بأن تتشبه بها فى العلم والمدنية والاقدام ، ولهذا فازت فى مطالبها ، وحالت دون فتوحات الاوربى الاقتصادية أولا فالسياسية ثانيا .. ولو أتى رجال الشرق القريب هذا المأتى منذ حرب القرم لما شكا مسلم من اوربا ، ولما شكاكاتبأوربى من حال الشرق وأهله ، بل لو فعلوا وحدث انقلاب عظيم فى السياسة الاوربية سواء كان فى أوربا أو فى الشرقين الاقصى والاقرب لكان دون شك حظ دولتكم العثمانية اضعافحظوظ أعظم دولة أوربية

وأرانى فى هذا الشرح قد بلغت ماقصدته من تفنيد مايزعمه رجالكم الذين اذا رجعوا الى نفوسهم عرفوا هذه الحقائق كما نعرفها نحن ، وقد كان يجب عليهم أن يجهروا بها خدمة لامتهم ولوطنهم لا أن يتجاهلوها ويكذبوها

وتقول لى أن النهضة العلمية بدأت فى مصر ، وأن بعض الافراد أنشئوا المدارس ، وان الجناب السلطانى قد اهتم كثيرا بتوسيع نطاق المعارف فى البلاد العثمانية ، وان أصحاب النشأة الجديدة ادركوا قصور الحكام ، وتأخر البلاد ، فقاموا يجهرون بوجوب الاصلاح وتعميم العدالة ، والامل وطيد بالنجاح . ولكن الطفرة محال وهذا امر يسرنى ويشرحصدرى لانى أرغب رغبة خالصة فى نجاح شرقكم ، ولكن يجب أن تعلم أن العبرة ليست فقط فى اقامة المدرسة بل فى وضع « البروجرامات » المدرسية ، كما أن العلم وحده لايكفى وقد

يضر اذا لم يمزج بالتهذيب ، فانى لا اجهل أن كثيرين من أبناء الشرق درسوا فى أوربا ، وقد يربو عددهم على عدد اليابانيين الذين درسوا فى أوربا ايضا ، ولكننا رأينا فى اليابان نتيجة لم نرها حتى الان عندكم ، ولعلنا نراها يوما لانى أعتقد أن رجال النشأة الجديدة ينجحون نجاحا كاملا اذا كان غرضهم خدمة الوطن منزهة عن كل غاية شخصية او مذهبية ، لان الواحد قد يجمع أكثر من عنصر ومعتقد ، ولكن الاعتقاد وحده لايجمع الا عنصرا واحدا ، وانت تعلم ان الفرنسى يشمل الكاثوليكى والبروتستانتى والمسلم واليهودى والوثنى وغيرهم من رعايا فرنسا ، ولكن الكاثوليكى الفرنسى والارثوذكسى الفرنسى لايشمل كل فرنسى

لهذا كانت السلطة المدنية أهم وأشد من الرابطة الدينية ، وهى التى كانت قاعدة أوربا الاولى فى سياستها وبها تقدمت وتمدنت ونجحت . والى هنا قد اجبتك على جميع ما اردت أن تعرفه منى عن رأيى فى الشرق



رد الاستاذ الامام

— ١ —

قرأت الساعة مقال مسيو هانوتو المترجم فى جريدة المؤيد نقلا عن جريدة « الجورنال » الباريسية تتميما لبحثه السابق

بحثه السابق وشىء من تتمته انما هو دافق من غيرته على شئون دولته ، يريد أن يدعو قومه الى التبصر فى وضع قاعدة لمعاملة المسلمين الذين يدخلون تحت ولايتهم ، أو يجاورونهم فى ممالكهم ، وذلك لا يتم على مذهبه الا بالبحث فى طبيعة الامر الذى صار به المسلمون غير مسيحيين ، وبه يفضل المسلمون سلطة اسلامية على سلطة فرنسية . فان أمكن تلقيح ماعليه المسلمون بالولاء الفرنسى ، وسهل الجمع بين ما وقر فى نفوسهم وبين الخضوع الاعمى لسلطان فرنسا ، وطاب الجوار فى قلوب الملة الاسلامية لعقيدة الاسلام والطاعة لكل امر يصدر من آخر فرنسى فى طبقته ، صح للدولة الفرنسية أن تمن على المسلمين بالبقاء فى الارض وآلا وجب عليها أن تحمل عليهم فتبيدهم من البسيطة أو تجليهم الى قارة أخرى

ولهذا جره البحث الى النظر فى أصول دين المسلمين ، والمضاهاة بينه وبين الدين المسيحى ، بل بينه وبين اديان كثيرة أشار اليها فى كلامه ، ثم الحكم فى تفضيل أحد الدينين على الاخر بآثار كل منهما فى نفوس معتقديه

أما غايته من البحث وتناوله بيده يحرك به نيران العداوة فى قلوب الفرنسيين ليثير عزائمهم الى حرب المسلمين وليكون

مسيو هانوتو للامة الفرنسية اليوم مثل ذلك الراهب الذى اثار تلك الحروب المعروفة (١) . فذلك أمر نكل فائدته اليه والى علمه بمكان دولته من القوة ، ومنزلة تمدنه من المرحمة والانسانية . وتلفت اليه ذكاء بعض شبابنا من المسلمين الذين يعرفون اللغة الفرنسية ويتجملون بآداب الامة الفرنسية ويطربون اذا ذكرت المدنية الفرنسية

ولو لم يتعرض مسيو هانوتو الى الطعن فى أصل من أصول الدين ماحركت قلمى لذكر اسمه وكان حظى من النظر فى مقاله هو العظة والاعتبار ـ حظ الناظر فى أحوال الامم وأعمال رجالها ـ حظ المؤرخ الذى يقرأ ليفهم ، ويفهم ليعلم ويحكم . ولا يهمه اخطأ القائل أو أصاب

اما ما جاء فى التحكك بأصول الدين فهو الذى اغمزه بما أكتب اليوم

يرى الناظر فى كلام مسيو هانوتو لاول وهلة أنه مقلد فى التاريخ كما هو مقلد فى العقائد ، وانه جمع خليطا من الصور وحشرها الى ذهنه ، ثم هو سلط عليها قلمه ينثرها كما يشاء القدر ليدهش بها من لا يعرف الاسلام من الفرنسيين وهو جمهورهم

أكثر من ذكر التمدن الآرى والتمدن السامى والتفريق بينهما ، وان احدهما قهر الآخر وان التمدن الآرى هو الذى ظفر بقرينه التمدن السامى وما يشبه ذلك

ان مهد التمدن الآرى ومنبت غراسه (الهند) لا يزال الى اليوم على الوثنية التى يحبها مسيو هانوتو فى أغلب أنحائه . ولكن أهله هم الذين قضوا على الآخذين بعقائدهم أن ينقسموا الى اقسام لا يمكن الخلط بينها بل يدوم تباينها

---

(١) يقصد بذلك الحروب الصليبية . ولعله يقصد بذلك البابا الفرنسى آربان الثانى

مادامت الارض ارضا . ومن طبقاتهم من قضى عليه بالانحطاط فى العقل والخلق والصناعة ولا يباح له ان يرتقى الى طبقة ما فوقه الى انقضاء العالم ، وهو الجمهور الاغلب منهم ؛ وفيهم من حكم عليه بالنجاسة حتى لا يباح لاهل طبقـــة أخرى ان تمسه . والاعتقاد بفناء العالم ، وانه لا يليق بالانسان ان يهتم بشئون العيش هو مبنى عقائدهم

فهل جاء هذا للآخذين بدين البراهمة من التمدن السامى ، وهو لم يعرفهم الا فى آخر الزمان . ولم يخالط الا قلوب القليل منهم ، كما لا يخفى على من له المام بجغرافية البلاد الهندية

ثم هل يظن مسيو هانوتو أن التمدن الذى وصل اليـــه الاوربيون حمل الى أوربا مع المهاجرين الاولين الذين رحلوا من البلاد الشرقية الآرية الى الاقطار الغربية ؟

الم يخطر بباله تلك العظائم التى انتفخ بها بطن التاريخ وما كانت عليه أوربا الآرية من الهمجية ، وان العلم والمدنيـة لم ينبعا من معينها ، وانما جاءها هذا بمخالطة الامم السامية كما يعلمه المطلع على تاريخ اليونان الاقدمين وهم أساتذة الاوربيين الاخرين كما يزعم مسيو هانوتو ؟

ما هذا التمدن الآرى الذى كانت عليه أوربا عندما انتقص اطرافها المسلمون ؟

هل كانت تلك المدنية هى التسافك فى الدماء ، واشـهار الحرب بين الدين والعلم ، وبين عبادة الله والاعتراف بالعمل؟ نعم ! هـذا هو الذى كان معروفا عنـد الغربيين وقتما ظهر الاسلام

ماذا حمل الاسلام الى أوربا ، وهاهى ذى المدنية التى زحف عليهم بها فردوها ؟ زحف عليهم بما استفاد من صنائع الفرس وسكان آسـيا من الآريين ، زحف عليهم بعلوم اهل فارس والمصريين والرومانيين واليونانيين ، نظف جميع ذلك ونقاه

من الادران والاوساخ التي تراكمت عليه بايدى الرؤساء في سائر الامم الغربية لذلك التاريخ وذهب به ابلج ناصعا يبهر اعين أولئك الغافلين المتسكعين الذين كانوا في ظلمات الجهالة لايدرون اين يذهبون

انى اكيل لمسيو هانوتو اجمالا باجمال ، والتفصيل لايجهله قومه ، وكثير من منصفيهم لم يستطع الا الاعتراف به

ان اول شرارة الهبت نفوس الغربيين فطارت بها الى المدنية الحاضرة كانت من تلك الشعلة الموقدة التى كان يسطع ضوؤها من بلاد الاندلس على ماجاورها ، وعمل رجال الدين المسيحى على اطفائها مدة قرون فما استطاعوا الى ذلك سبيلا . واليوم يرعى اهل أوربا مانبت فى ارضهم بعد ماسقيت بدماء اسلافهم المسفوكة بايدى اهل دينهم فى سبيل مطاردة العلم والحرية وطوالع المدنية الحاضرة

يحار القارىء لكلام مسيو هانوتو فى معنى المدنية السامية التى جاء بها الاسلام وتصادم بها مع المدنية الآرية .

ولعل عنايته بالالفاظ التاريخية مع قصوره عن النفوذ الى حقائق ما اودعته هو الذى قصر به عن النجاح فى اعماله فى السياسة الخارجية بين امة مثل الامة الفرنسية التى تنقاد بذكائها الى الاذكياء . والعارف بطباع الامم لا يعسر عليه ان يقودها الى مايضمن لها الفوز على جيرانها ، وانما العسر كل العسر ان يوجد ذلك العارف اليوم

ان الناظر فى التاريخ تحمر عيناه من مناظر الدماء المتجسدة على جليد الازمان ، ذلك مما سفكه اهل ذلك الدين المتحد بالمدنية الآرية ليقاوموا دعاة تلك المدنية السامية ويخمدوا نارها

ان صح الحكم على الاديان ، بما يشاهد فى أحوال اهلها

وقت الحكم ، جاز لنا ان نحكم بأن لا علاقة بين الدين المسيحي والمدنية الحاضرة ، فان الانجيل بين ايدينا نقرؤه ونفهمه ولا يغيب عنا شيء من دقائق معناه ، يأمر الانجيل أهله بالانسلاخ من الدنيا والزهادة فيها ، ويوجب عليهم اذا سلبهم السالب قميصا ان يعطوه الرداء ايضا ، واذا ضربهم الضارب على خدهم الايمن ان يديروا له خدهم الايسر ، وان يفنوا بكليتهم في الاب ، ويقضي عليهم ان دخول الجمل في سم الخياط أيسر من دخول الغني ملكوت السموات ، وما شابه ذلك من الوصايا الملكوتية التي تليق برسول الهي رباني يدعو الناس الى الانقطاع عن هذا العالم الفاني ليليقوا بالانتظام في اهل ذلك العالم الباقي

هل خطر ببال مسيو هانوتو أن يجعل ما لله لله وما لقيصر لقيصر كما أوصى الانجيل ، وهل راى مثالا لذلك في المدنية الآرية التي تآخت مع الدين المسيحي ؟ العيان يدلنا على ان شيئا من ذلك لم يكن . فان هذه المدنية انما هي مدنية الملك والسلطان ، مدنية الذهب والفضة ، مدنية الفخفخة والبهرج ، مدنية الختل والنفاق ، وحاكمها الاعلى هو الجنيه عند قوم والليرة عند قوم آخرين ، ولا دخل للانجيل في شيء من ذلك

اوصى المسيح بأن يترك مالقيصر لقيصر حتى لا يشغب المسيحيون على ملوكهم من غيرهم فانقلبت الحال بهم ، واصبحوا لايحتملون أن يروا لهم رعايا من غير دينهم فضلا عن ملوك

نعم يوجد قوم الآن يقيمون أوامر الانجيل وهم جماعة من الامريكان تركوا بلادهم وخرجوا من ديارهم وأموالهم وجاءوا الى القدس الشريف ينتظرون نزول المسيح ليستقبلوه لأول هبوطه على المنارة المشهورة ، وليكونوا اول من يقبل قدميه

ويديه . وهم من طهارة القلب وسلامة النفس ونزاهتها عن الطمع بحيث انقطعوا عن كل عمل سوى النظر فى الكتب المقدسة ، فان كانت هذه هي المدنية الآرية التى صارعها الدين الاسلامى فانا أول من يسلم لحججه ويقتنع بادلته

من الساميين الفينيقيون وهم أساتذة القوم فى الصناعة والتجارة بل والقراءة والكتابة ، ومنهم الآراميون وقد كانت لهم مدنية لاتنكر أيام الرومانيين ، وما كان الغربيون لينكروا فضلهم فى ذلك . ومبادىء الصناعة والعمل عند جميع الاقوام المرتقية فى سلم الانسانية واحدة ، وانما يختلف قوم من قوم بما تحدثه فى نفوسهم ضرورات المعيشة ، وماتجلبه عليهم عاصفات الحوادث ، وماتطبعه فيهم طبائع الاقاليم ولازالت الامم يأخذ بعضها من بعض فى المدنية ، لا فرق عندهم بين آرى وسامى متى مست الحاجة الى تناول عمل أو مادة أو ضرب من ضروب العرفان لدفع ضرورة من ضرورات الحياة ، أو استكمال شأن من شئونها . وقد أخذ الغرب الآرى عن الشرق السامى أكثر مما يأخذه الآن الشرق المضمحل عن الغرب المستقل ، فلم يبق من معنى للمدنية يريده حضرة الكاتب الا الدين وقد ظهر فى كلامه ان الدين السامى يراد منه التوحيد والدين الآرى يعنى به مايقابله

وانى أقرر لهذا الوزير الشهير حقيقة بديهية يعرفها صبيان المكاتب وهى أن دين التوحيد ليس دينا ساميا بل هو دين عبرانى فقط عرف به ابراهيم عليه السلام وبنوه ومنهم عيسى من جهة أمه وأصحابه وانصاره الاولون . أما بقية الساميين من عرب وفينيقيين وآراميين وغيرهم من الأمم المذكورة فى الكتاب المقدس وهو يعرفها ، فقد كانوا وثنيين مشبهين ولم يخالفوا فى ذلك بنى عمهم أو أعداءهم الآريين ، وقد خاض الكاتب فى تفضيل التشبيه والتجسيم على

التوحيد ، وذكر لذلك عللا واسبابا ادته اليها سعة اطلاعه فى الفلسفة واحوال الاجتماع الانسانى ، وسنأتى على الكلام فيها

وقبل القاء القلم اذكر الذين يتفانون فى اجلال مثل هـذا الوزير كما يتفانى المسلم فى الله على رايه انى ان صغرت شأن هانوتو فى معارفه التاريخية فذلك لأنه صغير فيهـا حقيقة ، وكثير من قومه يعرف ذلك منه ولأنه لا أمير فى العلم الا العلم والسلام

— ٢ —

تحرش مسيو هانوتو بمسألتين من أمهات مسائل الدين ، القدر والتوحيد أو التنزيه . وبعد أن خلط فى بيـان وجه الاشكال فى المسألة الاولى واختلاف الناس فيها قديمـا ، وانهم انقسموا الى فريقين : قائل بأن العبد مسير بقدرة الله لاعمل لارادته فى فعله ، وذاهب الى أن خالقه وهبه اختيارا يتصرف به فله ماكسب وعليه ما اكتسب ، قال ان الرأى الاول يحط الانسان الى حضيض الضعف ، والثانى يرفعه الى ذروة القوة ، ثم وصـل الاول بمذهب البوذيين القائلين بفناء الموجودات فى الوجود الازلى ، والثانى بمذهب اليونانيين القـدماء الذين يدينون بتشبيه الاله بالانسـان فى أوصـافه المادية ، وان الاول قعد بأهله والثـانى ارتفع بمعتقديه الى مراتب الكمالات الإنسانية ؟ وهو خلط وخبط لم يعهد لهما مثيل

ثم انصب على الديانتين المسيحية والاسلامية وقال انهما تمثـلان ذينك المذهبين ، اى مذهبى الناس فى القدر ، وان الاولى ربانية ورثت ماترك الآريون ، والثانية بشرية أخذت ما ترك الساميون ، وان الاولى ترقى بالانسـان الى المقـام الالهى ، والاخرى تنزل به الى أسفل درك حيوانى ، ويظهر ميل كلّ من الدينين ظهورا بينا فى الاصل الذى بنى عليه كلّ

منهما ، فأصل الاول هو ايجاد الاله الاب للاله الابن حتى كان الها بشرا ، واتصال الالهين بروح القدس . وأصل الثانية تنزيه الاله عن البشرية وتقديسه الى حد تنقطع فيه النسبة بينه وبين الانسان ، ثم رجع بعد هذا الى الخلط بين الدينين وردهما الى اصول واحدة وعقد التشابه بينهما الى آخر ما أطال به على غير جدوى

هل عهد بين الكتاب وأهل النظر تشويش فى الفكر وخلل فى المقال يشبه ماجاء به هذا الكاتب ؟ ادع الحكم فى ذلك لمن له ادنى المام بمذاهب الامم وآرائهم

لم يختص الكلام فى القدر بملة من الملل مشبهين أو منزهين ، ولا دخل للتشبيه والتنزيه فى شيء من ذلك بل كان منشأ الكلام فى ذلك الاعتقاد باحاطة علم الله بكل شيء وشمول قدرته لكل ممكن

وقد عظم الخلاف فى المسألة بين المسيحيين انفسهم وهم مشبهة فى رأى مسيو هانوتو ، وبدأ النزاع بينهم قبل الاسلام واستمر الى هذه الايام . ولعل هانوتو اطلع على مذهب التوميين — اتباع القديس توما(1) — أو الدومينيكيين وهم جبرية واشياع (لويولا) وهم قدرية واختيارية ، ولكل من المذهبين شيعة بين أهل الملة المسيحية . وليس هذا بمذهب سامي كما يزعم ، بل لم تنبت أصوله ولم تتشعب فروعه الا بين الآريين ، ثم انتقلت عدواه الى غيرهم

هل سمعت بيهودى استلقى على قفاه وترك العمل اتكالا

---

(1) القديس توما الاكويني راهب دومينيكاني عاش فى الفترة من ١٢٢٥ الى ١٢٧٤ م . وهو الذى قال بأن الفلسفة لا تتعارض وتعاليم الدين المسيحى . وقد كان الاكويني حجة فى اللاهوت والفلسفة . وجدير بالذكر انه اطلع على آراء ابن سينا ، والامام الغزالى ، وابن رشد عن طريق الترجمات اللاتينية . ومن مؤلفاته العديدة : « الخلاصة اللاهوتية » و « الخلاصة ضد الامم » و « مدينة الله »

على القدر ؟ هل سمعت بأحد من الفينيقيين (وقد وصلوا بزوارقهم ذات المجاذيف الى جزائر بريطانيا) انه كان يشام ويتلذذ بالاحلام اعتمادا على ما يسوقه اليه الغيب ؟ لكن سمعنا بذلك فى الاديار وبين الرهبان وعرفنا اخبار ذلك الجيش العرمرم من المتكلين الذين كانوا يعيشون عالة على الناس حتى ضجت منهم أوربا فى زمن من الازمان وطلبت الخلاص منهم بالصارم البتار

وقد اشتهر مذهب أهل البخت والاتفاق بين اليونانيين ولم يخف أمره على صغار المتعلمين لمبادىء الفلسفة ـ ذلك المذهب الذى يبتدئون كتب الفلسفة بابطاله وهو مذهب القائلين أن الاشياء توجد بالاتفاق أو بالمصادفة ولا يحتاج الممكن فى وجوده الى سبب . اليس هذا أدخل فى باب الجبرية من اسناد كل امر الى خالق الكون ؟ وهل يرتفع هذا المذهب بمعتقده الأرى الى منازل الرفعة ومكانات الشرف

جاء القرآن الشريف ، وهو الكتاب المنزل بالاسلام ، يعيب على أهل الجبر رأيهم ، وينسكر عليهم قولهم « لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء » ـ بقوله « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا أن تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون » واثبت الكسب والاختيار فى نحو أربع وستين آية . وما جاء به مما يتوهم الناظر فيه ما يخالف ذلك فانما جاء فى تقرير السنن الالهية العامة المعروفة بنواميس الكون كما فى آية (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) الخ ونحوها

والعاقل يرى الفرق الجلى بين مسألة اختيار العبد فى افعاله وبين اثر القدرة الالهية فى اخلاق الامم أو فى تغريز الغرائز مثلا . فاختيار العبد فى افعاله مما يقر به الوجدان ولا ينكره

الا من جهل نفسه ، لكن ما عليه الامم من الاختلاف في الطبائع والغرائز والسجايا ليس لاحد من خلق الله فيه اختيار بل خلقه كخلق السموات والارض وما بينهما

وجاء النبي صلى الله عليه وسلم في عمله وقوله بما يؤيد ذلك ، فكان العامل الذى لا يكل ، والدائب الذى لا يمل ، والساهر الذى لا ينام ، والجاد الذى لم يبلغ شاوه احد من الانام ، هل نقل عنه انه اتكا يوما على وسادته واكتفى بالتسليم للقدر في اتمام دعوته قائلا : الذى كفل لى النصر يكفيني التعب ، وضمان الله لاعلاء كلمة دينه تغنيني عن النصب ؟ كلا بل لم تكن تزيده الوعود الصادقة الا نشاطا ، ولا تجد العصمة الالهية من نفسه الا حزما واحتياطا

جاء اصحابه على اثره وتبعهم من جاء بعده من السلف الاولين وكانوا اكمل الناس ايمانا باحاطة علم الله وشمول قدرته واعرف الناس بقدر ما آتاهم الله من قوتي العقل والاختيار ، وكانوا اسوة في السعي ومثلا في الدأب والكسب حتى كان من آثارهم في نشر الاسلام ما يتالم منه اليوم هانوتو وامثاله

هذه هي العقيدة السامية او الدعوة المحمدية او المدنيـة الاسلامية ارتقت باربابها وهم من اهل البداوة في قاصية من الارض لم يتلمظوا بشيء من نعيم الحضر ، ولم يتذوقوا طعم العلم والصنعة ، حتى بلغت بهم ما بلغت واستوت بهم على عروش العزة والسلطان ، ثم بلغوا بها من رقة الوجدان وصفاء العقل مبلغا مكنهم من التلطف بالامم حتى وقفوا على ما كان خفيا لديها ، وكشفوا ما كان مستورا عندها . واستخرجوا من كنوز معارفها ما ظهر فضله على الاوربيين بعد عدة قرون من البعثة النبوية

ولكن وا اسفاه نتات رءوس بين المسلمين ، كأنها رءوس الشياطين ، واحتملت غثاء من قمش الاريين ، وقذفت به في

الارض الطاهرة فتدنس به أديمها ، وانتشر قذره ، وعظم ضرره

▱

جاء الموالى من عجم الفرس والرومان ولبسوا لباس الاسلام وحملوا اليه ماكان عندهم من شقاق ونفاق واحدثوا فى الدين بدعة الجدل فى العقائد ، وخالفوا الله ورسوله فى النهى عن الخوض فى القدر ، وخدعوا المسلمين ببهرج القول وزور الكلام، حتى كان ما كان من تفرقهم شيعا والله يقول لنبيه : (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء)

وجد بين المسلمين طائفة تعرف بالجبرية ولكنها كانت ضعيفة ضئيلة يقذفها الحق ، ويطردها العقل ، وينبذها الدين ، حتى انقرضت بعد ظهورها بقليل ولم تبق بينهم بقاء التوميين بين النصارى . وغلب على المسلمين مذهب التوسط بين الجبر والاختيار (١) ، وهو مذهب الجد والعمل وصدق الايمان ، واخذه من المسلمين فى أخريات الايام أهل النظر من النصرانية مثل « بوسويه » ومن مال ميله وتبعهم الجمهور الاعظم منهم

ولكن لا انكر أن الزمان تجهم للمسلمين كما كان قد تنكر لغيرهم ، وابتلاهم بمن فسد من المتصوفة من عدة قرون ، فبثوا فيهم أوهاما لا نسبة بينها وبين أصول دينهم فلصقت بأذهانهم لاعلى انها عقائد ولكنها وساوس قد تملك الجاهل وتريك العاقل اذا لم يغلبها بعوامل الدين الصحيح ، فنشأ

---

(١) اشتد النزاع بين طائفتى القدرية والمعتزلة أيام الخليفة المأمون العباسى وذلك فى بداية القرن الثالث الهجرى (القرن التاسع الميلادى) . ولقد قاوم احمد بن حنبل (٧٨٠ ــ ٨٥٥ م) طائفة المعتزلة التى كان على رأسها الوزير احمد بن ابى دؤاد ، فسجنه الخليفة المأمون ، وأفرج عنه الخليفة المتوكل العباسى . ولقد اتصف ابن حنبل بشدة تمسكه بالتقاليد القديمة وكتابه يسمى « المسند » وهو يشتمل على ثلاثين ألف حديث

الكسل بين المسلمين ، بفشو الجهل بأصول دينهم ، وعاون على ذلك ميل الاعلياء منهم الى توريطهم فيما هم فيه كما هو شأنهم فى كل أمة

وهذا الضرب من المتصوفة ايضا من حسنات الاريين ، فانه جاءنا من الفرس والهنود بما بقى فيهم من عقائدهم الاولى

ما أضل هانوتو وأمثاله من قصار النظر ألا أولئك الدراويش الخبثاء أو البله الذين يغشون أطراف الجزائر وتونس ولا يخلو منهم اليوم قطر من أقطار الاسلام ممن اتخذ دينه متجرا يكسب به الحطام ، وجعل من ذكر الله آلة لسلب الاموال من الطغام

أما لو رجع المسلمون الى الحقيقة من دينهم لأدوا فرضهم ، واستنبتوا أرضهم ، واستفزروا من الثروة ، وأعدوا لفرنسا ما استطاعوا من قوة ، واعتمدوا فى نجاح اعمالهم على معونة القدر ، وايقنوا فى صولتهم علما أن ليس من الموت مفر ، ثم صال صائلهم على مكان العزة منها ، ونال ماينال القوى من الضعيف ، والعزيز من الذليل ، ولانقلب جنونهم لدى هانوتو عقلا ، وتحول هذيانهم حكمة وعلما

هذا مايتعلق برأيه الضئيل فى مسألة القدر عند المسلمين .

والآن آتى على آخر القول لكسر شرة هانوتو فى تهجمه على الاسلام ، وما نعنى بالكلام فيه هو التوحيد والتنزيه وخصمه التشبيه والتجسيد (الاعتقاد بتجسد الالوهية) ونبدأ بالكلام فى الثانى ونختم بالحديث عن الاول

أن كان مسيو هانوتو قرأ شيئا فى أحوال الامم ونشأة العقائد ، وعقله يعلم أن الوثنية وتوهم السلطان الالهى ظاهران فى بعض الموجودات المادية كانت عقيدة الواقفين على ابواب الانسانية لم يدخلوها ولم يتوسطوا منازلها وكانت لا تزال دليلا على انحطاط عقول أهلها مع تفاوت فى درجات ذلك الانحطاط

تبتدىء من وثنيي أفريقيا وتنتهي الى بوذيي الصين وبرهمن الهند

كلما ارتقى الانسان في العلم ، ولطف وجدانه بالفهم ، ونفذ عقله في أسرار الكون ، تمزقت دون روحه حجب المادة ، وانجلى له الوجود الاعلى على تفاوت كذلك في درجات الظهور والانجلاء، تنتهي الى الاعتقاد بوجود واحد واجب يستحيل عليه أن يلبس لباس المادة على النحو الذى يظنه مسيو هانوتو وأمثاله لان مالا حد له محال أن تحيط بوجوده الحدود

وقد كان هذا شأن اليونانيين الذين يفتخر هانوتو بمدنيتهم، نشئوا وثنيين ولا زالت الوثنية ترق وترث بارتقائهم في العلوم، وبحث فلاسفتهم في طبائع الكائنات حتى انتهوا وهم في ذرى مدنيتهم الى التوحيــــد وتنزيه واجب الوجـود عن مخالطة المادة . وقف فيثا غورس على عتبة التقديس وجاء بعده سقراط وافلاطون وارسطو مجاهدين في كشف الغمة عن عيون شعوبهم باذلين الوسع في محو ماغشي نفوسهم من ظلمات الوثنيـــة الاولى ، ومن قرأ جمهورية أفلاطون التى نقلت الى العربية أيام المأمون تحت اسم (المدينة الفاضلة) علم كيف كان يقـــارع افلاطون مابقي من آثار الوثنية من الآراء السخيفـة والعادات الرديئة التى كانت تحول بين الامة اليونانية وما ينبغي لها من الفضائل التى كان يطمع الفيلسوف ان تكون عليها

وبعد أن اوصلهم العلم الى التوحيد لم يرتد بهم التنزيه الى الجهل ، بل بقيت شمس مدنيتهم تشرق في العالم قرونا متمددة وكانت أشد بهاء وابهر سطوعا

كذلك قدماء المصريين لم يقف بهم العلم دون التوحيد ، غير ان رؤساء دينهم لم ينشروا تلك العقيدة بين عامتهم واستبقوا صور العبادات الاولى والبسوا التنزيه ثوب التشبيه استئثارا منهم بشرف العقيدة على من دونهم

فترى ضعف العقل وقلة العلم ونقص الادراك تقف بصاحبها عند الوسائط ، وقوة العقل ونفوذ البصيرة ، وسعة العلم تصعد بأهلها الى مشهد الوجود الاعلى وتشرق بهم من هناك على العالم بأسره ، فيرون عظيمه وحقيره سواء فى النسبة الى تلك القدرة الشاملة والعظمة العالية ـ الفاضل والمفضول ، والفروع والاصول ، وما ظهر للابصار وما نفذت اليه العقول ، كل ذلك يستمد وجوده من مشرق الوجود على مراتب قدرتها الحكيمة ، وتمت بها النعمة ، فاى مقام أعلى من مقام صاحب هذه العقيدة حيث قام شاهدا على الكون بجملته ما فصل منه فى فهمه ، وما أجمل فى كليات علمه ، يحكم عليه بأمر مربوب لرب واحد هو رب العالمين ، وان لا سلطان لشيء من هذا جميعه على نفسه لافى الايجاد ولا فى الامداد ، بل هو وحده يمكنه بما سن له الشرع الالهى ان يصل بنفسه الى تلك الحضرة وان يستمد منها المعونة فى كل شئونه

ينقسم أهل التشبيه الى قسمين : أحدهما من يعتقد الالوهية فى بعض الموجودات المشهودة ويقف عندما يعتقد منها ، والآخر يعتقد بأن بارىء الكون يظهر فى بعضها

أما الاولون فهم الذين ضعف الادراك فيهم عن الاحاطة بحقائق الاكوان ، فاذا ظهرت عليهم آثار قوة من القوى أو سلطة حيوان من الحيوانات ظنوا ما ظهر المنفرد بالقدرة عليهم ، وانهم اليه يرجعون فى جميع امورهم ، فهؤلاء يسلطون على انفسهم ماشاءوا وشاء لهم الجهل من جماد وحيوان وانسان ، ولايزالون حيارى فى شئون حياتهم حيرتهم بين معبوداتهم ، ثم هم يقيسون معبوداتهم بأنفسهم لانها ليست بابعد منهم فى النوع أو الجنس ويقدرون لها رغائب وشهوات تفوق رغائبهم وشهواتهم ، يسارعون فى ارضائها بما يعن لهم وكما تشرعه لهم اهواؤهم . ومن ذلك كانت ترتكب القبائح فى هياكل الالهة

وتنتهك حرمات الفضائل فى محاريبها وتفترس الذبائح الانسانية بين يدى التماثيل الحجرية ، واى درك ينحط اليه الانسان انزل من هذا ، وامر ذلك معروف فى التاريخ ولا تزال مشاهده الى اليوم معروفة

اما الآخرون فهم ارقى درجة من اولئك فى الادراك ولكن ماذا اصابهم ويصيبهم من ذلك الاعتقاد ؟ كانوا اذا فاقهم انسان فى عقل او شجاعة او صدر منه مالا يألفون من الاعمال او ظهر بما لا يعرفون من الاحوال ظنوه مظهرا للوجود الالهى فدانوا لسلطانه ، واستكانوا لقهره ، واخذوا انفسهم بالخضوع لارادته فسلبهم كل ما كانوا يملكونه من عقل وارادة وعزم ، وحق عليهم الصغار ماداموا على تلك العقيدة

وقد سهل هذا الوهم على كثير من اهل الدهاء ان ينزلوا من الناس منازل الآلهة طمعا فى استعبادهم . وكم قاست الامم من الرزايا التى جلبتها عليهم هذه العقائد الضالة

ويقرب من هؤلاء قسم ثالث ليس بخير من القسمين الآخرين وهم المعتقدون بالوسائط . ما قدروا الله حق قدره فقاسوه على الكبراء واهل السمو منهم فظنوا انه فى ملكوته ، كملك فى جبروته ، يصطفى لنفسه مدبرين من خلقه، ويستصنع عمالا للتصرف فى شئون عباده ، فاذا امتاز احدهم بمايعتقدونه زلفى الى الله ، او صدر منه مايظنونه دليلا على انه من المقربين اليه رفعوه الى تلك المنزلة ـ منزلة الاصطفاء للتصرف فى الكون ، فاتخذوه شفيعا لديه يلجئون اليه فى مهمات اعمالهم ويستجدون منه المعونة بماله من الدالة على ربه . واذا سئلوا عما يفعلون وما به يدينون ، قالوا « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى »

ماذا اصاب هؤلاء من شر ما اعتقدوا ؟ استعبدوا للسادن والكاهن والزعماء ووارثيهم واستسلموا لهم فى جميع شئونهم،

فكانت علومهم بين أوهامهم ، وأفهامهم واقفة عند خيالاتهم ، ينكرون الاوليات من المعلومات ، اذا توهموا انها تخالف تلك الموهومات التي تلقوها من زعمائهم . ثم كانوا يتركون وسائل العمل اتكالا على ما يستمدونه منهم ، ولا يزال التاريخ يشهد على ماقاسته الانسانية من بلايا هذه العقائد ، والعيان يؤيده في كثير من الامم في الشرق والغرب الى اليوم

هذه مفاسد الوثنية وما جاورها ، لا ينكرها مطلع على مبادىء العلوم الصحيحة بل يعرفها كثيرون من العامة الذين لم ينشئوا في جوها الفاسد

أما زعم هانوتو أن وثنية اليونانيين كانت ترتقى بالافراد فى سلم الفضائل طمعا فى نيل مرتبة الالوهية فهو زعم لم يقل به من المسيحيين سواه فيما أعلم . ولم يقل احد من اليونانيين انفسهم انهم كانوا يسعون فى كسب الفضائل من طريق التوصل الى مقام الالوهية ، ولا أن الالوهية البشرية تركت فيهم اثرا صالحا بل لم تورثهم الا تلك الرذائل التى قام سقراط وافلاطون لمحاربتها . اما السعى الى الفضائل فكان للتقرب لاربابها كما هو معلوم

اما حكمه على المسيحية بانها من ناحية الديانة اليونانية فذلك ادع الكلام فيه الى المسيحيين انفسهم . ولكنى اقول ان المسيحية بذلت وسعها فى بداية أمرها لتطهير الارض من الوثنية التى كان الناس عليها فى عهدها ، وجاهدت من تلوث بعقائدها من اليهود والرومانيين ، وانبث رجالها بين الوثنيين يدعوتهم الى الاله الواحد ، وكان التنزيه قوام دعوتهم كما يعلمه المدقق فى فهم كلامهم ، ولم تظهر آثار التشبيه فيها الا بعد قرون من نشأتها ، وتاريخ الامبراطور قسطنطين(1) معروف

---

(1) الامبراطور قسطنطين امبراطور الرومان منذ عام ٣٠٦ م . أول من

عند أهل التاريخ وغيرهم ولا حاجة الى تفصيل ما كان منه

ثم لما امتد الغلو فى التشبيه ، ظهرت المظـــالم ، وعظمت المغارم ، واختفى العلم ، وخسىء العقل ، وتهدمت اركان النظام، واستشرى الفساد فى الامم النصرانية ، حتى ظهر الاصـــلاح وقضى على ماسبقه ، واستقامت أوربا فى طريقها المعروفة اليوم، وقد أشرنا الى شيء من أسباب ذلك

لم نسمع أن أحدا من المسيحيين يعبد الله لينال رتبـــة المسيح فيكون الها بشرا كما يؤخذ من عبارته . ولم نر اثرا لاحدهم يدل على انه عقل عقيـدة التثليث على هذا النحو الذى ذكره . ولكنهم يصرحون بانها عقيدة لا مجال للعقل فيها ، فلا مكنة له فى ان يحتذيها . وقد قامت طوائف منهم فى ازمان مختلفة تصرح بأن هناك فرقا بين مالا يصل اليه العقل وما يناقض حكم العقل ، وذهبت الى ان المسيح لم يكن الا نبيا مختارا بعثه الله لخلاص البشر من سلطان الشيطان وحملوا الابن على المصطفى (المختار) والاب على الرب الرحيم . واعرف أن بعض طوائف البروتستانت اليوم ، وأن كانت قليلة العدد ، تذهب الى تأويل الكلمة بالعلم وروح القدس بالحياة ، وقد لاقيت بعضهم فى بعض أسفارى وأكد لى أن لهم شيعة تدين بذلك

وهل كانت المسيحية فى سالف الازمان تجاهد من حولهـــا

اعترف بالدين المسيحى كدين قائم مثل باقى الديانات الوثنية وغير الوثنية ، ويقال ان سبب ذلك الاعتراف انه وهو يشق طريقه من غرب أوربا الى العرش الامبـــراطورى ، ليقضى على منافســـه على العرش الامبراطورى واسمه ماكسنتيوس ، شاهد علامة الصليب فى السماء ومكتوب عليها هذه الجملة : « بهذه العلامة ستنتصر » ، لذلك أصدر «مرسوم ميلان» عام ٣١٣م باعترافه بهذه الديانة . ولقد نقل عاصمة الامبراطورية منـدوما الى بيزنطة لتكون عاصمة مسيحية خالصة . وقد اطلق عليهـا القسطنطينية نسبة اليه

من الوثنيين لتخرجهم من وثنية الى وثنية ؟ نعوذ بالله من هذا الخبط الصادر من محب غير عالم

اني أرفع أدبا من أن أطعن في عقائد المسيحية في جريدة ، وقد أمرت أن أجادل بالتي هي احسن . ولكنى أرجع الى الكلام في الآثار التي عنى هانوتو باتخاذها دليلا

جاء الاسلام يدعو العالم بأسره الى التوحيد ، وصرح بأن دين التنزيه هو دين الله من لدن آدم ونوح وابراهيم الى موسى . ثم هو دين الانبياء بعد موسى ودين خاتم رسل اسرائيل عيسى عليه السلام ، ولم ينكر أن في اليهود وفي المسيحيين خصوصا أهل تنزيه ، وذكر أن منهم من مال الى التشبيه ودعاه الى الرجعة الى اصل دينه حتى يقوم بالعبادة لله وحده ويعتق من سلطة الرؤساء والزعماء الذين اغتصبوا عقله وملكوا هواه وهمه ..

هبت الوثنية واليهودية والنصرانية لمناواة الاسلام وكانت أكثر عددا وأوفر عدة وأعظم قوة وأشد بأسا ، فلم يكن الا قليل من الزمن ثم ظهر الحق ونفذ شعاعه الى القلوب ، فدخل الناس فيه أفواجا من كل ملة ! فأعتقت الهمم ، وافتكت العزائم من اسرها ، واخذ كل يطلب من الكمال ما يعده له استعداده الممنوح له من واجب الوجود ، واخذ المعتقدون بالتوحيد والتنزيه يشرفون من شرفات الايمان على اسرار الوجود ، ومزقوا تلك الحجب والاوهام ، واتصلوا بمنابع العلم من الفكر والنظر والدين . ولم يكد أهل الملة يستريحون من الشغب الذي هبت ريحه بينهم حتى سطعت أنوار العلم فيهم ، ولم يبق باب من أبوابه الا دخلوه ، ولا مرتقى من مراقيه الا علوه ، ولم يبق متروك من مخلفات اليونان والفرس والرومان الا استخرجوه من زوايا النسيان وجلوا صداه وابرزوه للأنظار

هذا اثر الاسلام وهو دين التنزيه ، ولم يكد ينتهي القرن الثاني من ظهوره حتى جال المسلمون في علوم السموات والارض وصححوا الاغاليط ، وتفحوا القواعد ، وحرروا الاصول. وفي مفتتح القرن الثالث اقاموا المراصد ، ومسحوا الارض واتوا في ذلك بما هو معهود لاهل العلم في ديارنا وديار مسيو هانوتو

انى اكتفي فيما يقابل هذا بقول جماعة من اهل النظر في الامم الغربية اليوم : اقامت النصرانية في الارض ستة عشر قرنا ولم تات بفلكي واحد ، واخذ المسلمون يبحثون في هذه العلوم بعد وفاة نبيهم ببضع سنين ، ومع هذا لا يعد ذلك طعنا في اصول الديانة المسيحية وانما هو طعن في تصرف القائمين عليها والمحرفين لها عما جاءت له

▱

يظن هانوتو أن الاسلام قطع الصلة بين العبد وربه ولكنه وهم في ذلك فان الاسلام أفضى بالعبد الى ربه وجعل له الحق أن يقوم بين يديه وحده بلا واسطة تبيعه رضاءه — قضي الاسلام بالا يكون للكون الا قاهر واحد يدين له بالعبودية كل مخلوق ، وحظر على الناس مقامين لايمكن الرقى اليهما — مقام الالوهية التى تفرد بها ، ومقام النبوة التى أختص بمنحها من شاء ثم اغلق بابها ، وماعدا ذلك من مراتب الكمال فهو بين يدى الانسان ، ويناله استعداده ، لا يحول دونه حجاب الا ماكان من تقصيره في عمله او قصوره في نظره

اذا اعتقدت بقصور فضل الله عنك وقفت نفسك حيث وضعتها ، ولن تستطيع الى التقدم سبيلا . هكذا يرفع الاسلام الصحيح نفس صاحبه ، وهذا هو معنى الاسلام والاستسلام الذى اخطأ في فهمه مسيو هانوتو ، فهل بقى الانسان مع هذا المعنى من الاسلام في درك من الحيوانية وفي هجرة عن التوسل بالاسباب الى مسبباتها في كسب الفضائل والكمالات ؟

يجب على الباحث فى الاسلام أن يطلبه فى كتابه ، كما يجب عليه ان يطلب آثاره ، والاسلام اسلام والمسلمون مسلمون

من اين اتى المسلمون وكيف دخـــل عليهم فى عقائدهم التشبيه ، وفى عوائدهم التمويه ، وممن تعلموا الاختراس ، وعمن اخذوا الضراء بالشهوات ؟ انا اعلم ذلك واهـل العلم يعلمون والله من ورائهم محيط

اتبع المسلمون سنن من قبلهم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى سقطوا فى مساقطهم ، وطارحوهم الاوهام حتى انجروا الى مطارحهم ، وباءوا بما كان لهم وما عليهم

حدثت فى الدين بدع اكلت الفضائل ، وحصدت العقائل ، وترامت بالناس الى حيث يصب عليهم ما استفرغه (كيمون)

اما لو رجع المسلمون الى كتابهـــم ، واسترجعوا باتباعه مافقدوه من آدابهم ، لسلمت نفوسهم من العيب ، وطلبوا من اسباب السعادة ماهداهم الله اليه فى تنزيله وعلى لسان نبيه ، ومهده لهم سلفهم وخطه لهم اهل الصلاح منهم ، واستجمعت لهم القوة ، ودبت فيهم روح الفتوة ، وكان مايلقـــاه هانوتو وكيمون من دين صحيح ، شرا عليهما مما يخشون من دين شوهته البدع

يرى كيمون أن يخلى وجه الارض من الاسلام والمسلمين ، ويستحسـن رايه هانوتو ، لولا مايقف فى طريق ذلك من كثرة عدد المسلمين ، وبئسما اختارا لسياسة بلادهما أن يظهـرا ضغنهما ويعلنا خطل رايهما وضعف حلمهما

الا فليعلما وليعلم كل من يخدع نفسه بمثل حلمهما أن الاسلام ان طالت به غيبة ، فله أوبة ، وان صدعته النوائب فله نوبة . وقد يقول فيه المنصفون اليوم من الانكليز مثـــل اسحاق تيلر وهو قس شهير ورئيس فى كنيسة :

« انه يمتد فى افريقيا ومعه تسير الفضائل حيث ســـار

فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره ، والشجاعة والاقدام من انصاره »

ويأسف أشد الاسف من أن السكر والفحش والقمار انتشرت بين السكان بانتشار دعوة المبشرين بينهم ، وقال « انه يختار اسلاما لا سكر فيه على مسيحية فيها سكر »

ثم هو لا يزال ينتشر فى الصين وغيره من أطراف آسيا ، وسترشده الحوادث الى طريق الرجوع الى طهارته ، وتنثنى به الملمات الى ما كان عليه لاول نشأته ، وتدرك عند ذلك الامم منه خير ماترجو أن شاء الله

لو اسلمت الامة الفرنسية بأسرها وفى مقدمتها مسيو هانوتو وكانت معاملتها لغير الفرنسيين على ما تعهده فى الجزائر ومدغشقر ، هل ترجو من سكان مستعمراتها ان يميلوا اليها والا ينتهزوا الفرص للثورة عليها ؟ كلا ، فما ظنك بالمسلمين وهم يسمعون قصف هذا الرعد ولا يرون من المتغلبين عليهم الا الجد فى اهلاكهم والدأب فى اخفائهم

ان العدل ورعاية الحقوق واحترام المعتقدات بعد معرفة أصولها هى التى تخفف على المغلوب سلطة الغالب وتدنو به منه وتهون عليه الرضاء عنه ، ولكن هانوتو وأترابه من ساسة الفرنسيين لا يعرفون شيئا من هذه الاركان الثلاثة ولا يزالون يهرفون بما لا يعرفون حتى يصلوا الى ما كانوا يحسبون فلينتظروا انا معهم من المنتظرين

هانوتو والاسلام

رد الامام الثاني على هانوتو وفيه بحث الجامعة الاسلامية

القت الى المصادفة نسختين من احدى الجرائد المشهورة فى القطر المصرى جاء بها حديث بين صاحب الجريدة ومسيو هانوتو صاحب الفصول المعروفة فى الاسلام

ولم اشك فى أن كثيرا مما جاء فى هذا الحديث صادر عن راى مسيو هانوتو ، لأنه لايصدر الا عن عارف مثله بأحوال أوربا وكثير من أحوال الشرق ، ولهذا رأيت أن حرمانه من حظ النظر فيه ، وتركه يمر بلا مناقشة معه فى بعض ماتضمنه يعد ظلما وجورا عليه ، خصوصا ونسبة القول اليه مما يدع فى اذهان الناس أثرا لايحسن السكوت عنه

وقد جاء فى كلامه مايدل على انه قد أصيب بشىء من سوء الفهم فى أحوال المسلمين ، وما انبعثت اليه نفوسهم اليوم . وسوء الفهم منشأ الشقاق والخصام بين أهل المقصد الواحد كما ذكر حضرته فى مقال له سابق . فلا يليق بذى غيرة على الحق الا يوفيه من الاعتبار ما يستحق ؛ وأرجو أن يترجم ما اكتبه فى جريدة المؤيد الفرنسية وان يرسل الى مسيو هانوتو ليقف على ماغاب عنه من مقاصدنا وافكارنا

ان كان المسلمون اليوم ينتفعون بشىء ويعتبرون بمثال ؛ لم يكن انفع لهم من الاعتبار بما جاء فى كلام مسيو هانوتو . فقد أرشدهم الى عيوب فيهم لايسعهم انكارها ، وهداهم الى

مقاصد لطلاب الاستعمار فى ديارهم قد شهدوا بالعيان آثارها ، وصرح لهم بأن الاعتماد على العدالة فى معاملة الدول ضرب من الخيال ، وعقد الآمال بانصاف الأمم تلمس للمحال ، وما على المهتم بحماية ذماره ، وطالب الطهر من عاره ، الا أن يدركهم ويعمل عملهم ، ليبلغ من الحول حولهم ، فيفوقهم فى القوة أو يكون مثلهم ، فيتعارض فى المنافع معهم معارضة المالك مع المالك ، لا أن يتسلى بالاعاليل ، ويلهو بالأضاليل ، ويقنع بالامانى ، ويكتفى من العمل بالصوت الجهورى واللفظ الطلى ، وهو من روح قائله خلى ، حتى اذا دهموه وهو فى غفلته واخذوه فى نومه أو يقظته ، بسط يده يلتمس الرحمة منهم ، ويرقب أن يفيض عليه سيب العدل عنهم ، فهذا عمل الجاهل الأحمق ، وهو بالذلة والاستعباد احق

وهى نصيحة يجب على المسلم قبولها من اجنبى منه ، وكان يجب عليه من قبل ان يقبلها من ابى بكر الصديق رضى الله عنه ، فقد قال لخالد بن الوليد حين أرسله لحرب اليمامة « حاربهم بمثل مايحاربونك به : السيف بالسيف والرمح بالرمح »

ولايخفى ان كل نزاع فهو حرب ، وكل منافسة فيما هو عماد الحياة فهى جلاد ، وكل عمل يأتيه أحد المتنافسين للظفر بمنافسه فهو جهاد ، وكل وسيلة تظفره بطلبته فهى سلاح ، وكل تجاذب أو تدافع بينهما فهو كفاح ، وكل منفعة حفظها أو استخلصها منه فهى غنيمة ، وكل انخذال عن حق أو تفويت لمصلحة فهو هزيمة

فالظافر فى ميدان المنافسة من كان رأيه أسد ، وقوته اشد ، وسلاحه أحد ، فاذا قربت القوتان من التكافؤ أمكن بمصالح المتنافسين أن تتفق ، وسهل على كل منهما أن يرتفق ، والا استحال الاتفاق ، واستبد القوى بالارتفاق ،

بل صعب على الضعيف ان ينال حق البقـاء ، سنة الله في عالم الاحياء

وقد فصل مسيو هانوتو ما اجمله بعض أساتذتنا في قوله (العدل تكافؤ القوى)

صرح مسيو هانوتو بأن أوربا بعد أن كانت لاتشتغل الا بما يجري فيها ، اندفعت الى الاستعمار ولايردها عنه الا قوة الامم التي تابى الاستعمار فيها . وضرب المثل باليابان فانها بما ارتقت في المدنية ، وما أصلحت من شئونها الداخلية ، و اعدت لوقاية ممالكها ، وحماية مسالكها ، قد آذنت أوربا بقوتهـا ، وحملتهـا على الاقرار بمكانتها ، فحمت بلادها ومصالحها من صولتها ، وأمكنها ببرهان القوة أن تؤلف بين منافعها ومنافع الاوربيين ، وهو قول حق ، وكان على المسلم ان يعرفه من قرون ، وله في كتابه المنزل خير هاد وارشد مرشد ، وكان يكفيه منه آية « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة » فقد دعته الآية الكريمة الى الاعداد ، وطالبته ان يبلغ منه حد المستطاع ، ولاحد لما تستطيعه أمة اذا صرفت قواها العقلية والجسدية فيما هيئت له ، واطلقت له القوة ، وهي كل مايقوى به خصم على خصم ، ويقتدر به على حماية نفسه وحوزته من اعتداء معتد ، أو يستطيع به استخلاص حق من يد مغتصب ، وخير القوى ماحفظ به الحق ، وعظمت به المنفعة ، ووقف لهيبته كل من المتنافسين عند حده ، حتى يستقر السلام بينهم ، وتشمل الطمأنينة نفوسهم

وقد تألفت قوى الأمم الاوربية من عناصر هي العلم والادب والتجارة والصناعة والعدل والدين والسلاح . وذكرت الدين في جملة عناصر القوة لان مسيو هانوتو لا ينكر أن أوربا تعتمد على الدين في سياسة الاستعمار ، وان المرسلين والجمعيات الدينية من أهم الوسائل لديها في اعداد الشعوب الى قبول

سلطانها عند سنوح الفرص لسوقه اليها ، وتهيئة نفـوس الامم لاحتمال ما ينقض به ذلك السلطان متى اظلهم ، وفى فتح المغالق التى لايستطيع السلاح وحده أن يفتحها ، وتمهيـد السبل التى لايمكن لساعد الجندى وحده ان يمهدها . وهو من الامور المسلمة التى لايجادل فيها عارف مثل هانوتو ، فلا حاجة للاطالة فى بيانه غير انى اذكر قصة كنت شاهدتها لا بأس بذكرها فى هذا المقام :

تعلم أحد أبناء جبل لبنان من بلاد سوريا فى بعض مدارس الجمعيات الدينية الفرنسية فى تلك البلاد ، واخذ عن أساتذته كثيرا من آدابهم ، وطالع عددا من مؤلفات كتـابهم ، وامتلأ قلبه بحب فرنسـا ، واستقر فى ذهنه أنها منبع نور العلم والحرية ، وانها محررة العالم اجمع من رق الاستبداد ، ثم انتقـل لكتب بعض الفلاسـفة الفرنسيين ومؤلفـات بعض السياسيين ، فعظم عنده الاعتقاد بأن هذه الامة الجليلة انما يهمها فى سياستها أن تنشر المعارف فى العالم لتهذيب العقول ، وتكميل النفوس ، لتربيتها على أصول العقل وحرية الفكر ، ورأى أن من الزلفى عند الحكومة الفرنسـية أن يذهب الى باريس ويسألها المعونة على انشاء مدارس فى جبـل لبنـان ، يبنى التعليم فيهـا على تلك الاصول السـابقة ، فذهب الى باريس سنة ١٨٨٤ ، واتصل بأحد أذكياء السـوريين الذين طاب لهم المقام فى البلاد الفرنسية وطلب منه ان يكون وسيلته فى نيل ما يرغبه من معونة الحكومة ، فسعى الذكى سعيه،ثم عاد الى صاحبه وقال ان ماتخيلته ضرب من الوسواس وان الحكومة الفرنسـية وان كانت تطرد الجزويت من بلادها ، وتنازع الكنيسة فى سلطتها ، لكن سياستها فى الخارج دينية محضة ، ويمكن ان تعرف ذلك من حمايتها للجزويت واعانتها لهم بالمال والقوة فى بلادك

فان كنت تريد انشاء مدارس دينية فى بلاد لبنان كان أملك فى المساعدة قريبا ، والا فارجع واشتغل بما يصلح شأنك الخاص بك . فرجع الشاب بالخيبة بعد ما أقام مدة صرف فيها ماكان عنده من النقود ، ولم يجد من يساعده على الرجوع الى بلده الا من رحمه من اصدقائنا اذ ذاك ، وكان لى حظ فى مساعدته . كما كنت شاهدا الحديث الذى رويته

فان لم يسع المسلم بعزم ثابت فى تحصيل هذه العناصر التى سبق ذكرها ، أو تقوية ماضعف عنده منها وهو مسلم ، كان مخالفا لكتابه ولقول الصديق رضى الله عنه ، ومستحقا للوم مسيو هانوتو ، ولم تتفق له مصلحة مع مصالح الاوربيين الى يوم القيامة

بقى على الكلام مع هذا الوزير فى امرين : الاول فيما فهمه من شأن المسلمين فى هذه الايام ، ومايسمونه دعوة الى توحيد كلمة المسلمين قاطبة ، وجمع السلطة الدينية والسياسية فى شخص واحد . والامر الثانى سوء ظن أكثر المسلمين بالسياسة الاوربية ، بل بالمسيحيين أجمع ، حتى وصل فقد الثقة بهم الى الا يأتمنوا مسيحيا عثمانيا فى عمل من اعماله ، وان اخلص لهم الخدمة كما سمعه من صاحب هذه الجريدة الناشرة الحديث ، وغيره

▱

شأن المسلمين اليوم وظهور دعوة فيهم الى توحيد كلمة المسلمين وجمع السلطة الدينية والسياسية فى شخص واحد فى جميع البلاد الاسلامية

أؤكد لمسيو هانوتو ان هذه الدعوة لم يوجد لها اثر الى اليوم فى بلد من بلاد المسلمين ولو خطا خطوة إلى معرفة احوالهم على ماهى عليه ، لما خطر بباله ان يشير الى الدعوة فضلا عن ان يبنى عليها حكما ، وان ماعلق بالاوهام

منها فانما منشؤه سوء فهم بعض مسيحيي الشرق ثم انعكاس ذلك في اذهان سياسيي الغرب ، وقد يكون لسوء نية بعضهم مدخل في تعظيم ماتوهم فيها

واني أعرض الحقيقة كما هي لايغشاها ستار من تمويه ولا غطاء من تلبيس ، وأرجو أن يكون في هذا البيان مايقنع مسيو هانوتو بحسن مقاصد المسلمين اليوم في كلامهم عن الدين وما يرد امثال صاحب الجريدة التي نشرت حديثه الى رشدهم حتى يتقوا الله في انفسهم وأهل بلادهم ، ولا يتخذ بعضهم من السلم حربا ولا من السكون شغبا

لا أنكر أن طائفا من الدين طاف في هذه السنين الاخيرة بعقول بعض المسلمين في اقطار مختلفة من الارض ، وان نسمة من نفس الرحمة مرت بانفس قليل من أهل الفضل فيهم فحركت ساكنهم ، وأثارت هممهم الى النظر فيما كان عليه اهل هذا الدين ، وفيما صاروا اليه ، وان منهم من يتكلم بما يرى اذا وجد سبيلا الى الكلام ، ومنهم من ينشر رأيه في كتاب أو جريدة اذا تهيأت له الوسائل لذلك . ثم يوجد مقلدون لهؤلاء يقولون مالا يعلمون ، ويهرفون بما لا يعرفون ولا كلام لنا في هذه المقلدين ، وانما كلامنا فيما يرمي اليه غرض أولئك الناظرين

ظهر الاسلام لا روحيا مجردا ، ولا جسدانيا جامدا ، بل انسانيا وسطا بين ذلك ، آخذا من كل القبيلين بنصيب ، فتوفر له من ملاءمة الفطرة البشرية مالم يتوفر لغيره ، ولذلك سمى نفسه دين الفطرة ، وعرف له ذلك خصومه اليوم وعدوه المدرسة الاولى التي يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية ، ثم لم يكن من أصوله « أن يدع مالقيصر لقيصر » بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ماله ويأخذ على يده في عمله . جاء هذا الدين على الوجه الذي ذكرنا فهدى ضالا ، والآن

قاسيا ، وهذب خشــنا ، وعلم جاهلا ، ونبه خاملا ، وأثار الى العمل كســلا ، واقدر عليه وكلا ، وأصــلح من الخلق فاسدا ، وروج من الفضيلة كاسدا ، ثم جمع متفرقا ، وراب متصدعا ، وأصلح مختلا ، ومحا ظلما ، واقام عدلا ، وجدد شرعا ، ومــكن للأمم التى دخلت فيه نظاما امتــازت به عن سواها ممن لم يدخل فيه ، فكان الدين بذلك عند أهله كمالا للشخص ، والفة فى البيت ، ونظاما للملك . وظهرت به آثار النعمة عليهم فى جميــع شــئونهم ، ولم يفت العلم حظ من عنايته . بل كان قائده فى جميع وجوه سيره ، فان شاء قائل أن يقول أن الدين لم يعلمهم التجارة ولا الصناعة ولا تفصيل سياسة الملك ولا طرق المعيشــة فى البيت لم يسعه ان ينكر انه اوجب عليهم السعى الى مايقيمون به حياتهم الشخصية والاجتماعية ، وأوجب عليهم أن يحسـنوا فيه ، واباح لهم الملك ، وفرض عليهم أن يحسنوا الملكة ، وماظنك بدين يقول خليفته الثانى وهو فى المدينة من بلاد العرب « لو أن سخلة بوادى الفرات أخذها الذئب لسئل عنها عمر » ويقول الخليفة الرابع « اقنع من نفسى بان يقال امير المؤمنين ولا اشاركهم فى مكاره الدهر ، او اكون اسوة لهم فى خشونة العيش ؟ اى خشونته » يريد بذلك أن يساوى المساكين فى العيش ليكون قدوة الاغنياء فى الاحسان واسوة الفقراء فى حسن الصبر

هكذا كان الاسلام مهمازا للمسلمين يحثهم الى جلائل الاعمال ، ومصباحا لبصائرهم يسترشدون به فى اســتغراق الاحوال وتقويم الافــكار ، وعاطفــا يعطف قلوبهم على الامم بالعفو والمرحمة وحسن المعاملة ، حتى رضيتهم الارض سادة لهــا وقادة لسكانها ، وكان من امرهم وأمره ماهو معلوم .

أفبعد هــذا يعجب عاقل اذا رأى المسلم يرضى مارضيه هذا المرشد الحكيم ويمقت ما مقته ؟ ايدهشه أن يرى المسلم

يهزأ بكل مالم يعتقده سائغا فى دينه ، وإن كان فيه ملك الأرض أو ملكوت السموات ، بعد ماشهد المسلم من أثر نعمة الله عليه فى هذا الدين ماشهد ؟ لا عجب فى ذلك فانه نتيجة ضرورية ، ينساق اليها الامر بنفسه بحكم سنة الله فى خلقه

واأسفا !! لم يبق للمسلم من الدين الا هذه الثقة فيه ، أما الدين نفســه فقد انقلب فى عقل المسلم وضـعه ، وتغير فى مداركه طبعه ، وتبدلت فى فهمه حقيقته ، وانطمست فى نظره طريقته ، وحق فيه قول على كرم الله وجهه « ان هؤلاءالقوم قد لبسوا الدين كما يلبس الفرو مقلوبا »

لا أبحث اليوم فى الاســباب التى وصلت بالدين فى نفس المسلم الى ماذكرت ، ولكن أقول ولا أخشى منكرا لما أقول : قد دخل على المسلم فى دينه ماليس منه ، وتسرب فى عقائده من حيث لايشعر مالايتصل باصلها بل مايهدم قواعدها ويأتى على أســاسها . عرضت البدع فى العقائد والاعمال ، وحلت محل الاعتقاد الصحيح ، واخذت مكانالشرع القويم ، وظهرت آثارها فى أعماله ، وعم شؤمها جميع أحواله

ان صح لفظ الحديث « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » أو لم يصح ، فالقرآن يؤيد معناه ، وعمل الاولين من المسلمين يحقق صحة ما حواه ، فالرجل والمرأة ســواء فى الخطــاب التكليفى ، وكانا ســواء فى علم مايجب عليهما من فرائض الاسلام ، وخصــال الايمان ، وفى طلب العلم مايلزم لصلاح معادهما ومعاشــهما ، وبما تحسن به المعاملة مع من يتصل بهما قرب أو بعد على تفصيل معروف فى كتاب الله وسنة رسوله وعمل الصالحين من بعده ، حتى لم يبق باب من ابواب العلم الا دخل منه بقــدر الاستطاعة وما يســمح الزمان . ضل المسلم بعد ذلك فى معنى العلم ، فظن الرجل

ان غاية مايفرضه الدين منه معرفة فرائض الوضوء والصلاة والصوم في صورة ادائها ، اما مايتعلق بسر الاخلاص فيهما ووسيلة قبولها عند الله فذلك مما لايخطر له ببال الا القليل النادر ، اما آداب الدين وتهذيب الروح واستكمال الخصال الجليلة مما جعله الاسلام غاية العبادات وثمرة الاعمال الصالحات فهو مع أنه أهم علوم الدين مما لاتتوجه اليه عزيمته ، ولا تنصرف نحوه ارادة ، اللهم الا من أشخاص قلائل منثورين فى أطراف الارض لاترقى بهم أمة ، ولا تسمو بهم كلمة ، أما من ينقطعون لطلب العلوم ليحصلوا جملة منها فقد انقسموا الى فريقين :

الاول من يظن انه وارث علوم الدين والقائم بحفظها ، وقد قل افراده فى معظم البلاد الاسلامية ، ولم يبق منه الا رسوم لايكاد يدركها نظر الناظر ، والمشتغلون منهم فى بعض البلاد كمصر والاستانة فانما حظ الذكى منهم وقليل ماهو ، أن ينظر فى كتب مخصوصة عينها له الزمان وضعف العرفان ، ويفهمها بمعنى أن يثق بأن هذا اللفظ دال على ذاك المعنى ، ومتى تم له ذلك فقد استكمل العلم سواء سلم له عقله ودينه وادبه بعد ذلك أم لم يسلم ، فكان مثلهم مثل من ورث سلاحا ، فكان همه أن ينظر اليه ويملأ عينيه منه ، ولا يمد يده اليه يستعمله أو يزيل الصدأ عنه ، فلا يلبث أن يأكله الصدأ ويفسده الخبث . ويزعمون أن الدين يصد عما وراء ما عرفوا من العلوم النافعة ، ومن رأى هؤلاء ان لا شأن لهم مع العامة ، ولا يجب عليهم ان يأمروا بمعروف ولا ان ينهوا عن منكر ، وقد ارتكبوا بذلك خطأ فى فهم دينهم لايساويه فى سوء عاقبته خطأ ، وللكثير منهم بل الاغلب من سوء الفهم فى الدين مالا حاجة الى عده ، ولايخفى ان مايحصله هذا الفريق فى العلم لايظهر له أدنى أثر فى صلاح الامة كما هو مشهود

والفريق الثانى من يهيئه أولياؤه لنيل منصب من مناصب الحكومة عال أو سافل ، وافراد هذا الفريق ، ان كثروا أو قلوا ، يحصلون مبادىء العلوم المعروفة بالعلوم العصرية ، ثم يحصل كل واحد مابه ينال المنصب الذى يعده له والده ، على أن مايحصل اما لفظ يحفظ او خيال يخزن، والمدار على الوصول الى ورقة الشهادة . ومن هؤلاء من يذهبون الى أوربا لاستكمال التربية فيها ولا غاية لهم سوى هذه الغاية ، فمن أصاب منهم بعد ذلك وظيفة قنع بها ، وحصر همه على العمل فيها ، ومن لم يجد وقف على الابواب ينتظرها ، فاذا مل الانتظار او تقضى زمن العمل وجدته فى مقهى أو ملهى يسرف فى أوقاته ويفسد فى أدواته ، والصالحون منهم ، وقليل ماهم ، لايهمهم شأن العامة شقيت أو سعدت ، هلكت أو قامت ، فأى أثر لما تعلمه هؤلاء يظهر فى الامة ، واستثنى منهم شواذ فى كل بلد على ضعفهم يرجى أن ينمو عددهم وتجنى الامم ثمار أعمالهم

وهذا شأن الرجال مع العلم

أما النساء فقد ضرب بينهن وبين العلم مايجب عليهن فى دينهن أو دنياهن بستار لايدرى متى يرفع ، ولا يخطر بالبال أن يعلمن عقيدة أو يؤدين فريضة سوى الصوم ، ومايحافظن عليه من الفقه فانما هو بحكم العادة ، وحارس الحياء ، وقليل جدا من موروث الاعتقاد بالحلال والحرام ، وحشو أذهانهن بالخرافات ، وملاك أحاديثهن الترهات ، اللهم الا قليلا منهن لايستغرق الدقيقة عدهن ، وكل من الرجال والنساء يعد نفسه مسلما يعده الجنة ويمنيه السعادة .

اخطأ المسلم فى فهم معنى التوكل والقدر فمال الى الكسل ، وقعد عن العمل . ووكل الامر الى الحوادث تصرفه

حيثما تهب ريحها ، ويظن انه بذلك يرضى ربه ويوافق رغائب دينه

اخطأ المسلم فى فهم ما ورد فى دينه من أن المسلمين خير الامم ، وأن العزة والقوة مقرونتان بدينهم أبد الدهر ، فظن ان الخير ملازم لعنوان المسلم ، وان رفعة الشأن تابعة للفظه وان لم يتحقق شيء من معناه ، فان أصابته مصيبة أو حلت به رزية تسلى بالقضاء ، وانتظر ما يأتى به الغيب ، بدون أن يتخذ وسيلة لدفع الطارىء ، أو ينهض الى عمل لتلافى ماعرض من خلل ، أو مدافعة الحادث الجلل ، مخالفا فى ذلك كتاب الله وسنة نبيه

اخطأ المسلم فى فهم معنى الطاعة لاولى الامر والانقياد لاوامرهم ، فالقى مقاليده الى الحاكم ووكل اليه التصرف فى شئونه ثم ادبر عنه حتى ظن أن الحكومة يمكنها القيام بشئونه جميعا من ادارة وسياسة بدون أن يكون لها منه عون سوى الضريبة التى تفرضها عليه ، ومن رأى حزن الاباء اذا طلب ابناؤهم لاداء الخدمة العسكرية ، وما يبذلونه من السعى فى تخليصهم منها حكم بأن ما يعقله أكثر المسلمين من معنى الحكومة لا يمكن انطباقه على شيء من أوليات العقل ، وعرف أن ثقتهم بالحاكم قد بلغت الى حد التاليه ، من حيث ظنوه قادرا على كل شيء بدون عون من احد ، وانقلبت تلك الثقة الى الادبار والتخلى عنه ، من حيث أنهم تركوه وشأنه ، لا يساعدونه فى حادث ، ولا يعينونه فى أمر مهم ، اللهم الا اذا ارغموا على ذلك ، ومن ذا الذى يحسن عملا اذا الجىء اليه بالرغم منه . ومن هنا انصرف المسلم عن النظر فى الامور العامة جملة ، وضعف شعوره بحسنها وقبيحها ، اللهم الا ما يمس شخصه منها

أما الحكام ، وقد كانوا أقدر الناس على انتشال الامة مما

سقطت فيه ، فأصابهم من الجهـــل بما فرض عليهم فى أداء وظائفهم ما أصاب الجمهور الاعظم من العامة ولم يفهموا من معنى الحكم الا تسخير الابدان لاهوائهم ، واذلال النفـــوس لخشـــونة سلطانهم ، وابتزاز الاموال لانفاقهـــا فى أرضـــاء شهواتهم ، لايرعون فى ذلك عدلا ، ولا يستشيرون كتابا ، ولا يتبعون سنة ، حتى أفسدوا أخلاق الكافة بما حملوها على النفاق والكذب والغش والاقتداء بهم فى الظلم وما يتبع ذلك من الخصال التى مافشت فى أمة الا حل بها العذاب

هذا كله الى ما حدث من بدع أخرى من مذاهب شتى فى العقائد ، وطرق متخالفة فى السلوك ، وآراء متناقضـــة فى الشرائع ، وتقليد أعمى فى جميع ذلك ، فتفرقت المشارب ، وتوزعت المنازع ، وعظم ســـلطان الهوى على أرباب النزعات المختلفة ، كل يجذب الى نفسـه ، لا ينظر الى حق ، ولا يفزع من باطل ،وانماهمه أن يظفر بخصمه ، وذلك الخصم هو ما يدعوه أخا له فى الاسلام فى معرض التشدق بالكلام

وزد علـى ذلك أكبر بدعـــة عرضـــت على نفوس المسلمين فى اعتقادهم وهى بدعة اليأس من أنفسهم ودينهم ، وظنهمان فساد العامة لا دواء له ، وان ما نزل بهم من الضر لا كاشف له ، وانه لايمر عليهم يوم الا والثانى شر منه • مرض سرى فى نفوسهم ، وعلة تمكنت من قلوبهم ، لتركهم المقطوع به من كتاب ربهم وسنة نبيهم ، وتعلقهم بما لم يصح من الاخبار أو خطئهم فى فهم ما صح منها ، وتلك علة من أشد العلل فتكا بالارواح والعقول ، وكفى فى شناعتها قوله جل شأنه « انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون »

تبع هذه البدع جميعها واخرى يطول ذكرها هزال فى الهمم ، وضعضعة فى العـــزائم ، وفســـاد فى الاعمـــال ، يبتدىء من البيت ، وينتهى الى الامة ، ويمر فى كل طبقة ، ويجول فى

كل دائرة ، خصوصا من دوائر الحكومات ، وما يرمى به المسلمون من التعصب الدينى الاعمى ، فانمـــا عرض على أقوام فى بعض البلاد الاسلامية ، تبعا لهذه البدع الضالة ، على أننى لا اسلم انهم بلغوا فيـــه أدنى درجاتــه فى الامم المسيحية شرقية كانت أو غربية والتاريخ شاهد لايكذب

هــذا ما أصاب المســلمين فى عقولهم وعزائمهم وأعمــالهم بسبب ابتداعهم فى دينهم وخطئهم فى فهم أصوله ، وجهلهم بأدنى أبوابه وفصوله ، ولهذا ســلط الله عليهم من يسلبهم نعمة لم يقوموا بشكرها ، وينزل بهم من عقوبة الكفران ما لا قبل لهم بدفعه إلا اذا تداركهم الله بلطفه ، وقد ابتلاهم بمن يلصق بدينهم كل عيب ، ويقرنه اذا ذكره بما يتبرأ منه ، ويعده حجابا بين الامم والمدنية ، بل يعده منبع شــــقائهم وسبب فنائهم

تنبه لذلك أفراد من عقلاء المسلمين فى أواســـط القرن الماضى من سنى الهجرة فى أقطار مختلفة من بـــلاد فارس والهند وبلاد العرب ثم فى مصر ، وكل منهم بحث فى الداء ، وقدر له الدواء بحسب فهمه على تقارب بينهم ، ولعلهم يلتقون يوما عند الغاية ان شاء الله

مقصد الجميع ينحصر فى استعمال ثقة المسلم بدينــــه فى تقويم شئونه ، ويمكن أن يقال أن الغرض الذى يرمى اليه جميعهم انما هو تصحيح الاعتقاد ، وازالة ما طرأ عليــــه من الخطأ فى فهم نصوص الدين ، حتى اذا سلمت العقائد من من البدع ، تبعتها سلامة الاعمال من الخلل والاضـــــطراب ، واستقامت أحوال الافراد ، واستضاءت بصــائرهم بالعلوم الحقيقية دينية ودنيوية ، وتهذبت أخلاقهم بالملكات السليمة ، وسرى الصلاح منهم الى الامة ، فاذا سمعت داعيا يدعو الى العلم بالدين فهذا مقصده ، أو مناديا يحث على التربية الدينية فهذا

غرضه ، أو صائحا ينكر ما عليه المسلمون من المفاسد فتلك غايته ، وهذه سبيل لمريد الاصلاح في المسلمين لا مندوحة عنها، فان اتيانهم من طرق الادب والحكمة العارية عن صبغة الدين، يحوجه الى انشاء بناء جديد ليس عنده من مواده شيء ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدا واذا كان الدين كافلا بتهذيب الاخلاق وصلاح الاعمال ، وحمل النفوس على طلب السعادة من ابوابها ، ولاهله من الثقة به ما بيناه وهو حاضر لديهم ، والعناء في ارجاعهم اليه أخف من احداث مالا الما لهم به ، فلم العدول عنه الى غيره ؟

لم يخطر ببال أحد ممن يدعو الى الرجعة الى الدين ، سواء في مصر أو غيرها ، أن يثير فتنة على الاوربيين أو غيرهم من الامم المجاورة للمسلمين ، غير أن بعض المسيحيين اذا سمع قولا في الدين أعرض عن فهمه ، وأنشأ لنفسه غولا من خياله ، يخاف منه ويخشى غائلته يسميه باسم الدين ، وبعضهم يظن أنه لو انتبه المسلمون الى شئونهم ، ورجعوا الى الاخذ بالصحيح من دينهم لاعتصموا بجامعتهم ، واستعانوا على تقويم أمورهم بأنفسهم ، واستغنوا عمن أدخلوه في أعمالهم من غيرهم ،فيحرم الكثير من المسيحيين تلك المنافع التي نالوها بغفلتهم ، وهو سوء ظن من الزاعم بنفسه ، فانه بظنه هذا يعتقد أنه غاش مغرور ، وسالب متلصص ، وسوء ظن بالمسلمين أيضا ، فان أهل الوطن الواحد لا يستغني بعضهم عن بعض،مهما ارتقت معارفهم وعظم اقتدارهم على الاعمال ، وغاية الامر أن ما كان ينال اليوم بدون حق ، يصبح وهو لا ينال الا بحق ، والاجنبي الذي كان ينفق الواحد ويربح المائة ، يرجع الى الاعتدال في الكسب ، ويحتاج الى شيء من التعب في استيراد الربح ، وقد كان المسيحيون عاملين في الدول الاسلامية وهي في عنفوان قوتها،

والاجانب يطلبون الكسب فى ارجائها وهى فى أرفع مقام من عزتها.

نعم يعرض فى طريق الدعوة الى الدين على هذا الوجـه أن يلتمس مسلم بمصر معونة من مسلم آخر بسورية أو بالهند أو بالعجم أو بأفغانستان أو بغير هذه الاقطار ، لان مرض الجميع واحد ، وهو البدعة فى الدين ، فاذا نجح الدواء فى موضع ، كان السليم أسوة للمريض فى موضع آخر ، أما السـعى فى توحيد كلمة المسلمين وهم كما هم ، فلم يمر بعقل أحد منهم، ولو دعا اليه داع لكان أجدر به أن يرسـل الى مستشـفى المجانين.

يكتب بعض ارباب الاقلام من المسلمين فى حكمة الحج ويقول : انه صلة بين المسـلمين فى جميع اقطار الارض ومن أفضـل الوسائل للتعاون بينهم ، فعليهم أن يستفيدوا منه ، وهو كلام حق ، لكن لا ينبغى أن يفهم على غير وجهه ، فان الغرض منه ان يذكر المسلمون مابينهم من جامعة الدين ، حتى يستعين بعضهم ببعض على اصلاح ما فسد من عقائدهم أو أضل من أعمالهم ، وفى مدافعة ما ينزل بهم من قحط أو ظلم أو بلاء ، وهو أمر معهود عند جميع الامم التى تدين بدين واحد خصوصا عند الاوربيين.

يكثر المسلمون اليوم من ذكر الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد ويعلقون آمالهم بهمته وكثير منهم يدعو الى عقـد الولاء له وهذا أمر لا ينبغى أن يدهش أحدا فان هذه الدولة هى أكبر دول الاسلام اليوم ، وسلطانها أفخم سلاطينهم ، ومنـه يرتجى انقاذ مابين يديه من المسلمين لما حل بهم ، وهو أقدر الناس على اصلاح شئونهم ، وعلى مساعدة الداعين الى تمحيص العقائد ، وتهذيب الاخلاق ، بالرجوع الى أصول الدين الطاهرة النقية ، فأى شىء فى هذا يزعج أوربا حتى تتحد على هضـم

حقوق المسلمين اذا حدثت حوادث مثل الحوادث الماضية كما يقول مسيو هانوتو ؟

بقى الكلام على جمع السلطة الدينية والسياسية فى شخص واحد يقول فيه مسيو هانوتو ان أوربا لم تتقدم الا بعد أن فصلت السلطة الدينية من السلطة المدنية ، وهو كلام صحيح، ولكنه لم يدر ما معنى جمع السلطتين فى شخص عند المسلمين. لم يعرف المسلمون فى عصر من الاعصر تلك السلطة الدينية التى كانت للبابا على الامم المسيحية ،عندماكان يعزل الملوك ويحرم الامراء ويقرر الضرائب على الممالك ، ويصنع لها القوانين الالهية . وقد قررت الشريعة الاسلامية حقوقا للحاكم الاعلى وهو الخليفة أو السلطان ليست للقاضى صاحب السلطة الدينية ، وانما السلطان مدبر البلاد بالسياسة الداخلية والمدافع عنها بالحرب او السياسة الخارجية ، واهل الدين قائمون بوظائفهم وليس له عليهم الا التولية والعزل ، ولالهم عليه الا تنفيذ الاحكام بعد الحكم ، ورفع المظالم ان أمكن ، وهذه الدولة العثمانية قد وضعت فى بلادها قوانين مدنية ، وشرعت نظاما لطريقة الحكم، وعدد الحاكمين ومللهم ، وسمحت بأن يكون فى محاكمها أعضاء من المسيحيين وغيرهم من الملل التى تحت رعايتها ، وكذلك حكومة مصر أنشئت فيها محاكم مختلطة ومحاكم أهلية بأمر الحاكم السياسى ، وشأن هذه المحاكم وقوانينها معلوم ولا دخل لشيء من ذلك فى الدين ، فالسلطة المدنية هى صاحبة الكلمة الاولى كما يطلب مسيو هانوتو ولكن مع ذلك لم يظهر نفعها فى صلاح حال المسلمين بل كان الامر معكوسا،فان أمراءنا السابقين لو اعتبروا أنفسهم أمراء الدين لما استطاعوا المجاهرة بمخالفته فى ارتكاب المظالم والمغالاة فى وضع المغارم والمبالغة فى التبذير الذى جر الويل على بلاد المسلمين وأعدمها أعز شيء كان لديها وهو الاستقلال

ان فرنسا تسمي نفسها حامية الكاثوليك فى الشرق ، وملكة انجلترا تلقب بملكة البروتستانت ، وامبراطور الروسيا ملك ورئيس كنيسة معا ، فلم لايسمح للسلطان عبد الحميد أن يلقب بخليفة المسلمين أو أمير المؤمنين ؟

لا اظن أن مسيو هانوتو يسيء الظن بدعوة دينية على الوجه الذى بيناه ، وأظنه يكون عونا للمسلمين على تعضيدها فى البلاد الاسلامية الفرنسية اذا وجد فيها من يقوم بها ، وأنا أضمن له بعد ذلك أن تتفق مصالح المسلمين مع مصالح الفرنسيين ، فان المسلمين اذا تهذبت أخلاقهم بالدين ، سابقوا الاوربيين فى اكتساب العلوم وتحصيل المعارف ولحقوا بهم فى التمدن ، وعند ذلك يسهل الاتفاق معهم ان شاء الله

سوء ظن المسلمين بسياسة أوربا كلها ، وعدم ثقة سياسييهم بدولة من الدول ، واعتقاد المسلمين بأن مصلحة أوربا المسيحية تخالف مصلحتهم الاسلامية ، وعدم اطمئنانهم الى سياسة الدول المسيحية ، حتى أدى بهم فقدان الثقة بالمسيحيين الى حد الا يأتمنوا مسيحيا عثمانيا ولو أخلص لهم الخدمة وصدق معهم — سمع بذلك كله مسيو هانوتو من صاحب الاهرام ، ومن بعض العثمانيين فى الاستانة وباريس، ثم أخذ يبرهن على أن سياسة أوربا اقتصادية ملكية ، لا دينية لاهوتية

لا أدرى من هم المسلمون الذين وصفهم مسيو هانوتو ، ومن أبلغه أخبارهم : أهم الهنود وهم فى حكم دولة أجنبية ، ولا نزال نرى فى خطبهم وجرائدهم ما يدل على طاعتهم لحكامهم ، وتعليقهم الآمال بعدلهم ، والتماسهم الحق من طرقه ؟

هل هم مسلمو الروسيا ، وثقتهم بحكومتهم أو ثقة حكومتهم بهم لا تخفى على أحد ، حتى أن الدولة الروسية

نفضلهم على المسيحيين من غير المذهب الارثوذكسى ؟

هل هم الافغانيون واخلاص أميرهم فى مصـافاة الانكليز اشـهر من ان يذكر ، ولاينفى اخلاصه حرصه على بلاده ، ومحافظته على مصلحتها ؟

هل هم الفرس واستنامتهم الى السياسـة الروسـية لايجهلها أحد ؟

هل هم التونسيون ، وقد اثنى عليهم مسيو هانوتو بما هم اهله ، وثبت له ارتياحهم الى السلطة الفرنسية لمجرد انها اطلقت لهم الحرية فى دينهم ؟

لعله لم يقصد الا العثمانيين كما يدل عليه بقية كلامه وكما يفيده قوله انهم لاياتمنون مسـيحيا عثمانيا ، والعثمـانيون منهم المصريون ومنهم غـيرهم ، فاما المصريون فلا شىء عندهم يدل على عدم الثقة بالاوربيين وبالمسيحيين العثمانيين ، فانهم يشاركون فى العمل مواطنيهم من الاقباط فى جميع مصـالح الحكومة ، ماعدا المحاكم الشرعية الخاصـة بالمسلمين ، وهم معهم على غاية الوفاق خصوصا اهل الاخلاص وسلامة النية منهم ، ولكل من الفريقين اصدقاء واحبة من الفريق الآخر ، ثم شانهم هو ذلك الشان مع سائر الطوائف المسيحية ، الا من ظهر منهم بالتعصب البارد للدين وآذاهم فى دينهم او فى منافعهم الخاصة بهم لا لشىء سوى التعصب الاعمى ، ولا نطلب على ذلك شاهدا أقرب من صـاحب الجريدة الذى يحادثه مسيو هانوتو ، فانه بعدأن كان على المسلمين اثناء الحرب الروسـية العثمانية ، وبعـد ان أتى ما أتى عقب الحوادث العرابية ، شهد له المسلمون بأنه صديقهم والساعى فى خيرهم ، كمـا افتخر بذلك مرارا فى جريدته ، وان كانت له هنات معروفة فأين فقد هذه الثقة بالعثمانيين المسيحيين فى مصر ؟ هل طرد أحد من خدمة الحكومة لانه مسيحى عثمانى ؟ هل

حرم احد حق المحاماة أو انشاء الجرائد أو المطابع أو اقامة المصانع او تاسيس البيوت التجارية لانه مسيحي عثماني ؟ فليأت صاحبنا بشاهد واحد !

اما حالهم مع الاوربيين فانا نراهم اذا أحسوا بعدل من انكليزي ذكروه ، او وصل اليهم معروف من اى عامل اوربي شكروه ، بل أزيدك على هذا ان المستغيث منهم بالحكومة يطلب منها أن يتولى تحقيق مظلمته انكليزي ، كما شوهد ذلك كثيرا فى شكاياتهم ، وليس بقليل من يعرض شكواه على جناب اللورد كرومر وهو ليس بحاكم رسمي ، فاى دليل على الثقة اكبر من هذا ؟

ليس بقليل فى مصر من يثق بالفرنسيين ومن له بينهم اصدقاء يركن اليهم ويعتد بولائهم ، ومسيو هانوتو وصاحب الجريدة يعرفان ذلك

كثيرا ماأغرى الاوربيون من فرنسيين وأمريكيين من أرباب المدارس فى مصر شبانا من المسلمين بالمروق من دينهم والدخول فى الديانة المسيحية ، وفروا ببعضهم من القطر المصرى الى البلاد الاجنبية ، وأحرقوا اكباد آبائهم ، ومع ذلك لانزال نرى المسلمين يرسلون أولادهم الى مدارسهم ، وناظر المعارف عندنا وزير مسلم وأولاده يتربون في مدارس الجزويت ، وكثير من أبناء الاعيان فى مدارس الفرير فأى ائتمان يفوق هذا الائتمان ؟

زادت ثقة المصريين من المسلمين بالاوربيين خصوصا فى المعاملات حتى أساء أولئك الاوربيون استعمالها ، وانتهزوا فرصتها ، وسلبوا كثيرا من أهل الثروة ماكان بأيديهم ، ومع ذلك فهم لايزالون يامنونهم ، ويغالون فى الاستنامة اليهم ، ويقلدونهم فيما يخالف دينهم وعوائدهم ، فماذا يطلب من الثقة فوق هذا ؟

هل يشكو عقلاء المسلمين فى مصر من شيء مثل مايشكون من الثقة العمياء بالاجنبى ، من غير تمييز فيما هو عليه من اخلاص ، أو غش ، من صدق أو كذب ، من امانة او خيانة ، من قناعة أو طمع ، حتى آل الامر بالناس الى ماآلوا اليه من خسارة المال وســوء الحال !! فهل هذا هو فقد الثقة بالاوربيين والعثمانيين المسيحيين الذى يعنيه حضرة صاحب الاهرام وجناب مسيو هانوتو ؟!

واما العثمانيون من غير المصريين فاذا ارتقينا الى الدولة وسلطانها ايده الله ، وجدنا أن نظام الدولة قاض باستخدام المسيحيين فى اداراتها ومحاكمها فى كل بلد فيه مسيحيون ، والمأمورون من المسيحيين ينالون من النياشين والرتب ماينالهالمســلمون على نســبة عددهم او فوق ذلك ، وكثــير من المسيحيين نالوا من الامتيازات والمنافع فى الدولة مالم ينله مسلم ، وســـــفارات الدولة ومناصــبها العالية لاتخلو من المسيحيين

اقبال السلطان على رؤســاء الطوائف المسيحية وانعامه عليهم بوســامات الشرف ، واختصاصـــه لبعضهم بشرف المثول فى حضرته ، والاحسان اليه برقيق المخاطبة لاينقطع ذكره من الجرائد ، وصاحب الجريدة التى نقلت الحديث أمثل شاهد على مثل ذلك فقد جاهر زمنا ليس بالقصير بما لاترضى الدولة بمثله ولا باقل منه من مسلم ، ثم ســـهل عليه وهو مسيحى ان يكون موضع ثقة للجناب السلطانى حتى ادناه منه وقبله فى مجلسه ، وسمع منه أمير المؤمنين تلك النصيحة المفيدة التى نشرها فى جريدته من نحو شهرين ، اثر هبوبه لنصرة مسيو هانوتو ، ثم والى عليه احسانه بالرتب والنياشين وغيرها ، فما هى الثقة ان كان هذا فقدانها ؟

اما سياسة الدولة الخارجية فالفرنســيون يشكون من

مصافاة السلطان وثقته بدولة المانيا وهي دولة مسيحية ، ولا اظنهم يشكون من ثقة اخرى بدولة اسلامية ، وكانت للدولة ثقة لاتتزعزع بالسياسة الانكليزية ، ثم حدثت حوادث اهمها نشأ من ضعف سياسة مسيو غلادستون ، فاعقبها اضطراب في تلك الثقة مدة من الزمان بحكم الضرورة ، انا نراها اليوم تتراجع ، وفي رجال الدولة من لهم ثقة بصداقة روسيا ، ويودون لو مالت اليها سياسة الدولة وهم مسلمون والذي أحب ان يعرفه مسيو هانوتو أن سياسة الدولة العثمانية مع الدول الاوربية ليست بسياسة دينية ، ولم تكن قط دينية من يوم نشأتها الى اليوم ، وانما كانت في سابق الايام دولة فتح وغلبة ، وفي أخرياتها دولة سياسة ومدافعة ، ولا دخل للدين في شيء من معاملاتها مع الامم الاوربية

▱

امبراطور المانيا جاء الى سورية للاحتفال بفتح كنيسة فبالغ السلطان في الاحتفال به الى الحد الذي اشتهر وبهر . يجيء الامراء المسيحيون من الاوربيين الى الاستانة فيلاقون من الاحتفال مالا يلاقونه في بلاد مسيحية ، وينفق في تعظيم شأنهم من المال ما المسلمون في حاجة اليه . أليس ذلك لمجاملتهم واكتساب مودتهم ؟ وهل بعد المودة الا الثقة بصاحب المودة ؟ كان يمكن للسلطان أن يكتفي بالرسميات ولايزيد عليها ، ولكن عهد في معاملته مايفوق الرسمي بدرجات ، فان سلمنا أن سياسة أوربا ليست دينية من جميع وجوهها فسياسة الدولة العثمانية مع أوربا هي كذلك ومسلموها تبع لها

فان قال قائل : ان حوادث الارمن لم تزل في ذاكرة اهل الوقت ، وينسبون وقائعها الى التعصب الديني ، بل يقولون

ان اسبابها مظالم جر اليها ذلك التعصب ، أمكن أن يجاب بان العداوة مع طائفة مخصوصة لاتدل على فقد الثقة بكل مسيحى منها ومن غيرها ، ومع ذلك فان كثيرا من الارمن فى خدمة الدولة الى اليوم ، وهم بذلك موضع ثقتها ، وهـذا وذاك يدل على الريب فيما يزعمون من ان منشأ تلك الوقائع التعصب الدينى فان المسيحيين وسواهم فى الممالك العثمانية انعم حالا من المسلمين كما شاهدناه بأنفسنا ، ولو انصف الاوربيون لأمكنهم فهم اسباب هذا الاضطراب الذى يظهر زمنا بعد زمن فى تلك الاقطار ، ولسهل عليهم أن يعرفوا ان منبعه فى اوربا لا فى آسيا

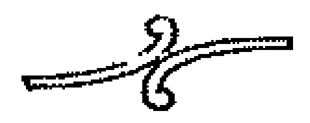
لا اغالى حين اقول أن المسيحيين فى الممالك العثمانية متمتعون بنوع من الحرية فى التعليم والتربية وسائر وجوه الخير مايتمنى المسلمون أن يساووهم فيه ، فهل هذا عنوان سوء الظن بالمسيحيين وعدم الثقة بهم ؟ لايليق بكاتب مثل صاحب الاهرام أن يروى عن المسلمين كافة مثل مارواه ، فان ذلك مما يحزن المسلمين والمسيحيين جميعا ، وانى اعتقد انه عند الكلام على المسلمين لم يكن فى ذهنه الا بعض اشخاص لم تعجبه آراؤهم فيه ، فاستحضر فى صورهم جميع المسلمين وسياسييهم

ليعلم مسيو هانوتو أن جميع مايقال له أو يكتبه بعض العثمانيين لا حقيقة له الا فى ذهن القائل أو الكاتب ، فلاينبغى أن يعول على مثله فى احكامه ، وعليه أن يحقق الامر بنفسه ان كان يهمه أن يتكلم فيه

واما أن المسلمين أخذوا عليه فيما كتب عن الاسلام مع انه خدمهم ، وقوله « فكيف بحالهم مع من لم يخدمهم » ، فنبين له الوجه فيه ليزول عنه ماسبق الى فهمه ، ولو اقتصر على الكلام فى السياسة ، وبحث فى علاقة المسلمين

مع حكومته ولم يتناول الدين نفسه فى أصلين من أهم أصوله ، لما أخذ عليه أحد الا من ينتقد رأيه من جهة ماهو صحيح أو غير صحيح ، ولكنه لم يكتف بذلك وطعن فى عقيدة التوحيد ، وبين رداءة أثرها فى المسلمين ، واستل سلاحه على عقيدة القدر ، وبين سوء ماجرت اليه فيهم ، وهو بذلك يثبت أن المسلمين لايزالون منحطين ماداموا مسلمين ، وهو مالايرضاه أحد منهم

لو مال على المسلمين فيما هم عليه اليوم وفى انحرافهم عن أصول دينهم ، واكتفى بتعنيفهم على اهمالهم لشئونهم ، وغفلتهم عن مصلحتهم ، كما جاء فى حديثه الذى نحن بصدده ، لما وجد من المسلمين الا معتبرا بقوله متعظا بنصيحته والسلام



أصول الإسلام

الاسلام وأصوله

للاسلام فى الحقيقة دعوتان : دعوة الى الاعتقاد بوجود الله وتوحيده ، ودعوة الى التصديق برسالة محمــد صلى الله عليه وسلم

فأما الدعوة الاولى فلم يعول فيهــا الا على تنبيه العقــل البشرى وتوجيهه الى النظر فى الكون واســتعمال القيــاس الصحيح والرجوع الى ما حواه الكون من النظام والترتيب ، وتعاقد الاسباب والمسببات ليصل بذلك الى أن للكون صانعا واجب الوجود عالما حكيما قادرا ، وان ذلك الصــانع واحــد لوحدة النظام فى الاكوان . وأطلق للعقل البشرى أن يجرى فى سبيله الذى سنته له الفطرة بدون تقييد فنبهه الى أن خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهــار وتحريك الرياح على وجه يتيسر للبشر ان يستعملها فى تسخير الفلك لمنافعه ، وارسال تلك الرياح لتثير السحاب فينزل من السحاب ماء فتحيا به الارض بعد موتها وتنبت ماشاء الله من النبــــات والشجر ، مما فيه رزق الحى وحفاظ حياته ــ كل ذلك من آيات الله عليه أن يتدبر فيها ليصل الى معرفته

ثم قد يزيده تنبيها بذكر أصـــل للكون يمكن الوصول الى شىء منه بالبحث فى عوالمه ، فيذكر ما كان عليه الامر فى أول خلق الســموات والارض كما جاء فى آية : (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون) ونحــوها من الآيات . وهــو اطلاق لعنان العقــل ليجرى شــوطه الذى قدر له فى طريق

الوصول الى ما كانت عليه الاكوان ، وقد يزيد التنبيه تأثيرا فى ايقاظ العقل ما يؤيد ذلك من السنة ، كما جاء فى خبر من سأل النبى صلى الله عليه وسلم وآله : أين كان ربنا قبل السموات والارض ؟ فأجابه عليه السلام : « كان فى عماء تحته هواء » (١) والعماء عندهم السحاب . فنرى القرآن فى مثل هذه المسألة الكبرى لايقيد العقل بكتاب ، ولايقف به عند باب ، ولا يطالبه فيه بحساب ، فليقرأ القارىء القرآن يغننى من سرد الآيات الداعية الى النظر فى آيات الكون : (أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وماخلق الله من شىء) ؟. (وآية لهم الارض الميتة احييناها واخرجنا منها حبا فمنه يأكلون) . (ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم والوانكم) وامثال ذلك . فلو اردت سرد جميعها لأتيت بأكثر من ثلث القرآن بل من نصفه فى مقالى هذا

يذكر القرآن اجمالا من آثار الله فى الاكوان تحريكا للعبرة، وتذكيرا بالنعمة ، وحفزا للفكرة ، لا تقريرا لقواعد الطبيعة ، ولا الزاما باعتقاد خاص فى الخليقة ، وهو فى الاستدلال على التوحيد لم يفارق هذا السبيل ، انظر كيف يقرع بالدليل (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) . (ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من اله ، اذا لذهب كل اله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون)

فالاسلام فى هذه الدعوة والمطالبة بالايمان بالله ووحدانيته لا يعتمد على شىء سوى الدليل العقلى ، والفكر الانسانى الذى يجرى على نظامه الفطرى (وهو ما نسميه بالنظام الطبيعى) فلا يدهشك بخارق للعادة ، ولا يغشى بصرك

---

(١) رواه ابن جرير الطبرى والطبرانى وابو الشيخ فى العظمة عن أبى رزين السائل (رض) والحديث من المتشابهات ولكنه يوافق ما يقوله علماء الكون فى أصل مادة العالم التى يسميها بعضهم السديم . وفى معنى الحديث قوله تعالى فى التكوين (ثم استوى الى السماء وهى دخان)

باطوار غير معتادة ، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية ، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة الهية ، وقد اتفق المسلمون — الا قليلا ممن لا يعتد برايه فيهم — على ان الاعتقاد بالله مقدم على الاعتقاد بالنبوات وانه لا يمكن الايمان بالرسل الا بعد الايمان بالله . فلا يصح أن يؤخذ الايمان بالله من كلام الرسل ولا من الكتب المنزلة فانه لا يعقل ان تؤمن بكتاب انزله الله الا اذا صدقت قبل ذلك بوجود الله وبانه يجوز أن ينزل كتابا ويرسل رسولا

وقالوا كذلك : ان أول واجب يلزم المكلف ان ياتى به هو النظر والفكر لتحصيل الاعتقاد بالله لينتقل منه الى تحصيل الايمان بالرسل وما انزل عليهم من الكتاب والحكمة

وأما الدعوة الثانية فهى التى يحتج فيها الاسلام بخارق العادة وما أدراك ما هو خارق العادة الذى يعتمد على الاسلام ، فى دعوته الى التصديق برسالة النبى عليه السلام هذا الخارق للعادة هو الذى تواتر خبره ، ولم ينقطع أثره هذا هو الدليل وحده وما عداه مما ورد فى الاخبار سواء صح سنده أو اشتهر أو ضعف أو وهى ، فليس مما يوجب القطع عند المسلمين . فاذا أورد فى مقام الاستدلال فهو على سبيل تقوية العقد لمن حصل اصله ، وفضل من التاكيد لمن سلمه من أهله

ذلك الخارق المتواتر المعول عليه فى الاستدلال لتحصيل اليقين هو القرآن وحده . والدليل على انه معجزة خارقة للعادة تدل على أن موحيه هو الله وحده وليس من اختراع البشر — هو انه جاء على لسان أمى لم يتعلم الكتاب ولم يمارس العلوم ، وقد نزل على وتيرة واحدة ،هاديا للضال مقوما للمعوج ، كافلا بنظام عام لحياة من يهتدى به من الامم منقذا لهم من خسران كانوا فيه ، وهلاك كانوا أشرفوا عليه

وهو مع ذلك من بلاغة الاسلوب على مالم يرتق اليه كلام سواه ، حتى لقد دعى الفصحاء والبلغاء أن يعارضوه بشيء من مثله فعجزوا ولجئوا الى المجالدة بالسيوف وسفك الدماء واضطهاد المؤمنين به الى أن الجئوهم الى الدفاع عن حقهم ، وكان من أمرهم ما كان من انتصار الحق على الباطل وظهور شمس الاسلام تمد عالمها باضوائها ،وتنشر انوارها فى اجوائها

وهذا الخارق قد دعى الناس الى النظر فيه بعقولهم ، وطولبوا بان يأتوا فى نظرهم على آخر ماتنتهى اليه قوتهم فان وجدوا طريقا لابطال اعجازه او كونه لا يصلح دليلا على المدعى فعليهم ان يأتوا به قال تعالى : (وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) . وقال : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) وقال غير ذلك مما هو مطالبة بمقاومة الحجة ، ولم يطالبهم بمجرد التسليم على رغم من العقل

معجزة القرآن جامعة من القول والعلم ، وكل منهما مما يتناوله العقل بالفهم ، فهى معجزة عرضت على العقل وعرفته القاضى فيها ، واطلقت له حق النظر فى أحنائها ، ونشر ما انطوى فى أثنائها ، وله منها حظه الذى لا ينتقص . فهى معجزة أعجزت كل طوق أن يأتى بمثلها ، ولكنها دعت كل قدرة أن تتناول ما تشاء منها ، أما معجزة موت حى بلا سبب معروف للموت ، أو حياة ميت ، أو اخراج شيطان من جسم ، أو شفاء علة من بدن ، فهى مما ينقطع عنده العقل ويجمد لديه الفهم ، وانما يأتى بها الله على يد رسله لاسكات أقوام غلبهم الوهم ، ولم يضيء عقولهم نور العلم ، وهكذا يقيم الله بقدرته من الآيات للأمم على حسب الاستعدادات

ثم أن الاسلام لم يتخذ من خوارق العادات دليلا على ان

الحق لغير الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولم ترد فيه كلمة واحدة تشير الى ان الداعين اليه يمكنهم أن يغيروا شيئا من سنة الله في الخليقة ، ولا حاجة الى بيان ذلك فهو أشهر من ان يحتاج الى تعريف

الاصل الاول للاسلام

النظر العقلي لتحصيل الايمان : فأول أساس وضع عليه الاسلام هو النظر العقلي . والنظر عنده هو وسيلة الايمان الصحيح ، فقد أقامك منه على سبيل الحجة وقاضاك الى العقل ، ومن قاضاك الى حاكم فقد أذعن الى سلطته ، فكيف يمكنه بعد ذلك ان يجور او يثور عليه ؟

بلغ هذا الاصل بالمسلمين ان قال قائلون من اهل السنة : ان الذى يستقصى جهده في الوصول الى الحق ثم لم يصل اليه ومات طالبا غير واقف عند الظن فهو ناج . فأية سعة لا ينظر اليها الحرج اكمل من هذه السعة ؟

الاصل الثانى

تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض : أسرع اليك بذكر اصل يتبع هذا الاصل المتقدم قبل أن انتقل الى غيره : اتفق أهل الملة الاسلامية الا قليلا ممن لا ينظر اليه على انه اذا تعارض العقل والنقل اخذ بمادل عليه العقل ، وبقى في النقل طريقان : طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه ، وتفويض الامر الى الله في علمه ، وطريق تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما اثبته العقل .

وبهذا الاصل الذى قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبى صلى الله عليه وسلم مهدت بين يدى العقل كل سبيل ، وأزيلت من سبيله جميع العقبات ، واتسع له المجال الى غير

حد ، فماذا عساه أن يبلغ نظر الفيلسوف حتى يذهب الى ماهو أبعد من هذا ؟ واى فضاء يسع أهل النظر وطلاب العلوم ان لم يسعهم هذا الفضاء ؟ ان لم يكن فى هـذا متسع لهم فلا وسعتهم أرض بجبالها ووهادها ولا سماء باجرامها وابعادها

الاصل الثالث

البعد عن التفكير : هلا ذهبت من هذين الاصلين الى ماأشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم وهو اذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الايمان من وجه واحد حمل على الايمان ، ولايجوز حمله على الكفر ، فهل رأيت تسامحا مع أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من هذا ؟ وهل يليق بالحكيم ان يكون من الحمق بحيث يقول قولا لا يحتمل الايمان من وجه واحد من مائة وجه ؟ اذا بلغ به الحمق هذا المبلغ كان الاجدر به أن يذوق حكم محكمة التفتيش البابوية ويؤخذ بيديه ورجليه فيلقى فى النار

الاصل الرابع

الاعتبار بسنن الله فى الخلق : يتبع ذلك الاصـل الاول فى الاعتبار ـ وهو الا يعول بعد الانبياء فى الدعوة الى الحق على غير الدليل ، والا ينظر الى العجائب والغرائب وخوارق العـادات ـ أصـل آخـر وضـع لتقويم ملـكات الانفس القائمة على طريق الاسلام واصلاح أعمالها فى معاشها ومعادها ـ ذلك هو أصل العبرة بسنة الله فيمن مضى ومن حضر من البشر وفى آثار سيرهم فيهم . فمما جاء فى الكتاب العزيز مقررا لهذا الاصل : (لقد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ـ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولن تجد لسنتنا تحويلا ـ فهل ينظرون الا سنة الاولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله

تحـويلا) ـــ (أو لم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) الخ

فى هذا يصرح الكتاب ان لله فى الامم والاكوان سننا لا تتبدل والسنن الطرائق الثابتة التى تجرى عليهـا الشئون وعلى حسبها تكون الآثار ، وهى التى تسمى شرائع أو نواميس ، ويعبر عنها قوم بالقوانين . مالنا ولاختلاف العبارات ؟ الذى ينادي به الكتاب ان نظام الجمعية البشرية وما يحدث فيهـا هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل ، وعلى من يطلب السعادة فى هذا الاجتماع ان ينظر فى أصول هذا النظام حتى يرد اليهـا اعماله ويبنى عليها سيرته وما يأخذ به نفسه . فان غفل عن ذلك غافل فلا ينتظرن الا الشقاء ، وان ارتفع الى الصالحين نسبه ، او اتصل بالمقربين سببه . فمهما بحث الناظر وفكر ، وكشف وقرر ، وأتى لنا بأحكام تلك السنن ، فهو يجرى مع طبيعة الدين ، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه ، ولا تنفر منه ، فلم لا يعظم تسامحها معه ؟

جاء الاسلام لمحو الوثنيةعربية كانت او يونانية او رومانية او غيرها ، فى أى لباس وجدت ، وفى اية صورة ظهـرت وتحت أى اسم عرفت ، ولكن كتابه عربي والعربية لغة أولئك الوثنيين أعدائه الاقربين . وفهم معناه موقوف على معرفة أوضاع اللسان ولاتعرف أوضاعه حتىتعرف مواضع استعمال كلمه وأساليبه ، ولن يكون ذلك الا بحفظ ما نطق به العرب من منظوم ومنثور ، وفيـه من آدابهم وعاداتهم واعتقاداتهم ما يعيد عند الناظر فى كلامهم صورة كاملة من جاهليتهم ، وما فيهـا من الوثنية وأطوارها . هـكذا صنع المسلمون الاولون ـ ركبوا الاسفار ، وانفقوا الاعمار ، وبذلوا الدرهم والدينار ، فى جمع كلام العرب وحفظه وتدوينه وتفسيره ، توسلا بذلك الى فهم كتابهم المنزل فـكانوا يعدون ذلك ضربا من ضروب

العبادة ، يرجون من الله فيه حسن المثوبة ، فكان من طبيعة الدين الا يحتقر العلم الذى ولد هو فيه . بل قد يكون من الدين علم ماليس منه(١) متى حسنت النية فى تناوله وهذا باب من التسامح لايقدر سمته الا اهل العلم به واما المسيحيون الاولون فقد هجروا لسان المسيح عليه السلام سريانيا كان أو عبرانيا (أو آراميا) وكتبوا الاناجيل باللغة اليونانية ولم يكتب بالعبرية الا انجيل متى ، فيما يقال . الا ترى أن أسم الانجيل نفسه يونانى ؟ كل ذلك كراهة لليهود الذين كان ينطق المسيح بلسانهم ويعظهم بلغتهم وتحرجا من النظر فى دواوين آدابهم ، وما توارثوا من عاداتهم

الاصل الخامس

قلب السلطة الدينية : أصل من أصول الاسلام انتقل اليه — وما اجله من اصل — قلب السلطة الدينية والاتيان عليها من اساسها

هدم الاسلام بناء تلك السلطة ومحا أثرها حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم . لم يدع الاسلام لاحد بعد الله ورسوله سلطانا على عقيدة أحد ولا سيطرة على ايمانه على أن الرسول عليه السلام كان مبلغا ومذكرا لا مهيمنا ولا مسيطرا ، قال الله تعالى : « فذكر انما انت مذكر * لست عليهم بمسيطر » ولم يجعل لاحد من أهله أن يحل ولا أن يربط لا فى الارض ولا فى السماء . بل الايمان يعتق المؤمن من كل رقيب عليه فيما بينه وبين الله سوى الله وحده ، ويرفع عنه كل رق الا العبودية لله وحده، وليس لمسلم — مهما علا كعبه فى الاسلام — على آخر — مهما انحطت منزلته فيه — الا حق

---

(١) أى قد يعد الاسلام من الدين الذى يتقرب به الى الله — الاشتغال بعلم غير دينى بنية صالحة كنفع الناس به

النصيحة والارشاد. قال تعالى فى وصف المفلحين : « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » وقال : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . وقال : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » . فالمسلمون يتناصحون ثم هم يقيمون أمة تدعو الى الخير ــ وهم المراقبون عليها ــ يردونها الى السبيل السوى اذا انحرفت عنه . وتلك الامة ليس لها عليهم الا الدعوة والتذكير والانذار والتحذير ، ولا يجوز لها ولا لاحد من الناس أن يتتبع عورة احد . ولا يسوغ لقوى ولا لضعيف أن يتجسس على عقيدة أحد وليس يجب على مسلم ان يأخذ عقيدته أو يتلقى أصول ما يعمل به عن أحد الا عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم

لكل مسلم أن يفهم عن الله من كتاب الله وعن رسوله من كلام رسوله ، بدون توسيط أحد من سلف ولا خلف وانما يجب عليه قبل ذلك أن يحصل من وسائله ما يؤهله للفهم ، كقواعد اللغة العربية وآدابها وأساليبها وأحوال العرب خاصة فى زمان البعثة وما كان الناس عليه زمن النبى صلى الله عليه وسلم . وما وقع من الحوادث وقت نزول الوحى ، وشىء من الناسخ والمنسوخ من الآثار . فان لم تسمح له حالته بالوصول الى ما يعده لفهم الصواب من السنة والكتاب فليس عليه الا أن يسأل العارفين بهما وله بل عليه أن يطالب المجيب بالدليل على ما يجيب به سواء كان السؤال فى أمر الاعتقاد أو فى حكم عمل من الاعمال

فليس فى الاسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه

السلطان فى الاسلام

لكن الاسلام دين وشرع ، فقد وضع حدودا ، ورسم حقوقا ، وليس كل معتقد فى ظاهر امره بحكم يجرى عليه فى عمله . فقد يغلب الهوى . وتتحكم الشهوة . فيغمط الحق . ويتعدى المعتدى الحد . فلا تكمل الحكمة من تشريع الاحكام الا اذا وجدت قوة لاقامة الحدود وتنفيذ حكم القاضى بالحق . وصون نظام الجماعة . وتلك القوة لا يجوز أن تكون فوضى فى عدد كثير فلابد أن تكون فى واحد وهو السلطان أو الخليفة

الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم . ولا هو مهبط الوحى ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة . نعم شرط فيه أن يكون مجتهدا أى أن يكون من العلم باللغة العربية وما معها — مما تقدم ذكره — بحيث يتيسر له أن يفهم من الكتاب والسنة ما يحتاج اليه من الاحكام ، حتى يتمكن بنفسه من التمييز بين الحق والباطل ، والصحيح والفاسد ، ويسهل عليه اقامة العدل الذى يطالبه به الدين والأمة معا

هو — على هذا — لا يخصه الدين فى فهم الكتاب والعلم بالاحكام بمزية ، ولا يرتفع به الى منزلة ، بل هو وسائر طلاب الفهم سواء ، انما يتفاضلون بصفاء العقل ، وكثرة الاصابة فى الحكم (١) ثم هو مطاع مادام على المحجة ونهج الكتاب والسنة

---

(١) من شواهد ذلك ارتفاع قدر العلماء على الخلفاء الذين قصروا عنهم فى الفهم والعلم ، الم يأتك نبأ الامام مالك مع الخليفة هرون الرشيد رحمهما الله ! وكيف أنزل الامام الخليفة عن المنصة واقعده مع العامة عند القاء الدرس ، لانه فى رتبة المستفيد

والمسلمون له بالمرصاد ، فاذا انحرف عن النهج اقاموه عليه واذا اعوج قوموه بالنصيحة والاعذار اليه (١) « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » (٢) فاذا فارق الكتاب والسنة فى عمله وجب عليهم ان يستبدلوا به غيره ما لم يكن فى استبداله مفسدة تفوق المصلحة فيه (٣) .

فالامة أو نائب الامة هو الذى ينصبه والامة هى صاحبة الحق فى السيطرة عليه وهى التى تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها فهو حاكم مدنى من جميع الوجوه

ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الافرنج (ثيوقراطى) أى سلطان الهى فان ذلك عندهم هو الذى ينفرد بتلقى الشريعة عن الله وله حق الاثرة بالتشريع وله فى رقاب الناس حق الطاعة ، لا بالبيعة ، وما تقتضيه من العدل وحماية الحوزة بل بمقتضى الايمان فليس للمؤمن مادام مؤمنا أن يخالفه ، وان اعتقد أنه عدو لدين الله ، وشهدت عيناه من أعماله مالا ينطبق على مايعرفه من شرائعه ، لان عمل صاحب السلطان الدينى وقوله فى أى مظهر ظهرا هما دين وشرع ، هكذا كانت سلطة الكنيسة فى القرون الوسطى . ولا تزال الكنيسة تدعى الحق فى هذه السلطة كما سبقت الاشارة اليه

كان من أعمال التمدن الحديث الفصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية فترك للكنيسة حق السيطرة على الاعتقاد والاعمال فيما هو من معاملة العبد لربه : تشرع وتنسخ ما تشاء ، وتراقب وتحاسب كما تشاء ، وتحرم وتعطى كما تريد ، وخول السلطة المدنية حق التشريع فى معاملات الناس

---

(١) من شواهد ذلك قول الخليفةابى بكر رضى الله عنه فى خطبته « وان زغت فقومونى » (٢) حديث رواه البخارى ومسلم وغيرهما

(٣) مثال ذلك أن يكون له عصبيةاقوى من الامة يخشى ان يبيدها بها . ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح

بعضهم لبعض ، وحق السيطرة على ما يحفظ نظام اجتماعهم ، في معاشهم لا في معادهم ، وعدوا هذا الفصـــل منبعـا للخير الاعم عندهم

ثم هم يهمون فيما يرمون به الاسـلام من أنه يحتم قرن السلطتين في شخص واحد . ويظنون ان معنى ذلك في راى المسلم ان السلطان هو مقرر الدين ، وهو واضع احكامه وهو منفذها ، والايمان آلة في يده يتصرف بها في القلوب بالاخضاع وفي العقول بالاقناع ، وما العقل والوجـدان عنـده الامتاع ، ويبنون على ذلك أن المسلم مستعبد لسلطانه بدينه وقد عهدوا أن سلطان الدين عندهم كان يحارب العلم ، ويحمى حقيقة الجهل ، فلا يتيسر للدين الاسلامى ان يأخذ بالتســامح مع العلم مادام من أصوله أن اقامة السلطان واجبة بمقتضى الدين وقد تبين لك أن هـذا كله خطأ محض وبعد عن فهم معنى ذلك الاصل من أصول الاسلام . وعلمت أن ليس في الاسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة ، والدعوة الى الخير والتنفير عن الشر ، وهي سلطة خولها الله لادنى المسلمين يقرع بها أنف اعلاهم ، كما خولها لاعلاهم يتناول بها من أدناهم ، ومن هنا تعلم « الجامعة » ان مسالة السلطان في دين الاسلام ليست مما يضيق به صدره ، ولحرج به نفسه عن احتمال العلم . وقد تقدم ما يشير الى ما صنع الخلفـاء العباسيون والامويون الاندلسيون من صنائع المعروف مع العلم والعلماء . وربما أتينا على شيء آخر منه فيما بعد

يقولون : ان لم يكن للخليفة ذلك السلطان الديني أفلا يكون للقاضي أو المفتى أو شيخ الاسلام ؟ واقول : ان الاســلام لم يجعل لهؤلاء أدنى سلطة على العقائد وتقرير الاحكام ، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية قررها الشرع الاسلامى ، ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعى حق السيطرة على

ايمان أحد أو عبادته لربه ، او ينازعه فى طريق نظره

الاصل السادس

حماية الدعوة لمنع الفتنة : قالوا ان الدين الاسلامى دين جهادى شرع فيه القتال ولم يكن شرع فى الدين المسيحى ، ففى طبيعة الدين روح الشدة على من يخالفه ، وليس فيهما ذلك الصبر والاحتمال اللذان تقضى بهما شريعة المسالمة ، وهى الشريعة التى وردت فى كثير من الوصايا المسيحية « من ضربك على خدك الايمن فأدر له خدك الاخر ، من سخرك ميلا فسر معه ميلين » (متى ٥ : ٣٩ ، ٤٠) ونحو ذلك ، حتى لقد طلبت فيها محبة العدو وهى مما لا يدخل تحت الاختيار بل ولا محبة الصديق ، وانما الاختيارى العدل بين الاعداء والاولياء . لكن فى ملكوت الله كل شىء مستطاع ولا شىء فيه بمستحيل

قلنا : لكن انظروا هل دفع الشر بالشر عند القدرة عليه وعند عدم التمكن من سواه خاص بالدين الاسلامى أو هو فى طبيعة كل قادر يعذر الى خصمه ؟ ليس القتل فى طبيعة الاسلام بل فى طبيعته العفو والمسامحة : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ولكن القتال فيه لرد اعتداء المعتدين على الحق وأهله الى أن يأمن شرهم ، ويضمن السلامة من غوائلهم ، ولم يكن ذلك للاكراه على الدين ولا للانتقام من مخالفيه ، ولهذا لا تسمع فى تاريخ الفتوح الاسلامية ماتسمعه فى الحروب المسيحية ، عندما اقتدر أصحاب «شريعة المسالمة» على محاربة غيرهم من قتل الشيوخ والنساء والاطفال (١)

لم تقع حروب اسلامية بقصد الابادة كما وقع كثير من

---

١ ــ لعل مايحدث اليوم فى الجزائرمن الفرنسيين وفى كينيا من الانجليز خير شاهد على ذلك

الحروب بهذا القصد بأيدى المسيحيين . وانما كان الصبر والمسالمة دينا عند ما كانت القــدرة والقوة تعوزان الدين . وغاية مايقال ان العنــاية الالهيــة منحت الاسلام فى الزمن القصير من القوة على مدافعة أعدائه ما لم تمنحه لغيره فى الزمن الطويل . فتيسر له فى شبيبته مالم يتيسر لغيره الا فى كهولته أو شيخوخته



فى الحرب والسلم

الاسـلام الحربى كان يكتفى من الفتـح بادخال الارض المفتوحة تحت سلطانه ثم يترك النـاس وما كانوا عليـه من الدين ، يؤدون ما يجب عليهم فى اعتقادهم كمـا شـاء ذلك الاعتقاد ، وانما يكلفهم بجزية يدفعونها لتكون عونا على صيانتهم والمحافظة على امنهم فى ديارهم ، وهم فى عقائدهم ومعابدهم وعاداتهم بعد ذلك أحرار لا يضايقون فى عمل ، ولا يضامون فى معاملة . وكان خلفاء المسلمين يوصون قوادهم باحترام العباد الذين انقطعوا عن العامة فى الصوامع والاديار لمجرد العبادة ، كما كانوا يوصونهم باحترام دماء النساء والاطفال ، وكل من لم يعن على القتال . جاءت السنة المتواترة بالنهى عن ايذاء اهل الذمة وبتقرير مالهم من الحقوق على المسلمين « لهم مالنا وعليهم ما علينا » و « من آذى ذميافليس منا » (١) . واستمر العمل على ذلك ما استمرت قوة الاسلام . ولست أبالى اذا انحرف بعض المسلمين عن هذه الاحكام ، عندما بدأ الضعف فى الاسلام ، — وضيق الصدر من طبع الضعيف — فذلك مما لا يلصق بطبيعته ، ويخلط بطينته

المسيحية السلمية كانت ترى لها حق القيام على كل دين يدخل تحت سلطانها تراقب أعمال أهـله وتخصـهم دون الناس بضروب من المعاملة لا يحتملها الصبر مهما عظم . حتى

---

١ — ورد بهـذا المعنى أحاديث فى الصحاح والسنن وايذاء الذمى والمعاهد محـرم بالاجماع وروى الخطيب من حديث ابن مسعود « من آذى ذميا فانا خصمه ومن كنت خصمه ، خاصمته يوم القيامة »

اذا تمت لها القدرة على طردهم ، بعد العجز عن اخراجهم من دينهم وتعميدهم ، أجلتهم عن ديارهم ، وغسلت الديار من آثارهم ، كما حصل ويحصل فى كل ارض استولت عليها أمة مسيحية استيلاء حقيقيا

لا يمنع غير المسيحى من تعدى المسيحى الا كثرة العدد ، او شدة العضد ، كما شهد التاريخ ، وكما يشهد كاتبوه . ذلك كله لانه ماجاء ليلقى سلاما بل سيفا ، ولانه جاء ليفرق بين البنت وامها والابن وأبيه (١) والاسلام يقول كتابه فى شأن الوالدين المشركين : « وان جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلاتطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب الى » فهو فى اشتداده على المهدين لامته لا يقضى بالفرقة بين أب وابن ولا بين أم وبنت ، بل يأمر الاولاد المؤمنين أن يصحبوا الوالدين المشركين بالمعروف فى الدنيا مع محافظتهم على دينهم

---

١ ــ هذا نص انجيل متى فى هذا.ومثله قول انجيل لوقا ١٤ ــ ٢٥ و٢٦ « وقال لهم «يسوع » ان كان احد يأتى الى ولا يبغض أباه وامه وامرأته وأولاده واخوته واخواته حتى نفسه أيضا فلايقدر ان يكون لى تلميذا » وفى الباب ١٩ من هذا الانجيل مانصه « ٢٧ أما أعدائى أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم فأتوا بهم الى هنا واذبحوهم قدامى »واما أسفار التوراة فقد جاء فيها نحو ذلك فى القسوة على الاهلين المخالفين وعلى سائر المحاربين . قال فى ١٣ : ٦ من سفر تثنية الاشتراع « واذا غواك سرا أخوك ابن امك او ابنك او ابنتك او امرأة حضنك أو صاحبك الذى مثل نفسك قائلا : نذهب ونعبد آلهة اخرى لم تعرفها انت ولا آباؤك آلهة الشعوب القريبين منك او البعيدين عنك من اقصاء الارض الى أقصائها فلا ترض منه ولا تسمع له ولا تشفق عينك عليه ولا ترق له ولاتستره بل قتلا تقتله . الخ »

وفى سفر التثنية أيضا « ٢٠ : ١٠ ــ ١٦ » مانصه « حين تقرب من مدينة لتحاربها ادعها الى الصلح فان اجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك ، وان لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، واذا دفعها الرب الهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، واما النساء والاطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كلها غنيمتها فتغتنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التى اعطاك الرب الهك ، وهكذا تفعل بجميع المدن البعيدة جدا منك التى ليست من هؤلاء الامم هنا ، وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب الهك نصيبا فلا تستبق منهم نسمة ما »

فأنت ترى الاسلام من جهة يكتفى من الامم والطوائف التى يغلب على أرضها بشيء من المال اقل مما كانوا يؤدونه من قبل تغلبه عليهم ، وبأن يعيشوا فى هدوء لا يعكرون معه صفو الدولة ولا يخلون بنظام السلطة العامة . ثم يرخى لهم بعد ذلك عنان الاختيار فى شئونهم الخاصة بهم ، ولا رقيب عليهم فيها الا ضمائرهم . ومن جهة اخرى ينهى افراد المؤمنين عن مقاطعة ذوى قرباهم من المشركين ، ويطالبهم بحسن معاملتهم ففى طبيعته أن يكل أمر الناس فى سرائرهم الى ربهم ، وفى طبيعته أن يجير من لا يعتقد عقيدته ، ويحمى من لا يتبع سنته ، وان كان فى عمى من الجهالة ، وخبل من الضلالة

أفترى انه يصعب عليه بعد ذلك أن يحتمل العلم والعلماء ، ويضيق به حلمه عن صنع الجميل بالفضل والفضلاء ، ممن ينفق عمره فى تقرير حقيقة ، أو كشف غامض او تبيين طريقة ؟ كلا ثم كلا ، فمن بحث ونقب ، وسبر ونقر ، أو شق الارض او ارتقى الى السماء ، فهو فى أمن من أن يعرض الاسلام له فى شيء من عمله ، الا إن يحدث شغبا ، أو يفسد أدبا ، فعند ذلك تمتد يد الملك لرد كيد الكائد ، واصلاح الفاسد بسماح من الدين

الاصل السابع

مودة المخالفين فى العقيدة

المصاهرة : اباح الاسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية ، نصرانية كانت أو يهودية ، وجعل من حقوق الزوجة الكتابية على زوجها المسلم أن تتمتع بالبقاء على عقيدتها ، والقيام بفروض عبادتها ، والذهاب الى كنيستها أو بيعتها ، وهى منه بمنزلة البعض من الكل ، والزم له من الظل ، وصاحبته فى العز والذل ، والترحال والحل ، بهجة قلبه ، وريحانة نفسه ، واميرة بيته ، وأم بناته وبنيه ، تتصرف فيهم كما تتصرف فيه

لم يفرق الدين فى حقوق الزوجية ، بين الزوجة المسلمة والزوجة الكتابية . ولم تخرج الزوجة الكتابية باختلافها فى العقيدة مع زوجها من حكم قوله تعالى « ومن آياته أن جعل لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون» فلها حظها من المودة، ونصيبها من الرحمة ، وهى كما هى . وهو يسكن اليها كما تسكن اليه ، وهو لباس لها كما انها لباس له . أين أنت من صلة المصاهرة التى تحدث بين أقارب الزوج وأقارب الزوجة وما يكون بين الفريقين من الموالاة والمناصرة على ما عهد فى طبيعة البشر ؟ وما أجلى ما يظهر من ذلك بين الاولاد واخوالهم وذوى القربى لوالدتهم ، أيغيب عنك ما يستحكم من ربط الالفة بين المسلم وغير المسلم بأمثال هذا التسامح ، الذى لم يعهد عند من سبق ولا فيمن لحق من أهل الدينين السابقين عليه ؟ ولا يخفى على صحيح النظر أن تقرير التسامح على هذا الوجه فى نشأة الدين مما يعود القلوب على الشعور بأن الدين معاملة بين العبد وربه ، والعقيدة طور من أطوار القلوب يجب أن يكون أمرها بيد علام الغيوب ، فهو الذى يحاسب عليها ، وأما المخلوق فلا تطول يده اليها ، وغاية ما يكون من العارف بالحق أن ينبه الغافل ، ويعلم الجاهل ، وينصح الغاوى ، ويرشد الضال . لا يكفر فى ذلك نعمة العشير ، ولا يسلك به مسالك التعسير ، ولا يقطع أمل النصير ، ولا يخالف سنة الوفاء ، ولا يحيد عن شرائع الصدق فى الولاء

ماذا ترى فى الزوجة الكتابية لو كانت من أهل النظر العقلى وذهبت مذهبا يخالف مذهب زوجها ؟ أفينقص ذلك من مودته لها ؟ أو يضعف من شعور الرحمة التى أفاضها الله بينه وبينها ؟ فاذا كان المسلم يتعود الاحتمال ، بل يتعود المحبة والنصرة لمن يخالفه فى عقيدته ودينه وملته ، ويألف مخالطته

وعشرته وولايته ونصرته ، أتراه لا يحتمل أن يرى بجواره من يعمل نظره فى نظام الخليقة ليصل منه الى اكتشاف سر او تقرير اصل فى علم ، او قاعدة لصناعة ؟ ان كان قد يخالف ظاهرا مما يعتقد ، او يميــل الى راى غير الذى يجــد ؟ أفلا يسع هذا ما يسع المجاهر بالخلاف ، وهو معه على ما رأيت من الائتلاف ؟

لو ذهبت أعد مافى طبيعة الاسلام من عناصر وأركان كلهــا تؤلف مزاج الكرم ، وتكون حقيقة المسامحة مع العلم لاطلت على القارىء اكثر مما أطلت . ولهــذا أرى من الواجب على ان أختم القول بذكر اصل أشرت اليه ولا غنى لما نحن فيــه عن ذكره

الاصل الثامن

الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة

الصحة : الحياة فى الاسلام مقدمة على الدين . أوامر الحنيفيـة الســمحة ان كانت تختطف العبــد الى ربه ، وتملأ قلبه من رهبه ، وتفعم أمله من رغبه ، فهى مع ذلك لاتأخذه عن كسبــه ، ولا تحرمه من التمتع به ، ولا توجب عليه تقشف الزهادة ، ولا تجشمه فى ترك اللذات ما فوق العادة .

صاحب هذا الدين صلى‌الله عليه وسلم لم يقل « بع ماتملك واتبعنى » ولكن قال لمن استشاره فيما يتصدق به من مال « الثلث ، والثلث كثير ، انك ان تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس »

الرخص : فرض الصوم على المؤمنين لكن اذا خشى منــــه المرض أو زيادته او زادت المشقة فيه جاز تركه ، بل قد يجب اذا غلب على الظن الضرر فيه

الوضوء أو الغسل من شروط الصحة للصلاة الا اذا خشى

منه الضرر أو عرضت مشقة فى تحصيل الماء

القيام مما لا تصح الصلاة الا به الا اذا اصابت المصلى مشقة فيه فيسقط ، ويصلى قاعدا

السعى الى الجمعة واجب الا اذا كان هناك وحل غزير ، او مطر كثير ، أو مايوجب تعبا ومشقةفيسقط . وهكذا تجد القاعدة قد عمت « صحة الابدان ، مقدمة على صحة الاديان » فترى الدين قد راعى فى أحكامه سلامة البدن كما أوجب العناية بسلامة الروح

الزينة والطيبات : أباح الاسلام لاهله التجملبأنواع الزينة والتوسع فى التمتع بالمشتهيات ، على شريطة القصد والاعتدال وحسن النية ، والوقوف عند الحدود الشرعية ، والمحافظة على صفاتالرجولة ، جاء فى الكتاب العزيز « يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لايحب المسرفين * قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون * قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله مالا تعلمون » (سورة الأعراف)

ثم عد الله النعيم والجمال والزينة من نعمه علينا التى يذكرنا بها فضله ، ويهيج بها نفوسنا لذكره وشكره ، كما قال : « والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون * وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس * ان ربكم لرءوف رحيم * والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون » ثم قال « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر

فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » سورة النحل

الاقتصاد : ووضع قانونا للانفاق وحفظ المال فى قوله : « ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا * ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » سورة الاسراء

النهى عن الغلو فى الدين : وخشى على المؤمن ان يغلو فى طلب الاخرة فيهلك دنياه وينسى نفسه منها فذكرنا بما قصه علينا ان الاخرة يمكن نيلها مع التمتع بنعم الله علينا فى الدنيا اذ قال « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا واحسن كما احسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الارض * ان الله لا يحب المفسدين » سورة القصص

فترى ان الاسلام لم يبخس الحواس حقها ، كما انه هيأ الروح لبلوغ كمالها . فهو الذى جمع للانسان اجزاء حقيقية واعتبره حيوانا ناطقا لا جسمانيا صرفا ولا ملكوتيا بحتا ، جعله من اهل الدنيا كما هو من اهل الآخرة . واستبقاه من اهل هذا العالم الجسدانى ، كما دعاه الى ان يطلب مقامه الروحانى . أليس يكون بذلك وبما بينه فى قوله (هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا) قد اطلق القيد عن قواه ، لتصل من رفه الحياة « مع القصد » الى منتهاه ؟ والنفوس مطبوعة على التنافس قد غرز فيها حب التسابق فيما تعتقده خيرا أو تجده لذيذا او تظنه نافعا

وليس فى الغريزة الانسانية أن يقف بها الطلب عند حد محدود او ينتهى بها السعى الى غاية لا مطلع للرغبة وراءها ، بل خصها الله بالمكنة من الرقى فى اطوار الكمال من جميع وجوهه الى ما شاء الله أن ترقى بدون حد معروف

فاذا جمع سائق الانفس ومزجيها ومرشدها وهاديها ، بين

شاحذين ، شاحذ التمتع بمتاع الحياة الدنيا ، وشاحذ الرغبة في النعيم الدائم في الآخرة ، فقد جمع لها كل ما يسمو بها عن الرضاء في الدنيا بالدون وفي الاخرة بعذاب الهون ، فترى كل نفس تمضي مع استعدادها بشهامة فؤادها مضاء الزميع لا تخشى العثرة بالوعيد ، ولا تقعد عن مطلبها قعدة الرعديد فتطلب منافعها من هذا الكون الذى وجدت فيه ووجد لها ، فتسير في مناكب الارض ولا تكتفي عن الكل بالبعض ، وتبحث في تربتها ، ولا يقفبها ظاهرها عن باطنها ، ولايحجبها ظهرها عن مد يدها الى ما في جوفها ، ولا تجد ما يصدها عن النظر في الهواء ، والبحث في الماء ، والاهتداء بنجوم السماء بعد معرفة مواقعها وحركاتها في مداراتها واستقامتها وانحرافها وظهورها وخنوسها ، وبالجملة فكل مستعد لوجه من وجوه النظر أو الولوج في باب من أبواب العلم . ينطلق الى حيث يبلغ به استعداده اما للنجاة من ضرورة واما لاستتمام منفعة أو استكمال لذة ، لا يجد من نواهي الدين ما يصده عن مطلب ، ولا ما يكف يده عن تناول رغيبة اين هذا من ذلك الذى لا يرى الخلاص الا في مجافاة هذا العالم ولذائذه ، ويجد ان الغنى والثروة من الحجب التى لا تخرق ، تجول بينه وبين ملكوت السموات .

كيف يتسنى للمسلم ان يشكر الله حق شكره ، اذا لم يضع العالم بأسره تحت نظر فكره لينفذ من ظاهره الى سره ، ويقف على قوانينه وشرائعه ، ويستخدم كل ما يصلح لخدمته في توفير منافعه ؟ كيف يشكر الله اذا توانى في ذلك وقد ارشده الله في كتابهوبسنة نبيهالى أن عالمه انما خلق لاجله،وقدوضعه الله تحت تصرف عقله ؟ انظر الى لطف الاشارة في الآية المتقدمة « قل من حرم زينة الله » الخ حيث قال : (كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) فاهل العلم هم الذين يعرفون مقدار نعم

الله تعالى فيما يرفه به معيشتهم ، ويجمل به هيئتهم ، ويجلى به زينتهم

المسلمون مسوقون بنابل من دينهم الى طلب ما يكسبهم الرفعة والسؤدد والعزة والمجد ، ولا يرضيهم من ذلك مادون الغاية ، ولا يتوفر شيء من وسائل ذلك الا بالعلم — فهم محفوزون اشد الحفز الى طلب العلم وتلمسه فى كل مكان ، وتلقيه من اية شفة واى لسان فاذا لاقاهم العالم فى اى سبيل، او عثروا به فى اى جيل ، او ظهر لهم من اى قبيل ، هشوا له وبشوا ، ونصبوا اليه وكمشوا وشدوا به اواصرهم ، وعقدوا عليه خناصرهم ، ولا يبالون ماتكون عقيدته ، اذا نفعتهم حكمته « الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها » الم يأتهم عن ربهم : (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر الا اولو الالباب) الم يسمعوا فى وصفهم قوله : (الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه)

ذلك شأن المسلم مع العلم اذا كان مسلما حقا ، وذلك ما تنجر اليه طبيعة دينه ، وحديث «اطلبوا العلم ولو بالصين» (١) ان كان فى سند لفظه الى النبى صلى الله عليه وسلم مقال فسند معناه متواتر فانه سند القرآن نفسه ، فان الله يفضل العلم واهل العلم بدون قيد ولا تخصيص ، فالمسلم مطالب بطلب العلم ولو فى الصين ولو لم يكن فى الصين مسلم على عهد النبى صلى الله عليه وسلم

لا شيء ينقلب عند النفس الانسانية لذة بنفسه ، وان كان فى اول أمره مطلوبا لغيره ، مثل العلم ، تطلب العلم اولا لحاجتك اليه فى تقويم معيشة ، او ترفيه حال او دفاع عن نفس وملة،

---

(١) رواه ابن عدى فى الكامل ، والبيهقى فى شعب الايمان والمدخل ، وابن عبد البر فى العلم ، والخطيب فى الرحلة (؟) والديلمى فى مسند الفردوس ، وغيرهم وله طرق كثيرة يقوى بعضها بعضا

ثم لاتلبث اذا أوغلت فيه أن تجد اللذة في العلم نفسه ، فتصير اللذة بتحصيله والوصول الى دقائقه غاية تقصد بنفسها وتضمحل فيها كل غاية سواها ، وعلة ذلك ظاهرة فان العلم مسرح نظر العقل ، والعقل قوة من افضل القوى الانسانية ، بل هي افضلها على الحقيقة ، وقد وضع لها العليم الحكيم لذة ، كما منح لكل قوة سواها نعيما ولذة ، ولست في حاجة الى تعديد لذة البصر أو السمع أو الشم او الذوق أو اللمس فالحيوان يعرفها بله الانسان ، وكلما عظم اختصاص القوة بالنوع عظمت لذته باستعمالها فيما وجهت له ، فيمكنك ان تستنتج من ذلك أن لاشيء عند الانسان الذ من كشف المجهول، واحراز المعقول وقد سمح الاسلام للمسلم أن يتمتع في هذه الحياة الدنيا بما يلذ له مع القصد والاعتدال . افلا يكون من لذائذه ومتممات نعيمه أن يسيح في مملكة العلم ليمتع عقله كما يسيح في بسيط الارض ليكسب رزقه ويقيت اهله ؟ على ان العلم كان من ضرورات معيشة المسلم اوحاجياتها كماذكرنا فاذا طفق يستنبط ماءه للضرورة ، ويستجلي سناءه للحاجة ، فلا يلبث ان يصير هو حاجة نفسه ، وشاغله عن حاجات حسه حتى يدخل معه في رمسه ، كما وقع لكثير من المسلمين .
قال امام جليل من ائمتهم « طلبنا العلم لغير الله فأبى ان يكون الا لله »

نتائج هذه الاصول

الى اين افضت طبيعة الاسلام بالمسلمين ؟ وماذا كان اثرها في اسلافهم الاولين ؟ فتح عمرو بن العاص رضى الله عنه مصر واستولى بجيشه على الاسكندرية بعد لحاق النبى صلى الله عليه وسلم بالرفيق الاعلى بست سنوات فى رواية ، وتسع سنوات فى رواية اخرى،والاسلام فى طلوع فجره وتفتح نوره. فكان من بقايا ما تركت الازمان الاولى رجل مسيحى من اليعقوبيين اسمه يوحنا النحوى ، كان فى بدء امره ملاحا يعبر الناس بسفينته وكان يميل الى العلم بطبيعته ، فاذا ركب معه بعض أهل العلم أصغى الى مذاكرتهم ثم اشتد به الشوق فترك الملاحة واشتغل بالعلم وهو ابن ٤٠ سنة فبلغ فيه مالم يبلغه الناشئون فيه من طفولتهم ، وقد أحسن من العلم فنونا كثيرة حتى عد من فلاسفة وقته وأطبائه ومناطقته

يقول كثير من مؤرخى الغربيين ومؤرخى المسلمين : ان عمرو ابن العاص سمع به فاستدناه منه واكرمه لعلمه ، ووقعت بينهما محبة ظهر أمرها واشتهر حتى قال أحد فلاسفة الغربيين : (ان المحبة التى نشأت بين عمرو بن العاص فاتح مصر ويوحنا النحوى ترينا مبلغ ما يسمو اليه العقل العربى من الافكار الحرة والرأى العالى ، بمجرد ما أعتق من الوثنية الجاهلية ودخل فى التوحيد المحمدى أصبح على غاية من الاستعداد للجولان فى ميادين العلوم الفلسفية والادبية من كل نوع)

خالط المسلمون أهل فارس وسورية وسواد العراق

وادخلوهم فى اعمالهم ولم يمنعهم الدين عن استعمالهم حتى كانت دفاترهم بالرومية فى سورية ولم تغير بالعربية الا بعد عشرات من السنين فاحتكت الافكار بالافكار ، وافضت سماحة الدين الى ان اخذ المسلمون فى دراسة العلوم والفنون والصنائع



اشتغال المسلمين

بالعلوم الأدبية والعقلية

اشتغالهم بالعلوم الادبية

بعد ٢٠ سنة من وفاته عليه الصلاة والسلام أخذ الخليفة علي بن أبى طالب كرم الله وجهه يحض على تعليم الاداب العربية ويطلب وضع القواعد لها لما رأى من حاجة الناس الى ذلك ، وأخذ المسلمون يتحسسون نور العلم فى ظلام تلك الفتن استرسالا مع ما يدعوهم اليه دينهم ، وتنبههم لطلبه شريعتهم ، وان كانت الحروب الداخلية التى اشتعلت نارها فى أطراف بلادهم للنزاع فى أمر الخلافة قد شغلتهم عن كل شيء من مصالحهم ، فانها لم تشغلهم عن تلمس العلوم والتناول منها بالتدريج على سنة الفطرة ، فالبراعة فى الآداب : من علم بوقائع العرب وتاريخهم ، وقول الشعر ، وانشاء البليغ من النثر ، قد بلغت فى خلافة بنى أمية مبلغا لم تبلغه أمة قط فى مثل مدتها ، وكان الخلفاء الامويون يعلون منزلتها ، ويرفعون مكانات الشعراء والخطباء والعلماء بالسير ، ثم ظهرت آثار العلوم العقلية فى آخر دولتهم ، وترجمت جملة من الكتب العقلية والصناعية قبل نهاية القرن الاول

نقل الخلفاء الامويون دار الخلافة من المدينة الى الشام ولم يسيروا فى الزهد سيرة الخلفاء الراشدين، فقد جاء رسول من الفرس الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فلما سأل عنه دل عليه فذهب اليه فاذا هو نائم على الارض تحت نخل البقيع بين الفقراء ، وجاءت رسل الملوك الى معاوية رحمه الله فاذا هو فى قصر مشيد محلى البنيان بأجمل ما يكون من الصنعة

العربية مزين بالجنات والرياض وينابيع المساء ، مفروش بأحسن الفرش ، يرى الناظر فيه أفخر الاثاث والرياش ، ولم يكن معاوية فى ذلك قد خالف الدين أو حاد عن طريقه ، وانما تناول مباحا ، وتمتع برخصة آتاه الله اياها ، ولا يخفى ما فى ذلك من ترويج فنون الابداع فى الصنعة على اختلاف ضروبها

اشتغالهم بالعلوم الكونية

انقضت دولة بنى امية والناس فى ظلمات من الفتن كما قلنا ودالت الدولة لبنى العباس واستقرت فى نصابها من آل بيت النبى قرب نهاية الثلث الاول من القرن الثانى للهجرة (سنة ١٣٢) ثم نقل المنصور عاصمة الملك الى بغداد فصارت بعد ذلك عاصمة العلم والمدنية ايضا ، واخذ المنصور ايضا ينشىء المدارس للطب والشريعة ، وكان قد جعل من زمنه ما ينفقه فى تعلم العلوم الفلكية ، واكمل حفيده الرشيد ماشرع فيه وامر بأن يلحق بكل مسجد مدرسة لتعليم العلوم بأنواعها ، وجاء المأمون فوصلت به دولة العلم الى أوج قوتها ، ونالت به أكبر ثروتها ، ويقال انه حمل الى بغداد من الكتب المكتوبة بالقلم ما يثقل مائة بعير ، وكان من شروط صلحه مع ميشيل الثالث ان يعطيه مكتبة من مكاتب الاستانة فوجد مما فيها من النفائس كتاب بطليموس فى الرياضة السماوية فأمر المأمون فى الحال بترجمته وسموه بالمجسطى ، ولا يسهل على كاتب احصاء ماترجم من كتب العلوم على اختلافها فى دولة بنى العباس أبناء عم الرسول صلى الله عليه وسلم

انشاؤهم دور الكتب

وقد اخذت دول الاسلام تعتنى بدور الكتب عناية لم يسبقها مثلها من دول سواها ، حتى كان فى القاهرة فى أوائل القرن

الرابع مكتبة تحتوى على مائة الف مجلد ، منها ستة آلاف فى الطب والفلك لاغير . وكان من نظامها أن تعار بعض الكتب للطلبة المقيمين فى القاهرة ، وكان فيهما كرتان سماويتان (احداهما) من الفضة يقال ان صانعها بطليموس نفسه وانه انفق فيها ثلاثة آلاف دينار (والثانية) من البرنز . ومكتبة الخلفاء فى اسبانيا بلغ ماقيها ستمائة ألف مجلد وكان (فهرسها) اربعة وأربعين مجلداً . وقد حققوا انه كان فى اسبانيا وحدها سبعون مكتبة عمومية ، وكان فى هذه المكاتب مواضع خاصة للمطالعة والنسخ والترجمة

وبعض الخاصة كانوا يولعون بالكتب ويجعلون دورهم معاهد دراسة لما تحتوى عليه . يقال ان سلطان بخارى دعا طبيبا اندلسيا ليزوره فأجابه أن ذلك لا يمكنه لان كتبه تحتاج الى أربعمائة جمل لتحملها وهو لا يستغنى عنها كلها . وكان حنين بن اسحاق النسطورى فى بغداد ممن جعل فى داره مكتبة عامة يفد اليها طلاب العلوم العقلية والرياضية وكان يتبرع بمذاكرتهم فيما يريدون المذاكرة فيه

انشاؤهم المدارس للعلوم

غطى بسيط المملكة الاسلامية على سعتها بالمدارس . نقول « على سعتها » لانها زادت فى السعة على المملكة الرومانية بكثير ، فكنت تجد المدارس فى كل الاقطار : فى المغول ، فى التتار ، من جهة المشرق . فى مراكش ، فى فاس ، فى أسبانيا من جهة المغرب

وكانت طريقة الاساتذة فى التدريس ان كل مدرس يعد درسه ويكتب فى الموضوع الذى يلقى الدرس فيه مايريد أن يكتب ، ثم يلقيه على التلامذة وهم يكتبون عنه ثم تكون هذه الدروس كتبا وأمالى تنشر بين الناس فى كل علم . وهنا نبادر الى القول بأن المؤرخين قد أجمعوا على ان جميع المقالات

والكتب كانت تنشر ويتداولها الناس بدون أدنى مراقبة ولا حجر ولا نقص شيء مما كتب صاحب الكتاب ، غير أن مؤرخا واحدا رأيته ذكر أنه قد وضع قانون فى بعض الممالك الاسلامية لنشر كتب العقائد مقتضاه ألا ينشر منهـا شيء الا بإذن ، على انى لا أعلم شيئا من ذلك وقع فى الممالك الاسلامية أيام كان الاسلام اسلاما

نرجع الى الكلام فى المدارس الاسلامية : يقول : (جيبون) فى كلامه على حماية المسلمين للعلم فى الشرق وفى الغرب : « ان ولاة الاقاليم والوزراء كانوا ينافسون الخلفاء ، فى اعلاء مقام العلم والعلماء ، وبسط اليد فى الانفاق على اقامة بيوت العلم ومساعدة الفقراء على طلبه ، وكان من اثر ذلك أن ذوق العلم ووجدان اللذة فى تحصيله قـد انتشر فى نفوس الناس من سمرقند وبخارى الى فاس وقرطبة . أنفق وزير واحد لاحد السلاطين (هو نظام الملك) مائتى الف دينار على بناء مدرسة فى بغداد وجعل لها من الريع الذى يصرف فى شئونها خمسة عشر الف دينار فى السنة ، وكان الذين يغذون بالمعارف فيها ستة آلاف تلميذ فيهم ابن اعظم العظماء فى المملكة ، وابن افقر الصناع فيها ، غير ان الفقير ينفق عليه من الريع المخصص للمدرسة وابن الغنى يكتفى بمال أبيه ، والمعلمون كانوا ينقدون رواتب وافرة »

انقسمت الممالك الاسلامية فى زمن من الازمان الى ثلاثة أقسام وتنازع الخلافة ثلاث شيع كان العباسيون فى آسيا (الشرق) والامويون فى الاندلس من أوربا (الغـرب) والفاطميون فى مصر من أفريقيا (الوسط) ولم يكن تنافس هذه الدول الثلاث مقصورا على الملك والسلطان ، ولكن كان التنافس أشد التنافس فى العلم والآدب ، وكان مرصـد سمرقند قائما فى ناحية الشرق يشير الى ماكان عليه المشرقيون

من العناية برياضة الافلاك ، ومرصد جيرالد في الاندلس يجيبه بأن أهل المغرب ليسوا بأحط منهم في الادراك

جميع المدارس في البلاد الاسلامية اخذت نظام الامتحان في المدارس الطبية عن مدرسة الطب في القاهرة ، وكان من أشد النظامات وادقها ، ولم يكن لطبيب أن يمارس صناعته الا على شريطة أن تكون بعد شهادة بأنه فاز في الامتحان على شدته ، وأول مدرسة طبية انشئت في قارة أوربا على هذا النظام المحكم هي التي انشأها العرب في (سالرن) من بلاد ايطاليا وأول مرصد فلكي أقيم في أوربا هو الذي أقامه العرب في اشبيلية من بلاد اسبانيا

ولع المسلمون بالعلوم الكونية على اختلافها ، والفنون الادبية بجميع أنواعها ، حتى القصص والاساطير الخيالية ، في الاحوال الاجتماعية ، وابتدءوا باخذ العلم عن اليونانية والسريانية ، واخذوا ينقلون كتب الاولين من تلك الالسن الى اللغة العربية بالترجمة الصحيحة . وكان مترجموهم في أول الامر مسيحيين وصابئين وغيرهم ، ثم تعلم كثير من علماء المسلمين اللسان اليوناني واللاتيني وكتبوا معاجم في اللسانين وذلك كله ليأخذوا العلوم من اصولها ، وينقلوها الى لسانهم على حسب مايصل اليه علمهم فيها . وكان المعلمون لابناء العظماء في أول الامر من المسيحيين واليهود ، ثم أنشئت المدارس الجامعة وكان المدرسون فيها من كل ملة ودين ، كل يعلم العلم الذى عرف هو بالبراعة فيه

علوم العرب واكتشافها

كان علم العرب في أول الامر يونانيا ، ولكنه لم يلبث كذلك الا دون قرن واحد ثم صار عربيا ، ولم يرض العربي أن يكون تلميذا لارسطو وافلاطون او اقليدس أو بطليموس زمنا طويلا كما بقى الاوربي كذلك عشرة قرون كاملة من التاريخ المسيحى

قالوا : أن (باكون) هو أول من جعل التجربة والمشاهدة قاعدة للعلوم العصرية أو اقامها مقام الرواية عن الاساتذة والتمسك بآراء المصنفين ، وأطلق العلم من رق التقليد . ذلك حق فى اوربا واما عند العرب فقد وضعت هذه القاعدة عندهم لبناء العلم عليها فى أواخر القرن الثانى من الهجرة

أول شيء تميز به فلاسفة العرب عمن سواهم من فلاسفة الامم هو بناء معارفهم على المشاهدات والتجربة ، والا يكتفوا بمجرد المقدمات العقلية فى العلوم مالم تؤيدها التجربة ، حتى لقد نقل جوستاف لوبون عن احد فلاسفة الاوربيين أن القاعدة عند العرب هى « جرب وشاهد ولاحظ تكن عارفا » وعند الاوربى الى ما بعد القرن العاشر من التاريخ المسيحى « اقرا فى الكتب وكرر ما يقول الاساتذة تكن عالما » فلينظر المصريون وغيرهم من الشرقيين كيف انقلبت الحال ، وماذا أعقب من سوء المآل

قال (ديلامبر) فى تاريخ علم الهيئة « اذا عددت فى اليونانيين اثنين أو ثلاثة من الراصدين أمكنك أن تعد فى العرب عددا كبيرا غير محصور » واما فى الكيمياء فلا يمكنك أن تعد مجربا واحدا عند اليونانيين ، ولكنك تعد من المجربين مئين عند العرب . ولهذا عدت الكيمياء الحقيقية من اكتشاف العرب دون سواهم . وقد كانوا يعدون الهندسة والفنون والرياضة من الآلات المنطقية ، يستعملونها فى الاستدلال على القضايا النظرية ، وهى من اصدق الادلة فى الايصال الى المجهولات كما هو معروف

والعرب هم أول من استعمل الساعات الدقاقة للدلالة على اقسام الزمن ، وهم اول من اتقن استعمال الساعات الزوالية لهذا الغرض

وقد اكتشفوا قوانين لثقل الاجسام جامدها ومائعها حتى

وضعوا لها جداول فى غاية الدقة والصحة ، كما وضعوا جداول للارصاد الفلكية ، وكانت تلك الجداول معروفة يطلع عليها الناظرون فى سمرقند وبغداد وقرطبة حتى لقد وصلوا بتلك القوانين الى مايقرب من اكتشاف الجاذبية

ولا يمكنني فى مقالي هذا ان أعد ما اكتشف العرب ولا ما زادوه فى العلوم على اختلاف انواعها فذلك يحتاج الى سفر كبير ، وقد احصى ذلك أهل المعرفة والانصاف من فلاسفة الاوربيين ومؤرخيهم ، وربما يتيسر لابناء الامة العربية أن ينشروا ذلك لاخوانهم حتى يعرفوا ما كان عليه أسلافهم ، ولكنني اذكر كلمة قالها بعض حكماء الغربيين (١)

« تأخذنا الدهشة احيانا عندما ننظر فى كتب العرب فنجد آراء كنا نعتقد انها لم تولد الا فى زماننا ، كالرأى الجديد فى ترقى الكائنات العضوية وتدرجها فى كمال انواعها ، فان هذا الراى كان مما يعلمه العرب فى مدارسهم وكانوا يذهبون به الى أبعد مما ذهبنا ، فكان عندهم عاما يشمل الكائنات غير العضوية والمعادن . والاصل الذى بنيت عليه الكيمياء عندهم هو ترقى المعادن فى اشكالها . قال الخازنى اذا سمع الشعب الجاهل ما يقال بين العلماء : ان الذهب قد تقلب فى الاشكال المختلفة حتى صار ذهبا ظن من هذا انه مر فى صور معادن اخرى فكان رصاصا ثم قصديرا ثم صفرا ثم فضة ثم صار بعد ذلك ذهبا ولا يعلم ان الفلاسفة اذا قالوا ذلك فانما يقصدون منه ما أرادوه من قولهم فى الانسان انه وصل الى حالته الحاضرة بالتدريج ومن طريق الترقى وهم لم يعنوا بقولهم هذا أنه تقلب فى صور الانواع المختلفة كأن كان ثورا ثم حمارا ثم فرسا ثم قردا ثم صار بعد ذلك انسانا »

ويقول الفيلسوف جوستاف لبون : « ان العرب أول من

(١) هو الفيلسوف درابر الامريكاني

عام العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين ؟

وهنا انكر على بعض فلاسفتهم ما نقلوه عن ابن رشد من أنه ذهب فى حرية الرأى الى نقض أصل الدين وقال : ان الروح لابقاء لها بعد فناء الجسد وانما الذى يبقى هو ارواح الانواع . فان هذا خطأ عرض لهم من سوء فهم كلامـــه فى بيان بقـــاء الانواع دون الاشخاص فانه قال كما قال ارسطو وغيره : ان الاشخاص توجد وتفنى وأما الانواع فهى باقية لا تزول : وهذا باب آخر لا يغاير بالمرة ما استنتجوا منه كما اخطئوا فى قولهم عنه انه كان يعتقد بأن الله روح العالم يظهر فى صوره والكل يرجع اليه بمعنى انه يفنى فى ذاته ولا يبقى فى العالم باق آخر . وهو يقرب من قولهم السابق . فان ابن رشد كان مسلما يعرف أن الاسلام لا ينافى العلم وانما ينافى هذا الضرب من الوهم ، الذى لم يسقط فيه أحد الا من عثرة فى طريق العلم ، أو الاسترسال مع الخيال . وكثير ممن سكروا بهذا الرأى افاقوا منه . ولكن كتب ابن رشد التى بين ايدينا تبعد بنا عن نسبة هذا الرأى اليه كما سبق بيانه ، ولكنى لا انكر نسبته لو نسب الى ابن سبعين وهو ممن اخذ عن تلاميذ ابن رشد فان فى كلامه مايدل على ذلك

ويقول فيلسوف آخر : « ان العلوم التى تلقاها العرب عن اليونانيين وغيرهم وكانت ميتة بين دفات الدفاتر ، مقبورة بين جدران المكاتب ، أو مخزونة فى بعض الرءوس كأنها احجار ثمينة فى بعض الخزائن ، لاحظ للانسانية منها سوى النظـر اليها — صارت عند العرب حياة الآداب ، وغذاء الارواح ، وروح الثروة ، وقــوام الصنعــة ، ومهمازا للقوى البشرية يسوقها الى كمالها الذى أعدت له . وليس فى الاوربيين من درس التاريخ وحكم العقل ثم ينكر ان الفضل — فى اخــراج أوربا من ظلمة الجهل الى ضياء العلم ، وفى تعليمها كيف تنظر

وكيف تتفكر وفى معرفتها ان التجربة والمشاهدة هما الاصلان اللذان يبنى عليهما العلم ـ انما هو للمسلمين وآدابهم ومعارفهم التى حملوها اليهم وادخلوها من اسبانيا وجنوب ايطاليا وفرنسا عليهم . وكان من حظ العلم العربى والادب المحمدى عندما دخلاالى ايطاليا ان البابا كان غائبا لان كرسيه كان قدانتقل الى فرنسا فى افنيون نحو سبعين سنة فدب العلم الى شمال ايطاليا واستقر به القرار هناك ، ان شوارع باريس لم تفرش بالحجارة الا فى القرن الثانى عشر وقد رصت بالبلاط على نحو مارصت به مدن اسبانيا » اهـ

ويقول آخر : « لا ادرى كيف اعطانا الاسلام فى مدة قرنين عددا من الفلكيين يطول سرد افراده وان الكنيسة تسلطت على العالم المسيحى اثنى عشر قرنا فى اوربا ولم تمنحنا فلكيا واحدا »

هذا النماء والزكاء العلمى لم يكن خاصا بطائفة دون طائفة بل كان الناس فى التمكن من تناوله سواء ، وانما كان التفاضل بالجد والعمل ، والفضل فى ذلك كله لحلم الخلفاء واعمالهم وسماحة الدين ويسره وسهولته على اهله واهل ذمته ، قال بعض فلاسفة الغربيين قولا يعرفه الحق وتثبته المشاهدة : « ان شعوب الارض لم ترقط فاتحا بلغ من الحلم هذا المبلغ (يريد فاتحى الاسلام على اختلافهم) ولا دينا بلغ فى لينه ولطفه هذا الحد »

تشجيع العلم والعلماء

ان الخلفاء الذين يقال عنهم انهم رؤساء دين وحكام سياسة معا كانوا هم بأنفسهم المتعلمين للعلوم الداعين الى تعلمها ، كانوا العالمين العاملين . كان خليفة كالمأمون يضطهد احيانا اعداء الفلسفة ، وقد عرف التاريخ كثيرين من ارباب الشهرة الذين قضوا فى سجنه الشهور او السنين ، لانهم كانوا يعادون

الفلسفة ظنا منهم أن منها ما يعدو على الدين فيفسده ، هل رايت فى غير الاسلام رئيسا دينيا يضطهد أعداء العلم وجفاة الفلسفة ؟ لعلك لا تجده ابدا

كان اهل العلم والادب عامة يجدون من الاحترام عند الخلفاء والامراء والخاصة ما يليق بهم كيفما كانت حالهم ، واضرب المثل بالشيخ ابى العلاء المعرى ، لشهرته بين الناس بما يشبه الزندقة

يذكر على بن يوسف القفطى أن صالح بن مرداس — صاحب حلب — خرج الى المعرة وقد عصى أهلها عليه ، فنازلها وشرع فى حصارها ورماها بالمنجنيق ، فلما أحس أهلها بالغلب ، سعوا الى ابى العلاء بن سليمان وسألوه أن يخرج ويشفع فيهم ، فخرج ومعه قائد يقوده فاكرمه صالح واحترمه ، ثم قال : الك حاجة ؟ قال : الامير — أطال الله بقاءه — كالسيف القاطع لان مسه ، وخشن حده ، وكالنهار البالغ ، قاظ وسطه وطاب برده (خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين) فقال له صالح : قد وهبتها لك ، ثم قال : أنشدنا شيئا من شعرك لنرويه ، فانشده على البديهة ابياتا فيه ، فترحل صالح . فانظر كيف وهب الامير بلدا عصى أهله لفيلسوف معروف بما هو عنه معروف

ولو ذكرت مانال العلماء والفلاسفة عند الامراء والخلفاء لطال بى المقال اكثر مما طال ، وفيما سبق كفاية لمكتف

ازالة شبهتين

قد يتوهم قوم ان الاضطهاد قد يظهر فى مقت العامة وخلقهم ما يخلقون من المفتريات على اهل العلم والفكر الحر ، وهمس بعضهم فى آذان بعض ، وتغامزهم على أهل الفضل ، ولمزهم اياهم بالالقاب ، بل واحتقارهم فى بعض الاحيان . وهذا النوع منه عند المسلمين بلا نكير . وهو خطأ ظاهر

لان هذا النوع ــ ممن يكره اهل العلم ــ لا تخلو منه أرض ولا تطهر منه بلاد مهما بلغ أهلها من الحرية ، ومهما بلغ ذوق العلم من نفوس أهلها ، فان القائمين على عقيدة الكاثوليك الى اليوم فى ارض فرنسا نفسها يمقتون الفلاسفة الذين يظهرون بمعاداة للكنيسة ، ويكتبون مايوهن قواعدها وقد يختلق عليهم أحزاب الكاثوليك مالم يقولوه ، ويرون أن النظر فى كتبهم لا يجوز فى شريعة الدين ، ونحن لا نرتاب فى أن نحو هذا كان عند المسلمين أيام كانت سوق الفلسفة رائجة عندهم ، ولكنه ليس من الاضطهاد فى شيء ، وانما هى نفرة الانسان مما لا يعرف ، مع ترك صاحبه وشأنه يمضى فى سبيله الى حيث يشاء

يقول آخرون : ان التاريخ يروى لنا أن بعض أرباب الافكار قد أخذه السيف لغلوه فى فكره ، فلم يترك له من الحرية ما يتمتع به الى منتهى ما يبلغ به ، وليس يصح أن ينكر ماصنع الخليفة المنصور وغيره بالزنادقة

واقول : ان كثيرا من الغلو اذا انتشر بين العامة أفسد نظامها واضطرب امنها ، كما كان من آراء الحلاج وأمثاله (١) فتضطر السياسة للدخول فى الامر لحفظ أمن العامة ، فتأخذ صاحب الفكر ، لا لانه تفكر ولكن لانه لم يرد أن يقصر حق الحرية على شخصه ، بل اراد أن يقيد غيره بما رآه من الحرية لنفسه ، مع ان غيره فى غنى عما يراه هو حقا له ، وتخشى الفتنة اذا استمر مدعى الحرية فى غلوائه ، فلهذا يرى حفاظ النظام أن أمثال هؤلاء يجب أن يتقى منهم المجتمع ، صونا له عما يزعزع اركانه . ونحن نرى الفلسفة اليوم تضطهد الذين هذا الضرب من الاضطهاد . ألم تقض الحكومة الفرنسية على الراهبين

---

(١) ذكر امام الحرمين فى كتابه «الشامل» فى اصول الدين انه كان بين الحلاج والجنابى رئيس القرامطة اتفاق سرى على قلب الدولة ، وان ذلك هو السبب الحقيقى فى قتل الحلاج

والراهبات أن تكون جمعياتهم ومدارسهم تحت سيطرة الحكومة ؟ والا ينشأ شيء منها الا باذن من الحكومة ، ومن لم يخضع لذلك تنحل جمعيته وتقفل مدارسه بقوة السلاح ، وقد ينفى من البلاد كما نفى كثيرون فى سنين سابقة (١) ولكن هل يسمى هذا اضطهادا ؟ كلا ، انما الاضطهاد حق الاضطهاد هو اضطهاد محكمة التفتيش واضطهاد رؤساء الاصلاح بعدها فى أول نشأتهم

ماذا يقول القائلون ؟ ان التعليم عند المسلمين كان غريبا امره ، يكاد يكون خفيا سره ، مسجد او مدرسة تابعة لمسجد، يجلس فيها للتدريس الفقيه والمتكلم والمحدث والنحوى والمتادب والفيلسوف والفلكى والمهندس ، ينتقل الطالب من بين يدى الفقيه ليجلس بين يدى الفيلسوف ، ومن مجلس الحديث الى مجلس الادب ، واذا وقعت مذاكرة بينهم فى مسألة من المسائل أخذت الحرية مأخذها فى الاقناع والالزام ، وسقطت قيمة الغلو فى التعبير ، واخذ التسامح بينهم مأخذه

كان عمرو بن عبيد رئيس المعتزلة واشدهم صلابة فى اصول مذهبه ، ومع ذلك هو من مشايخ الامام البخارى صاحب الصحيح ، وكانت له منزلة عند المنصور تعلو كل ذى منزلة عنده ، حتى قال له يوما وهو خارج من بين يديه « رميت لكل الناس حبا فلقطوا الا اياك يا عمرو بن عبيد » فانظر كيف كان لامام من ائمة السنة أن يصل سنده فى الحديث برئيس من رؤساء المعتزلة ولا يرى فى ذلك بأسا ؟

اذا عد عاد بعض رجال العلم الذين اخذتهم القسوة فى الاسلام وقتلتهم حماقة الملوك باغراء الفقهاء وأهل الغلو فى الدين ، فما عليه الا أن ينظر فى احوالهم فيقف لاول وهلة

---

(١) أغرب من هذا أن أحد الاساتذة فى جامعة أميركية قرر فيها نظرية داروين المعروفة فانكرها عليه جمهور الطلبة لمخالفتها للتوراة فطرد من المدرسة

على أن الذى أثار أولئك عليهم ليس مجرد العصبية للدين ، وان الغيرة عليه ليست هى الباعث لهم على الوشاية بهم ، وطلب تنكيلهم ، وانما تجد الحسد هو العامل الاول فى ذلك كله والدين آلة له . ولهذا لا ترى مثل ذلك الاذى يقع الا على قاضى قضاة كابن رشد (ورجوع الحاكم الى العفو عنه وانزاله منزلته دليل على ذلك) أو وزير ، أو جليس خليفة أو سلطان ، أو ذى نفوذ عظيم بين العامة . وهذا كما يقع من الفقهاء مثلا لابناء الفلاسفة ، يقع من الفقهاء بعضهم مع بعض، لاهلاك بعضهم بعضا ، كما يشهد به العيان ، ويحكى لنا التاريخ ، فليس هذا كذلك معدودا من معنى اضطهاد الدين للفلسفة ، لان التحاسد أكثر ما يقع بين من لا دين لهم على الحقيقة وان لبسوا لباسه . وانما ذلك الاضطهاد هو الذى يحمل عليه محض الاختلاف فى العقيدة أو ظن المخالفة للدين فى شىء من العلم أو العمل لضيق الدين عن أن يسع المخالف بجانبه وهذا لم يقع فى الاسلام ، اللهم الا أن يكون حادث لم يصل الينا

هذه طبيعة الدين الاسلامى عرضت عليك فى أهم عناصرها ومقومات مزاجها . وهذا كان اثرها فى العالم الشرقى والغربى وهذه سعة فضل الدين وقوته على احتمال مخالفيه وتيسيره لاولئك المخالفين ان يحتموا به متى رضوا بأن يستظلوا بظله ، هل فى هذا خفاء على ناظر ؟ وهل يرضى لبيب لنفسه ان ينكر الضوء الباهر ؟ افلا يبسم الاسلام عجبا وهو فى أشد الكرب لعقوق ابنائه ، من أديب لم يكن يعده من أعدائه ، ان لم يحسبه فى أحبائه ، عندما يراه يسدد سهمه اليه ، ويجور ، كما يجور الجائرون فى حكمه عليه ؟؟

الإسلام
في أوائل القرن العشرين

الاحتجاج بالمسلمين على الاسلام

ربما يسأل سائل فيقول : سلمنا ان طبيعة الاسلام تأبى اضطهاد العلم بمعناه الحقيقى وانه لم يقع من المسلمين الاولين تعذيب ، ولا احراق ، ولا شنق لحملة العلوم الكونية ، ومقومى العقول البشرية ، لكن أليس العلماء من المسلمين اليوم أعداء العلوم العقلية ، والفنون العصرية ، أو ليس الناس تبعا لهم ؟ أفلا يكون للاديب عذره فيما يراه ويسمعه حوله ؟ الم يسمع بأن رجلا فى بلاد اسلامية غير البـــلاد المصرية (١) كتب مقالا فى الاجتهاد والتقليد وذهب فيه الى ماذهب اليه أئمة المسلمين كافة ، ومقالا بين فيه رأيه فى مذهب الصوفية ، وقال انه ليس مما انتفع به الاسلام بل قد يكون مما رزىء به او ما يقرب من هذا ــ وهو قول قال به جمهور أهل السنة من قبله ــ فلمــا طبع مقاله فى مصر تحت اسمه هاج عليه حملة العمائم ، وسكنة الاثواب العباعب ، وقالوا : انه مرق من الدين ، او جاء بالافا المبين ، ثم رفع أمره الى الوالى فقبض عليه والقاه فى السجن فرفع شكواه الى عاصمة الملك وسأل السلطان ان يأمر بنقل الى العاصمة ليثبت براءته مما اختلق عليه ، بين يدى عادل لا يجور ، ومهيمن على الحق لايحيف ، الخ ما يقال فى الشكوى فأجيب طلبه ، لكن لم ينفعه ذلك كله ، فقد صدر الامر هناك ايضا بسجنه ولم يعف عنه الا بعد أشهر ، مع أنه لم يقل الا ما يتفق مع أصول الدين ، ولا ينكره القــارىء والكاتب ، ولا الآكل والشارب

---

(١) هذا الرجل هو السيد عبد الحميد الزهراوى الحمصى الشهير رحمه الله

الم يسمع السامعون أن الشيخ السنوسى (والد السنوسى صاحب الجغبوب) كتب كتابا فى اصول الفقه زاد فيه بعض مسائل على أصول المالكية ، وجاء فى كتاب له ما يدل على دعواه انه ممن يفهم الاحكام من الكتاب والسنة مباشرة ، وقد يرى ما يخالف رأى مجتهد أو مجتهدين . فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية (رحمه الله تعالى) وكان المقدم فى علماء الجامع الازهر الشريف (١) فحمل حربة وطلب الشيخ السنوسى ليطعنه بها لانه خرق حرمة الدين ، واتبع سبيلا غير سبيل المؤمنين ، وربما كان يجترىء الاستاذ على طعن الشيخ السنوسى بالحربة لو لاقاه وانما الذى خلص السنوسى من الطعنة ، ونجى الشيخ المرحوم من سوء المغبة ، وارتكاب الجريمة باسم الشريعة ، هو مفارقة السنوسى للقاهرة قبل أن يلاقيه الاستاذ المالكى

هل غاب عن الاذهان ما كان ينشر فى الجرائد من نحو ثلاث سنين باقلام بعض علماء الجامع الازهر من المقالات الطويلة الاذيال الواسعة الاردان ، فى استهجان ادخال علم تقويم البلدان (الجغرافية) بين العلوم التى يتلقاها طلبة الجامع الازهر ؟ وكان كتاب تلك المقالات يعرضون بمن أشار بادخال هذا العلم وغيره بين تلك العلوم وأنه انما يريد الغض من علوم الدين (٢) الم تنشر فى العام الماضى فصول باقلام بعضهم تشير الى مطعن فى عقيدة البعض الآخر وارادة التشهير به مع أنه لم يجهر بمنكر ولم يقل قولا يبعد من الكتاب والسنة ؟

الم يحمل الينا الرواة ما عند علماء الافغان والهند والعجم من شدة التمسك بالقديم ، والحرص على ماورثوا عن آبائهم الاقربين ، واقامة الحرب على كل من حاول أن يزحزحهم اصبعا عما كان عليه سلفهم ، وان كان فى البقاء عليه تلفهم ،

---

(١) هو الشيخ عليش الذى كان ينكر على السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده أيضا طريقتهما فى تحقيق المسائل الشرعية على طريقة السلف

(٢) يعنى الاستاذ بهذا نفسه فهو الذى اشار بتعليم هذه العلوم

وما عليه الحال اليوم في حكومة المغرب من الغلو في التعصب، والمعاقبة بقطع بعض الاعضاء في شرب الدخان ، أو بالقتل في كلمة ينكرها السامعون ، وان أجمع عليها المسلمون الآخرون ؟

ثم الا يتخيل المتأمل انه يسمع من جوف المستقبل صخبا ولجبا ، وضوضاء وجلبة ، وهيعات مضطربة ، اذا قيل انه ينبغي لطلبة الازهر ان يدرسوا طرفا من مباديء الطبيعة او يحصلوا جملة من التاريخ الطبيعي ؟ الا تقوم قيامة المتقين ، الا يصيحون اجمعين اكتعين ابتعين : هذا عدوان على الدين ، هذا توهين لعقده المتين ، هذا تغرير بأهله المساكين ، ولا يزالون يشيدون بهذا الى الا يبقى شيء عرف له اسم في اللغة الا الصقوه بهذه البدعة في زعمهم

هل هذه الحال جديدة على المسلمين ، حتى يقال انها عارض عرض عليهم ، او مرض من الامراض الوافدة اليهم ؟ لا يسهل على من يعرض احوال المسلمين تحت نظره من قرون متعددة ان يظن أن هذه الحال من العلل الطارئة على امزجة الامم ، خصوصا عند ما يجد الوحدة في الصفات ، والشمول في جميع الاعتبارات ، فلو أخذ مسلما من شاطيء الاطلانطيقي ، وآخر من تحت جدار الصين لوجد كلمة واحدة تخرج من فميهما وهي (انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون) وكلهم أعداء لكل مخالف لما هم عليه ، وان نطق به الكتاب ، واجتمعت عليه الآثار

اللهم الا فئة زعمت انها نفضت غبار التقليد ، وأزالت الحجب التي كانت تحول بينها وبين النظر في آيات القرآن ومتون الاحاديث ، لتفهم أحكام الله منها ، ولكن هذه الفئة اضيق عطنا واحرج صدرا من المقلدين ، وان انكرت كثيرا من البدع ، ونحت عن الدين كثيرا مما اضيف اليه وليس منه ، فانها ترى وجوب الاخذ بما يفهم من لفظ الوارد والتقيد به ،

بدون التفات الى ما تقتضيه الاصول التي قام عليها الدين ، واليها كانت الدعوة ، ولاجلها منحت النبوة ، فلم يكونوا للعلم اولياء ، ولا للمدنية السليمة احباء (١)

هل يمكن ان ينكر احد جمود الفقهاء ووقوفهم عند عبارات المصنفين على تباينها واختلافها واضطراب الآراء في فهمها واذا عرضت حادثة من الحوادث ولم يكن لمصنف معروف رأى فيها احجموا عن ابداء الراى ، واجتهدوا في تحويلها عن حقيقتها الى أن تتفق مع قول معروف في كتاب من الكتب ، ، حتى لقد جاء طالب علم من بلد من بلاد الدول العثمانية واراد الالتحاق بأحد الاروقة في الجامع الازهر فوقع الشك : هل بلده مما لاهله استحقاق في ذلك الرواق على حسب نص الواقف ؟ فقال قائل لشيخ الرواق : ان كتب تقويم البلدان تشهد بأن البلد داخل في شرط الواقف . فقال : انني لا اقتنع بما في تلك الكتب ، وانما الذي يصح ان آخذ به هو ان يكون فقيـــه (ممن مات) قال ان هذا البلد من قطر كذا ، وهو الذي وقف الواقف على أهله . واذا قيل لاحدهم : ان الائمة انفسهم لم يعينوا مواقع البلدان ولم يضعوا لنا جدولا لبيان ما يحـويه كل قطر وبيان الحدود التي ينتهي اليها ، وان اصول ديننـــا تسمح لنا بأن نأخذ بأقوال العلماء في هذه الفنون (وهم منا) وبتواتر الاخبار وما اشبه ذلك من البديهيات قال : انما اريد نصا فقهيا ، لا دليلا عقليا

واذا قيل لهم : اختلت الشئون ، وفسدت الملكات والظنون، وساءت أعمال الناس ، وضلت عقائدهم ، وخوت عباداتهم من روح الاخلاص ، فوثب بعضهم على بعض بالشر ، وغالت اكثرهم أغوال الفقر ، فتضعضعت القوة ، واخترق السياج ، وضاعت

---

(١) انه يعني بهذه الفئة الوهابيين ، فهو يحمد منهم ترك البدع والاهتداء بالسنن وتقديم الاثر ، على آراء البشر ، ولكنه ينكر عليهم ضيق العطن دون العناية بما ارشدت اليه النصوص من علوم الاكوان ، ومقدمات المدنية والعمران

البيضة ، وانقلبت العزة ذلة ، والهداية ضلة ، وساكنتكم الحاجة ، وألفتكم الضرورة ، ولا تزالون تألمون مما نزل بكم وبالناس ، فهلا نبهكم ذلك الى البحث فى أسباب ماكان سلفكم عليه ، ثم علل ما صرتم وصار الناس اليه ؟ قالوا : ذلك ليس الينا ، ولا فرضه الله علينا وانما هو الحكام ينظرون فيـــه ، ويبحثون عن وسائل تلافيه ، فان لم يفعلوا — ولن يفعلوا — فذلك لانه آخر الزمان ، وقد ورد فى الاخبار مايدل على انه كائن لا محالة ، وان الاسلام لابد أن يرفع من الارض ، ولا تقوم القيامة الا على لكع بن لكع . واحتجوا على اليأس والقنــوط بآيات وأحاديث وآثار تقطع الامل ، ولا تدع فى نفس حركة الى عمل ؟!



رأى رينان فى الاسلام

هذا الجمود ـــ الذى لو أردنا بيان ما امتد اليه من طيسات الافكار ، وثنيات الوجدان ، لكتبنا فيه كتابا ـــ هو الذى حمل المسيو رينان الفيلسوف الفرنسي المشهور أن يقول فى عرض كلام له فى تساهل المذاهب الدينية مع العلم ، نقلته عنه الجامعة «على أننى أخشى ان يثبت الدين الاسلامى وحده فى وجه هذا التسامح العام فى العقائد ، ولكنى أعرف أن فى نفوس بعض الرجال المتمسكين بآداب الدين الاسلامى القديمة وفى بضعة من رجال الاستانة وبلاد الفرس جراثيم جيدة ، تدل على فكر واسع ، وعقل ميال الى المسامحة ، الا اننى أخشى أن تختنق هذه الجراثيم بتعصب بعض الفقهاء ، فاذا اختنقت قضى على الدين الاسلامى . ذلك انه من الثابت الآن أمران ـــ الاول : ان التمدن الحديث لايريد اماتة الاديان بالمرة لانها تصلح أن تكون وسيلة اليه . والثانى : انه لا يطيق أن تكون الاديان عثرة فى سبيله . فعلى هذه الاديان أن تسالم وتلين ، والا كان موتها ضربة لازب » هذا كلام رينان بتصرف لفظى قليل

فمن اين يكون هذا الجمود العام ، الذى سمح للطاعنين ان يحكموا على الاسلام ، بانه عثرة فى طريق المسلمين يسقط بهم دون أن ينالوا فلاحا فى سعيهم ، او نجاحا فى أعمالهم ؟ من اين يكون هذا الجمود ان لم يكن من طبيعـــة الدين ؟ ومن أين يكون ما سردناه من الحوادث أن لم يكن ناشـــئا من أصـــول الدين ؟ فان لم تسلم بأن هذا اضطهـــــاد ، وان الاضطهاد من لوازم الدين الاسلامى ، فعليك ان تســلم بأنه عداوة للعلم او

اشمئزاز منه . أو استهجان له ، أو احتقار لشأنه . واحد هذه الامور كاف اذا عم بين المسلمين فى أن ينفر بهم عن كل مجد ، وأن يحرمهم كل نفع . وان يحقق فيهم ما تنبأ به رينان وغيره فما قولك فى هذا ؟؟

الجـــواب

اقول هذا كلام فيه شية من الحق ، ولمعة من الصدق ، إما ما نسمعه حولنا من سجن من قال بقول السلف فليس الحامل عليه التمسك بالدين ، فان حملة العمائم انما حركهم الحســد لا الغيرة . وأما صدور الامر بالسجن فهو من مقتضيـــات السياسة ، والخوف من خروج فكر واحد من حبس التقليد ، فتنتشر عدواه فيتنبه غافل آخر ، ويتبعه ثالث ، ثم ربما تسرى العدوى من الدين الى غير الدين — الى آخر ما يكون من حرية الفكر (يعوذون بالله منها)

فان شئت أن تقول ان السياسة تضطهد الفكر أو الدين أو العلم فانا معك من الشاهدين . اعوذ بالله من السياسة ، ومن لفظ السياسة ، ومن معنى السياسة ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة ، ومن كل خيال يخطر ببالى من السياسة ، ومن كل أرض تذكر فيها السياسة ، ومن كل شخص يتكلم او يتعلم أو يجن أو يعقل فى السياسة ، ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس

يدلك على أن العقوبة سياسية أن الرجل كان يقول بقــول السلف من أهل الدين . لا تقل ان هذه السياسة من الدين ، فانى أشهد الله ورسوله وملائكته وسلفنا اجمعين ، ان هــذه السياسة من أبعد الامور عن الدين ، كأنها الشجرة التى تخرج فى أصل الجحيم (طلعها كأنه رءوس الشياطين * فانهــم لآكلون منها فمالئون منها البطون * ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم * ثم ان مرجعهم لالى الجحيـــم * أنهم الفوا آباءهم ضالين * فهم على آثارهم يهرعون)

جمود المسلمين واسبابه

وأما ما وصفت بعد ذلك من الجمود فهو مما لا يصح ان ينسب الى الاسلام ، وقد رأيت صورة الاسلام فى صفائها وتصوع بياضها ليس فيها ما يصح ان يكون أصلا يرجع اليه شيء مما ذكرت ولا مما تنبأ بسوء عاقبته (رينان) وغيره . وانما هى علة عرضت على المسلمين عندما دخل على قلوبهم عقائد اخرى ساكنت عقيدة الاسلام فى أفئدتهم ، وكان السبب فى تمكنها من نفوسهم واطفائها لنور الاسلام من عقولهم ، هو السياسة كذلك ، هو تلك الشجرة الملعونة فى القرآن عبادة الهوى واتباع خطوات الشياطين — هو السياسة

لم أر كالاسلام دينا حفظ أصله ، وخلط فيه أهله ، ولا مثله سلطانا تفرق عنه جنده ، وخفر عهده ، وكفر وعيده ووعده ، وخفى على الغافلين قصده ، وان وضح للناظرين رشده ، أكل الزمان أهله الاولين ، وأدال منهم خشارة (١) من الاخرين ، لا هم فهموه فأقاموه ، ولا هم رحموه فتركوه ، سواسية من الناس اتصلوا به ، ووصلوا نسبهم بسببه وقالوا نحن أهله وعشيرته ، وحماته وعصبته ، وهم ليسوا منه فى شيء الا كما يكون الجهل من العلم . والطيش من الحلم ، وأفن الرأى من صحة الحكم

أنظر كيف صارت مزية من مزايا الاسلام سببا فيما صار اليه أهله : كان الاسلام دينا عربيا ، ثم لحقه العلم فصار علما عربيا ، بعد أن كان يونانيا ، ثم أخطأ خليفة فى السياسة فاتخذ من سعة الاسلام سبيلا الى ماكان يظنه خيرا له . ظن أن الجيش العربى قد يكون عونا لخليفة علوى ، لان العلويين كانوا

---

(١) الخشارة بالمعجمتين كالحثالة وزنا ومعنى : الردىء وما لاخير فيه من كل شيء . من خشارة الشعير وهى مالا لب له وخشارة التمر وهى رديئة والشيص منه . وحثالة الطعام ما سقط منه اذا نقى

الصق ببيت النبي صلى الله عليه وسلم فأراد أن يتخذ له جيشا أجنبيا من الترك والديلم وغيرهما من الامم التي ظن أنه يستعبدها بسلطانه ، ويصطنعها باحسانه ، فلا تساعد الخارج عليه ، ولا تعين طالب مكانه من الملك ، وفي سعة أحكام الاسلام وسهولته ما يبيح له ذلك ، هنالك استعجم الاسلام وانقلب عجميا

خليفة عباسي اراد أن يصنع لنفسه ولخلفه ، وبئس ماصنع بأمته ودينه أكثر من ذلك الجند الاجنبي واقام عليه الرؤساء منه ، فلم تكن الا عشية أو ضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء ، واستبدوا بالسلطان دونهم ، وصارت الدولة في قبضتهم ، ولم يكن لهم ذلك العقل الذي راضه الاسلام والقلب الذي هذبه الدين ، بل جاءوا الى الاسلام بخشونة الجهل ، يحملون الوية الظلم ، لبسوا الاسلام على أبدانهم ، ولم ينفذ منه شيء الى وجدانهم ، وكثير منهم كان يحمل الهه معه يعبده في خلوته ، ويصلي مع الجماعات لتمكين سلطته ، ثم عدا على الاسلام آخرون كالتتار وغيرهم ، ومنهم من تولى أمره

أي عدو لهؤلاء أشد من العلم الذي يعرف الناس منزلتهم ، ويكشف لهم قبح سيرهم ؟ فمالوا على العلم وصديقه الاسلام ميلتهم ، أما العلم فلم يحفلوا بأهله ، وقبضوا عنه يد المعونة ، وحملوا كثيرا من اعوانهم أن ينخرجوا في سلك العلماء وأن يتسربلوا بسرابيله ، ليعدوا من قبيله ، ثم يضعوا للعامة في الدين ما يبغض اليهم العلم ويبعد بنفوسهم عن طلبه ، ودخلوا عليهم وهم اغرار من باب التقوى وحماية الدين ، زعموا الدين ناقصا ليكملوه ، أو مريضا ليعللوه ، أو متداعيا ليدعموه ، أو يكاد ينقض ليقيموه

نظروا الى ماكانوا عليه من فخفخة الوثنية ، وفي عادات من

كان حولهم من الامم النصرانية ، فاستعاروا من ذلك للاسلام ماهو براء منه ، لكنهم نجحوا في اقناع العامة بأن في ذلك تعظيم شعائره ، وتفخيم أوامره ، والغوغاء عون الغاشم ، وهم يد الظالم ، فخلقوا لنا هذه الاحتفالات ، وتلك الاجتماعات ، وسنوا لنا من عبادة الاولياء والعلماء والمتشبهين بهم ما فرق الجماعة ، وأركس الناس في الضلالة وقرروا أن المتاخر ، ليس له أن يقول بغير مايقول المتقدم ، وجعلوا ذلك عقيدة ، حتى يقف الفكر ، وتجمد العقول ، ثم بثوا أعوانهم في أطراف الممالك الاسلامية ينشرون من القصص والاخبار والآراء ما يقنع العامة ، بأنه لا نظر لهم في الشئون العامة ، وان كل ما هو من أمور الجماعة والدولة فهو مما فرض فيه النظر على الحكام دون من عداهم ، ومن دخل في شيء من ذلك من غيرهم فهو متعرض لما لايعنيه ، وان مايظهر من فساد الاعمال ، واختلال الاحوال ، ليس من صنع الحكام ، وانما هو تحقيق لما ورد في الاخبار من أحوال آخر الزمان ، وانه لا حيلة في اصلاح حال ولا مآل ، وان الاسلم تفويض ذلك الى الله ، وما على المسلم الا أن يقتصر على خاصة نفسه . ووجدوا في ظواهر الالفاظ لبعض الاحاديث ما يعينهم على ذلك ، وفي الموضوعات والضعاف ماشد أزرهم في بث هذه الاوهام

وقد انتشر بين المسلمين جيش من هؤلاء المضلين ، وتعاون ولاة الشر على مساعدتهم في جميع الاطراف ، واتخذوا من عقيدة القدر مثبطا للعزائم ، وغلا للايدي عن العمل . والعامل الاقوى في حمل النفوس على قبول هذه الخرافات انما هو السذاجة ، وضعف البصيرة في الدين ، وموافقة الهوى ـ امور اذا اجتمعت أهلكت ، فاستتر الحق تحت ظلام الباطل ، ورسخ في نفوس الناس من العقائد ما يضارب اصول دينهم ويباينها على خط مستقيم كما يقال

هذه السياسة ــ سياسة الظلمة واهل الاثرة ــ هى التى روجت ما ادخل على الدين مما لا يعرفه ، وسلبت من المسلم املا كان يخترق به اطباق السموات ، واخلدت به الى يأس يجاور به العجماوات ، فجل ما تراه الان مما تسميه اسلاما فهو ليس باسلام ، وانما حفظ من اعمال الاسلام صورة الصلاة والصوم والحج ، ومن الاقوال قليلا منها حرفت عن معانيها ، ووصل الناس بما عرض على دينهم من البدع والخرافات الى الجمود الذى ذكرته وعدوه دينا ، نعوذ بالله منهم ومما يفترون على الله ودينه ، فكل ما يعاب الان على المسلمين ليس من الاسلام ، وانما هو شيء آخر سموه اسلاما ، والقرآن شاهد صادق (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) يشهد بأنهم كاذبون ، وانهم عنه لاهون ، وعما جاء به معرضون ، وسنوفى لك الكلام فى مفاسد هذا الجمود ، ونثبت انه علة لابد أن تزول

مفاسد هذا الجمود ونتائجه

طال امد هذا الجمود لاستمرار عمل العاملين فى المحافظة عليه ، وولع شهواتهم بالدفاع عنه ، وقد حدثت عنه مفاسد يطول بيانها ، وانما يحسن اجمال القول فيها

كان الدين هو الذى ينطلق بالعقل فى سعة العلم ، ويسيح به فى الارض ، ويصعد به الى اطباق السماء ، ليقف به على اثر من آثار الله ، او يكشف به سرا من اسراره فى خليقته ، او يستنبط حكما من احكام شريعته ، فكانت جميع الفنون مسارح للعقول تقتطف من ثمارها ما تشاء ، وتبلغ من التمتع بها ما تريد . فلما وقف الدين ، وقعد طلاب اليقين ، وقف العلم وسكنت ريحه ، ولم يكن ذلك دفعة واحدة ولكنه سار سير التدريج

جناية الجمود على اللغة

اول جناية لهذا الجمود كانت على اللغة العربية واساليبها وآدابها فان القوم كانوا يعنون بها لحاجة دينهم اليها — أريد حاجتهم فى فهم كتابهم الى معرفة دقائق اساليبها ، وما تشير اليه هيئة تراكيبها ، وكانوا يجدون أنهم لن يبلغوا ذلك حتى يكونوا عربا بملكاتهم ، يساوون من كانوا عربا بسلائقهم . فلما لم يبق للمتاخر الا الاخذ بما قال المتقدم ، قصر المحصلون تحصيلهم على فهم كلام من قبلهم ، واكتفوا بأخذ حكم الله منه بدون أن يرجعوا الى دليله ، ولو نظروا فى الدليل فرأوه غير دال له بل دالا لخصمه ، بأن كان عرض له فى فهمه مايعرض للبشر الذين لم يقرر الدين عصمتهم ، لخطئوا نظرهم واعموا ابصارهم ، وقالوا : نعوذ بالله أن تذهب عقولنا الى غير ما ذهب اليه متقدمنا ، وأرغموا عقلهم على الوقفة فيصيبه الشلل من تلك الناحية . فأية حاجة له بعد ذلك الى اللغة العربية نفسها ، وقد يكفيه منها ما يفهم به أسلوب كلام المتقدم ، وهو ليس من اولئك العرب الذين كان ينظر الاولون فى كلامهم

وهكذا كل متاخر يقصر فهمه على النظر فى كلام من يليه هو غير مبال بسلفه الاول ، بل ولا بما كان يحف بالقول من احوال الزمان ، فهو لا ينظر الا اللفظ وما يعطيه ، فتسقط منزلته فى تحصيل اللغة بمقدار بعده عن أهلها حتى وصل حال الناس الى مانراهم عليه اليوم : جعلوا دروس اللغة لفهم عبارة بعض المؤلفين فى النحو وفنون البلاغة ، وان لم يصلوا منها الى غاية فى فهم ما وراءها فدرست علوم الاولين وبادت صناعتهم ، بل فقدت كتب السلف الاولين رضى الله عنهم ، وأصبح الباحث عن كتاب المدونة لمالك رحمه الله تعالى او كتاب الام للشافعى رحمه الله تعالى او بعض كتب الامهات فى فقه الحنفية كطالب المصحف فى بيت الزنديق . تجد [illegible]ءا من الكتاب فى قطر

وجزءه الآخر فى قطر آخر ، فاذا اجتمعت لك أجزاء الكتاب وجدت ما عرض عليها من مسخ النساخ حائلا بينك وبين الاستفادة منها .

هذا كله من اثر الجمود وسوء الظن بالله وتوهم ان أبواب فضل الله قد اغلقت فى وجوه المتأخرين ، ليرفع بذلك منازل المتقدمين ، وعدم الاعتبار بما ورد فى الاخبار من أن المبلغ ربما كان أوعى من السامع وان هذه الامة كالمطر لايدرى أوله خير أو آخره وقلة الالتفات الى أن ذلك قد أضاع آثار المتقدمين انفسهم ، ولا حول ولا قوة الا بالله . لاريب ان القارىء يحيط بمقدار ضرر هذه الجناية على اللغة ، يكفيه من ذلك انه اذا تكلم بلغته لغة دينه وكتابه وقومه لا يجد من يفهم ما يقول ، وأى ضر أعظم من عجز القائل عن أن يصل بمعناه الى المقول ؟

جناية الجمود على النظام والاجتماع

واعظم من هذه الجناية جناية التفريق وتمزيق نظام الامة وايقاعها فيما وقع فيه من سبقها من الاختلاف وتفرق المذاهب والشيع فى الدين . كان اختلاف السلف فى الفتيا يرجع الى اختلاف أفهام الافراد ، وكل يرجع الى أصل واحد لا يختلفون فيه ، وهو كتاب الله وما صح من السنة ، فلامذهب ولا شيعة ، ولا عصبية تقاوم عصبية ، ولو عرف بعضهم صحة ما يقول الآخر لاسرع الى موافقته كما صرح به جميعهم ، ثم جاء أنصار الجمود فقالوا : يولد مولود فى بيت رجل من مذهب امام فلا يجوز له ان ينتقل من مذهب أبيه الى مذهب امام آخر . واذا سألتهم قالوا : « وكلهم من رسول الله ملتمس » لكنه قول باللسان ، لا أصل له فى الجنان ، ثم كانت حروب جدال بين ائمة كل مذهب لو صرفت آلاتها وقواها فى تبيين أصول الدين ونشر آدابه وعقائده الصحيحة بين العامة ، لكنا اليوم فى شأن غير مانحن فيه ، يجد المطلع على كتب المختلفين

من مطاعن بعضهم فى بعض مالا يسمح به أصل من أصول الدين الذى ينتسبون اليه . يضلل بعضهم بعضا ، ويرمى بعضهم بعضا بالبعد عن الدين ، وما المطعون فيه بأبعد عن الدين من الطاعن . ولكنه الجمود ، قد يؤدى الى الجحود

كان الاختلاف فى العقائد على نحو الاختلاف فى الفتيا تخالف اشخاص فى النظر والرأى ، وكان كل فريق يأخذ عن الآخر ولا يبالى بمخالفته له فى رأيه ، مسجدهم واحد وامامهم واحد وخطيبهم واحد فلما جاء دور الجمود ــ دور السياسة ــ أخذ المتخالفون فى التنطع وأخذت الصلات تتقطع وامتازت فرق وتألفت شيع كل ذلك على خلاف مايدعو اليه الدين ، وقد بذل قوم وسعهم فى تمييز الفرق تمييزا حقيقيا فما استطاعوا وانما هو تمييز وهمى ، وخلف فى اكثر المسائل لفظى . وانما هى الشهوات وضروب السياسات . اشعلت نيران الحرب بين المنتسبين الى تلك الشيع حتى آل الامر الى هذه الفرقة التى يظن الناظر فيها أنها لا دواء لها

قال قائل (١) من عدة سنين : انه ينبغى أن يعين القضاة فى مصر من أهل المذاهب الاربعة لان أصول هذه المذاهب متقاربة وعبارات كتبها مما يسهل على الناظر فيها أن يفهمها وقال ان الضرورة قاضية بأن يؤخذ فى الاحكام ببعض أقوال من مذهب مالك أو مذهب الشافعى تيسيرا على الناس ودفعا للضرر والفساد : فقام كثير من المتورعين ، يحوقلون ويندبون حظ الدين ، كأن الطالب يطلب شيئا ليس من الدين ، مع انه لم يطلب الا الدين ، ولم يأت الا بما يوافق الدين ، وبما كان عليه العمل فى اقطار العالم الى ماقبل عدة سنين ، فأين قول هؤلاء « وكلهم من رسول الله ملتمس » ؟ لكن هو جمود المتأخر على

---

(١) القائل هو الامام الكاتب وله فيه اقتراح رسمى فى تقريره الذى وضعه لاصلاح المحاكم الشرعية

راى من سبقه مباشرة وقصر نظره عليـــــه دون التطلع الى ما وراءه . أو هى السياسة تحل ما تشاء وتحرم ما تشاء ، وتصحح ما تشاء ، وتعطل ما تشاء ، والناس منقادون اليها بأزمة القوة او الاهواء

جناية الجمود على الشريعة واهلها

هذا الجمود فى احكام الشريعة جر الى عسر حمل النـــاس على اهمالها : كانت الشريعة الاسلامية ايام كان الاســـــلام اسلاما سمحة تسع العالم بأسره ، وهى اليوم تضيق عن اهلها، حتى يضطروا الى ان يتناولوا غيرها وأن يلتمســـوا حمـــاية حقوقهم فيما لايرتقى اليها ، واصبح الاتقياء من حملتهـــــا يتخاصمون الى سواها

صعب تناول الشريعة على الناس حتى رضوا بجهلها عجزا عن الوصول الى علمها ، فلا ترى العارف بها من الناس الا قليلا لا يعد شيئا اذا نسب الى من لايعرفها . وهل يتصور من جاهل بشريعة أن يعمل باحكامها ؟ فوقع اغلب العامة فى مخالفـــة شريعتهم بل سقط احترامها من انفسهم ، لانهم لا يستطيعون ان يطبقوا اعمالهم بمقتضى نصوصها . وأول مانع لهم ضيـــق الطاقة عن فهمها لصعوبة العبارات وكثرة الاختلاف

سألت يوما احد المدرسين فى بعض المذاهب : هل تبيـــع وتشترى وتصرف النقود على مقتضى ماتجد فى كتب مذهبك فأجاب ان تلك الاحكام قلما تخطر بباله عند المعاملة بالفعل وانما يفعل ما يفعل الناس . هكذا فعل الجمود بأهله ، ولو ارادوا ان تكون للشريعة حياة يحيا بها الناس لفعلوا ، ولسهل عليهم وعلى الناس ان يكونوا بها احياء

تعلم ما وصل اليه الناس من فساد الاخلاق والانحـــراف عن حدود الشريعة لو سألت عن سببه فى القرى وصغار المدن لوجدته احد امرين : اما فقد العارف بالشريعة والدين وسقوط

القرية أو المدينة فى جاهلية جهلاء يرجع بعض أهلها الى بعض فى معرفة الحلال والحرام وليس المسئول بأعلم من السائل وكلهم جاهلون ، واما عجز العارف عن تفهيم من يسأله ، لاعتقال لسانه عن حسن التعبير بطريقة تفهمها العامة ، فهو اذا سئل يقرأ كتابا أو يسرد عبارة يصعب على السامع فهمها وعلى المتكلم افهامها . وذلك للحرج الذى وضع فيه نفسه ، فلا يستطيع التصرف فيما يسمع ولا فيما يعلم . فاذا قلت للعارف : تعلم من وسائل التعبير ما يقدرك على مخاطبة الطبقات المختلفة من الناس حتى تنفع بعلمك ، واعل بنفسك الى ان تفهم الغرض من قول امامك فتجد لاصله انطباقا على هذه الحادثة مثـــلا وان لم يأت ذكرها بنفسها في قوله او قول من جاء بعده من اتباعه ، ــ قال : سبحان الله : هل فعل ذلك احد من المشايخ؟ يريد الا يأتي شيئا ألا ما اتى به شيخه الذى أخذ عنه يدا بيد ، ولو أبعد بنظره لوجد قدماء المشايخ قد فعلوه وبالغوا فيه حتى خالفوا من أخذوا عنه في بعض رأيه ثم اذا حاججته في ذلــك لم يبعد من رأيه ان يعدك زنديقا ، وانك تدعوه الى الخروج من دينه ، ولا يدرى المسكين انه بذلك يخالف نصوص دينه ، وانه يتهيأ للخروج منه ، نعوذ بالله تعالى

كان كلام بيني وبين أحد المدرسين في أخذ الطلبة بالنصيحة وتذكيرهم بفضائل الاخلاق وصالح الاعمال ، خصـــوصا عند القاء الدروس الفقهية ودروس الحديث والتوحيد ، فقال لي : انه لا فائدة في ذلك قطعا ، وهو تعب في غير طائل . فقلت له: ذلك حق عليك أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وليس عليك ان يأتمر المأمور ولا أن ينتهي المنهي . فقـــــال : اذا تحققت استحالة المنفعة كان الامر والنهي لغوا

فانظر كيف اعتقد استحالة الانتفاع بنصحه لبلوغ الفساد من النفوس غايته كما يزعم ؟ ولم ينظر في الوسيلة الى اقتــلاع

هذا الفساد ، مع ان الدين يدعوه الى ذلك وهو يعمل كل يوم عمله لتعليم من لا سبيل الى اصلاحه ، هذا كله لانه لم ير نفسه اهلا لان يتخذ وسيلة لم يتخذها من أخذ عنه ، أو لم يرشده اليها من تعلم هو بين يديه ولم يتذكر عند ذلك شيئا من الاوامر الالهية التي وردت في النصيحة والتآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر ، وان اليأس من روح الله انما يكون من القوم الكافرين أو الضالين

لا بل اذا قلت له : ان هذا الضرب من ضروب التعليم عقيم لا ينتج المطلوب منه ، او ان هذا الكتاب الذى تعود الطلاب قراءته قد يضر بقارئيه وغيره أفضل منه . . كاد يظن أن قولك هذا مخالف للدين ، ورأى العدول عما تعوده نوعا من الاخلال بالدين . وقد يقيم عليك حربا يعتقد نفسه فيها مجاهدا فى سبيل الله

اذا قلت له : ان دروس السلف كانت تقريرا للمسائل واملاء للحقائق على الطلاب ، ولم يكن لاحد منهم كتاب يأخذه بيده ويقرئه تلاميذه ، ولم يكن بأيدى الطلبة الا الاقلام والقراطيس يكتبون ما يسمعونه من أفواه أساتذتهم . قد يعترف لك بصحة ما تقول ولكنه يستمر فى عمله ، اعتمادا على أنه وجد الناس هكذا يعملون ، فهل يخطر ببال عاقل أن هذا الجمود من الدين؟ وهل يرتاب من له أدنى ادراك فى سوء عقباه على الدين وأهل الدين ؟

جناية الجمود على العقيدة

ذلك جمودهم فى العمل ، وأشد ضررا منه الجمود فى العقيدة : نسوا ما جاء فى الكتاب وأيدته السنة من ان الايمان يعتمد اليقين ، ولا يجوز الاخذ فيه بالظن ، وان العقل هو ينبوع اليقين فى الايمان بالله وعلمه وقدرته والتصديق

بالرسالة ، وان النقل ينبوع له فيما بعد ذلك (١) من علم الغيب كأحوال الآخرة وفرض العبادات وهيآتها ، وان العقل ان لم يستقل وحده في ادراك مالا بد فيه من النقل فهو مستقبل لا محالة في الاعتقاد بوجود الله وبانه يجوز ان يرسل الرسل فتأتينا عنه بالمنقول — نسوا ذلك كله وقالوا : لابد من اتباع مذهب خاص في العقيدة ، وافترقوا فرقا وتمزقوا شيعا كما قلنا ولم يكفهم الالزام باتباع مذهب خاص في نفس المعتقد ، بل ذهب بعضهم الى أنه لابد من الاخذ بدلائل خاصة للوصول الى ذلك المعتقد فيكون التقليد في الدليل كالتقليد في المدلول، وكانهم لذلك جعلوا النقل عمادا لكل اعتقاد وياليته النقل عن المعصوم ، بل النقل ولو عن غير المعروف، فتقررت لديهم قاعدة ان عقيدة كذا صحيحة ، لان كتاب كذا للمصنف فلان يقول ذلك ، ولما كانت الكتب قد تختلف أقوالها صار من الصعب ان يجد الواحد منهم لنفسه عقيدة قارة صافية غير كدرة ولا متزعــــزعة . وقد سرى ذلك من قراء المقلدين الى اميهم فتراهم يعتقدون كل ما يقال وينقل عن معروف الاسم ، وان لم يكن في حق الامر من أهل العلم ، وتتناقض عقائدهــم على حسب تناقض مسموعاتهم

انجر التساهل في الاعتماد على النقل الى الخروج عمــا اختطه لنا السلف رضي الله عنهم ، فقد كانوا ينقبون عن صفات من ينقلون عنه ، ويمتحنون قوله ، حتى يكونوا على شبه اليقين من أنه موضع الثقة . ولكن جمود المتأخر على مايصل اليه من المتقدم صير النقل فوضى ، فتجد كل شخص يأخذ ممن عرفه وظن أنه أهل للاخذ عنه بدون بحث ولا تنقيب ، حتى شــاع

---

(١) يعني ان الاخذ بما جاء به الرسل متوقف بالفعل — وفقا لنظر العقل على التصديق بان الله ارسلهم ، فهو لا يكون الا بعده . وهذا قطعي بالنسبة الى من يدعى الى الدين من الكفار والى اقامة الحجة على المنكر ، وأما الناشيء في الاسلام فلا ترتيب عنده في ذلك فهو يأخذ العلم بالله وصفاته وأدلتها العقلية من القرآن مباشرة

بين الناس من الاقوال وموضوعات الاحاديث ، ماترتفع الاصوات بالشكاية منه من حين الى حين . وكل ما تراه من البدع المتجددة فمنشؤه سوء الاعتقاد الذى نشأ من رداءة التقليد ، والجمود عند حد ما قال الاول بدون بحث فى دليله ولا تحقيق فى معرفة حاله ، واهمال العقل فى العقائد على خلاف مايدعو اليه الكتاب المبين والسنة الطاهرة . دخلت على الناس لذلك عقائد يحتاج صاحب الغيرة على الدين فى اقتلاعها من انفسهم الى عناء طويل ، وجهاد شديد ، وسلاحه الكتاب وسلاح اعدائه اقوال بعض من تقدم من يعرف ومن لا يعرف — وما اكثر عدد من ينصر اعداءه اليوم وما اقلهم غدا ان شاء الله

سأل سائل الاستاذ شيخ الجامع الازهر عن حكم عمل من الاعمال الجارية فى المساجد يوم الجمعة — ومنزلة الشيخ من الرياسة فى أهل العلم بالدين منزلته — فأفتى بما ينطبق على السنة وما يعرفه العارفون بالدين وقال : ان العمل بدعة من البدع يجب التنزه عنها . اتظن ان المستفتي امكنه العمل بمقتضى الفتيا ؟ كلا . حدث قيل وقال ، وكثرة تسآل ، ودخلت السياسة ثم قيل : ان الزمان ناصر الحقيقة ، وقد وجدنا الامر كذلك من قبلنا . وسكت السائل وماذا يصنع المجيب ؟

نعم هذا من شؤم ذلك الجمود فقد فصل بين العامة ومن يرجى فيهم تقويم ما اعوج منها ووكلت الى اناس منها لا علم لهم بالدين ولا بالادب وقد غرسوا فى أذهان الدهماء شر الغرس ، ولا تجنى الامم منه الا أخبث الثمر . فلو قام العالم بالدين وأراد أن يبين حكم الله المصرح به فى كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم المجمع عليه عند السلف قاطبة انتصب له ناعر من العامة يصيح فى وجهه (ما سمعنا بهذا فى آبائنا الاولين) ويريد من آبائه الاولين من رآهم بعد ولادته أو ذكرت له أسماؤهم بلسان مضليه حتى صار ارشاد العامة اليوم من

أصعب الأمور واشقها على طالبه

ماذا يمكن ان أقول ؟ أصبح الرجل يرتكب في وسائل العبادة اقبح المنكرات في الدين واذا دعي الى ترك المنكر نفر وزمجر وابى واستكبر . انظر ماذا يصنع الموسوسون ومن يقرب منهم في الاستبراء من البول على مرأى من المارة وفيهم النساء والاطفال وهم يظنون أنهم يتقربون الى الله بما يفعلون

هذا هو شأن العامة يرون ماليس بدين دينا ، ويصعب على حفاظ الدين ارشادهم بفضل جمودهم على ماورثوا من ملقنيهم بدون تعقل

فهذا معظم الامة تراه قد تملص من أيدي منسذريه . ولو شاءوا لاقبل كل منهم على صاحبه ، وهو أيسر شيء على حملة الشريعة ، وما هو الا أن يرجعوا الى ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه من سعة الدين وسماحته ، ثم العمل على حفظه وحياته

الجمود ومتعلمو المدارس النظامية

ثم ان الجمود قد أحدث لنا فريقا آخر وهو فريق المتعلمين على الطرق الجديدة اما في مدارس الحكومات الاسلامية واما في المدارس الاجنبية داخل بلادهم أو خارجا عنها . لااتكلم عن هذا الفريق في بلاد القرم أو القوقاز أو سمرقند أو بخارى أو الهند ، فاني لا أعرف كثيرا من أحوالهم ومن رأيته منهم رأيت فيه خيرا وأرجو ان يكون منهم لقومهم ما ينتظره الاسلام من العارفين به ، فقد رأيت أفرادا قليلين من هــؤلاء تعلموا في البلاد الاوربية ودرسوا العلوم فيها درسا دقيقا ، وهم أشـد تمسكا بلب الدين الاسلامي وروحه من كثير ممن يدعون الورع والتقوى ولا يسمحون لانفسهم بترك عادة صحيحة من العادات التي أورثها دينهم قومهم ، فنعم المتعلمون هؤلاء ، أكثر الله منهم

وانما أتكلم عن هذا الفريق من المتعلمين فى مصر وسورية وسائر بلاد الدولة العثمانية . سماحة الاسلام وسعة حلمه للعلم أباحتا للمسلمين ان يرسلوا أولادهم ليأخذوا العلم فى المدارس الرسمية وغير الرسمية عن أساتذة فيهم المسلم وغير المسلم ، أو عن أساتذة كلهم غير مسلمين ، بل فى مدارس لم تبن الا لترويج دين غير الدين الاسلامي وأباحتا لغير آباء هؤلاء التلامذة أن يسكتوا والا ينكروا عليهم عملهم ، ما دامت العقيدة سالمة من الهدم أو الضعضعة

جمود تلاميذ المدارس الاجنبية

هؤلاء التلاميذ ان كانوا فى مدارس اجنبية لا أثر لتعليم الدين الاسلامي فيها ، بل ربما يعلم فيها دين آخر فقد يسرى الى عقائدهم شيء من الضعف ، وقد تذهب عقائدهم بالمرة وتحتل مكانها عقائد أخرى تناقضها ، كما شوهد ذلك مرارا ولو كان آباؤهم على علم بطرق الاستدلال الاقناعية لعقائد دينهم لدعموا من عقائد أبنائهم وحفظوها من التزلزل أو الزوال ، وكيف يكون لاولئك الآباء شيء من هذا العلم مع الجمود على طرق قديمة لا يصل الى فهمها من ينقطع لتعلمها ، فضلا عن أولئك المساكين ، بل لو كان هناك مرشدون على طريقة يسهل فهمها لتيسر لهؤلاء التلامذة ان يهتدوا بهديهم ولكن الجمود صير كل شيء صعبا وكل أمر غير مستطاع

فهذه جناية من جنايات الجمود على أبناء المسلمين الذين يتعلمون فى مدارس أجنبية ، يخرجهم من دينهم من حيث لا يشعرون . ويا ليتهم يستبدلون بالدين رادعا آخر من الادب والحكمة كما يرجو بعض المغرورين الذين لا يعلمون طبائع هذه الامم ،أوكما يروجه بعض من لا يريدون الخير بها،ولكنه ترك أفئدتهم هواء خالية من كل زاجر او دافع ، اللهم الا زاجرا من خير أو دافعا الى شر ، فاتخذوا الههم هواهم وامامهم

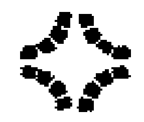
شهوتهم ، فهلكوا وأهلكوا ، ومن هؤلاء ورثة الاغنيـاء الذين تصبح من شرور أعمالهم الجرائد كل يوم ، فالجهل خير مما يتعلم هؤلاء بدون ريبة ، وليت الاسلام لم يرحب صدره لمثل هذا الضرب من التعليم والتعلم

جمود تلاميذ المدارس الرسمية والاهلية

اما المتعلمون فى مدارس رسـمية أو غير رسـمية للتعليم الدينى فيهـا شىء من البقية فهؤلاء ينشئون على شىء من المعارف فى الفنون المختلفة ، وتقـرر لهم حقـائق فى الكون السماوى أو الارضى أو فى الاجتماع الانسانى ، ومن عـرف شيئا انطلق لسانه بالخوض فيه ، وقد يسمعه متنطع ممن يلبس لباس أهل الدين وهو جامد على الفاظ سـمعها ، فلو سمع شيئا غيرها انكره وظنه مخالفا للعقيدة الصحيحة فيأخذ يلوم المتعلم ويوبخه ، ويرميه بالمروق من الدين ، هذا والمتعلم لا يشك فى قوة دليـله ، ولجهله بالدين يعتقـد أن ما يقوله خصمه منه ، فينفر من دينه نفرته من الجهل ، ولو قال له قائل : ارجع الى كتب الدين تجد فيها ما يسرك وينصرك على نفسك وخصمك ، حار لا يدرى الى اى كتاب يرجع ، ولم يسهل عليه فهم تلك العبارات التى ورثها القوم على ما فيها من تشعيث وتعقيد وأبقوها كما ورثوها ، فيعود الى النفور من الدين نفور طالب الفهم مما لا يمكنه فهمه

لهذا يعتقد أكثر هؤلاء ان الدين شىء غير مفهـوم ، بل قد يعده بعضهم خـرافة « نعوذ بالله » فيأخذون عنه جانبـا ، ويتركون عقائده وفضائله وآدابه ، ويلتمسون لهم آدابا فى غيره ، وقلما يجدونها ، فتراهم وقد فترت قلوبهم وقصرت هممهم ، فلا يطلبون الا ما تطلبه العامة من كسب معيشة أو علو جاه ، ويسلكون الى ذلك أى طريق ولو اضروا بالعامة أو الخاصة « مادام الشرف محفوظا » فاذا وجد بينهم من يدعى

الوطنية أو الغيرة الملية أو نحو ذلك ، فانما ينثر الالفاظ نثرا لا يرجع فيها الى أصل ثابت ، ولا الى علم صـــحيح . ولهذا يطلب المصلحة لبلاده من الوجه الذى يؤدى الى المفسدة ، وهو يشعر ـ أو لا يشـــعر ـ على حسب حاله . ومنهم من يصيح باسم الدين ولا تتحرك نفسه لمعرفة حكم من أحكامه أو درس عقيدة من عقائده ، فشأنهم كلام فى كلام ، ولبئس ما يصنعون ، ولولا هذا الجمود لوجدوا فى كتب دينهم وفى أقوال حملته ما تبتهج به قلوبهم ، وتطمئن اليه نفوسهم ، ولذاقوا طعم العلم مأدوما بالدين . وتمكنوا من نفع أنفسهم وقومهم ولوجدت منهم طبقة معـــروفة ، يرجع اليهـــا فى ســـير الامة وسياسة أفكارها وأعمالها الاجتماعية



الجمود علة تزول

تفصيل مضرات هذا الجمود وسيئاته يحتاج الى كتاب طويل فنكتفي بما أوجزناه في الصفات السابقة . ولن يبقى الكلام في أنه عارض يمكن زواله ان شاء الله تعالى

قد عرفت من طبيعة الدين الاسلامي بعد عرضها عليك فيما سبق انها تسمو عن أن ينسب اليها هذا المرض الخبيث — مرض الجمود على الموجود — وكم في الكتاب من آية تنفر من اتباع الآباء مهما عظم أمرهم بدون استعمال العقل فيما كانوا عليه ، ولا حاجة الى اعادة ذلك

ثم اننا أشرنا ايضا الى بعض الاسباب التي جلبت هذا الجمود على المسلمين لا على الاسلام ، وان محدثها اما عدو للمسلمين طالب لخفض شأنهم أو لاستعبادهم واستغلال أيديهم لخاصة نفسه واما محب جاهل يظن خيرا ويعمل شرا. وهذا الثاني كان أشد نكاية وأعون على الغواية ، وهل تزول هذه العلة ويرجع الاسلام الى سعته الاولى وكرمه الفياض ؟ وينهض بأهله الى ما ذخر لهم فيه ؟؟

جاء في الكتاب المبين (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) ذلك الذكر هو الذكر الحكيم — هو القرآن الذى (أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) هو كما قال (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون) وعد الله بحفظ هذا الكتاب وقد انجز وعده ، ثم تطل اليه يد عدو مقاتل ، ولا يد محب جاهل ، فبقى كما نزل ، ولا يضره عمل الفريقين في

تفسيره وتأويله ، فذلك مما لا يلتصق به ، فهو لا يزال بين دفات المصاحف طاهرا نقيا بريئا من الاختلاف والاضطراب ، وهو امام المتقين ، ومستودع الدين ، واليه المرجع اذا اشتد الامر ، وعظم الخطب ، وسئمت النفوس من التخبط فى الضلالات ، ولا يزال لاشعة نوره نفوذ من تلك الحجب التى اقاموها دونه ولابد أن تتمزق كلها بايدى انصاره . فيتبلج ضياؤه لاعين أوليائه . ان شاء الله تعالى

هذا الضياء كان ولا يزال يلوح لامعه فى حنادس الظلم لافراد اختصهم الله بسلامة البصيرة فيهتدون به اليه ويحمدون سراهم ، بما عرفوا من نجاح مسعاهم ، ولكن الذين اطبقت عليهم ظلم البدع وران على قلوبهم ما كسبوا من التحزب الشيع ، وطمست بصائرهم وفسدت عقولهم بما حشوها من الاباطيل ، وبما عطلوها عن التظر فى الدليل ، هؤلاء فى عمى عن نوره ، وقلوبهم فى أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقر ، يصيحون بأنهم عمى صم ، فلا يرون له سناء ، ولا يسمعون له نداء ، ويعدون ذلك من كمال الايمان به ، ولبئس ما رضوا لانفسهم من السفه وطيش الحلم وهم يعلمون

هذا حال الجمهور الاعظم ممن يوصفون بأنهم مسلمون ، ويجلبون العار على الاسلام بدخولهم تحت عنوانه ، ويقوون حجج أعدائه فى حربه ، بزعمهم الاجتماع تحت لوائه ، وما هم منه فى شىء كما قدمنا

هؤلاء لابد أن يصيبهم ما أصاب الامم قبلهم ، فقد اتبعوا سننهم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، وضيقوا على انفسهم بدخولهم فى جحر الضب الذى دخلوه (١) ومن اتبع سنن قوم استحق الوقوع تحت أحكام سنن الله فيهم ، فلن يخلص مما

---

(١) فى الكلام اشارة الى حديث « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » رواه الشيخان وغيرهما

قضي الله في عذابهم . فقد قص عليهم سير الاولين ، وبين لهم ما أنزل بهم عندما انحرفوا عن سننه ، وحادوا عن شرعه ، ونبذوا كتابه وراءهم ظهريا ـ احل بهم الذل ، وضرب عليهم المسكنة ، وأورث غيرهم أرضهم وديارهم ، فهل ينتظر المتبعون سننهم ، السائرون على اثرهم ، أن يصنع الله بهم غير الذى صنع بسابقيهم ؟ وقد قضى بأن تلك سنته ولن تجد لسنته تبديلا ؟

لا تزال الشدائد تنزل بهؤلاء المنتسبين الى الاسلام ولاتزال القوارع تحل بديارهم حتى يفيقوا (وقد بدءوا يفيقون من سكرتهم) ويفزعوا الى طلب النجاة ، ويغسلوا قذى المحدثات عن بصائرهم ، وعند ذلك يجدون هذا الكتاب الكريم في انتظارهم ، يعد لهم وسائل الخلاص ، ويؤيدهم في سبيله بروح القدس ، ويسير بهم الى منابع العلم ، فيغترفون منها ما يشاءون ، فيعرفون أنفسهم ويشهدون ما كان قد كمن فيها من قوة ، فيأخذ بعضهم بيد بعض ، ويسيرون الى المجد غير ناكلين ولا مخذولين

ولهذا أقول : ان الاسلام لن يقف عثرة في سبيل المدنية أبدا ، ، لكنه سيهذبها وينقيها من اوضارها ، وستكون المدنية من أقوى أنصاره متى عرفته وعرفها أهله . وهذا الجمود سيزول ، وأقوى دليل لك على زواله ، بقاء الكتاب شاهدا عليه بسوء حاله ، ولطف الله بتقييض اناس للكتاب ينصرونه، ويدعون اليه ويؤيدونه ، والحوادث تساعدهم ، وسوط عذاب الله النازل بالجامدين ينصرهم

هذا الكتاب المجيد الذى كان يتبعه العلم حيثما سار شرقا وغربا لابد أن يعود نوره الى الظهور ، ويمزق حجب هذه الضلالات ، ويرجع الى موطنه الاول في قلوب المسلمين ويأوى اليها ـــ العلم يتبعه وهو خليله الذى لا يأنس الا اليه ، ولا يعتمد الا عليه

يقول أولئك الجامدون الخامدون ـ كما يقول بعض أعداء القرآن : ان الزمان قد أقبل على آخره ، وأن الساعة أوشكت أن تقوم ، وأن ماوقع فيه الناس من الفساد ، وما منى به الدين من الكساد ، وما عرض عليه من العلل ، وما نراه فيه من الخلل ،انما هو أعراض الشيخوخة والهرم ، فلا فائدة فى السعى ، ولا ثمرة للعمل ، فلا حركة الا الى العدم ولا يصح ان يمتد بصرنا الا الى العدم ، ولا أن ننتظر من غاية لاعمالنا سوى العدم (نعوذ بالله)

هؤلاء حفدة الجهل ، واعوان اليأس ، يهرفون بما لا يعرفون . ماذا عرفوا من الزمان حتى يعرفوا أنه كاد ينقطع عند نهايته ؟ ان الذى مضى بيننا وبين مبدأ الاسلام (أى الهجرة) ألف وثلاثمائة وعشرون عاما ، وانما هى يوم وبعض يوم أو بعض يوم فقط من أيام الله تعالى . وأن آيات الله فى الكون ـ وان كانت تدل على أن مامضى على الخليقة يقدر بالدهور الدهارير ـ تشهد بأن مابقى لهذا النظام العظيم يقصر عن تقديره كل تقدير (فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا)

ان ما بيننا وبين مبدأ الاسلام لا يزيد عن عمر ستةوعشرين رجلا كل رجل يعيش خمسين سنة فهل يعد مثل ذلك دهرا طويلا بالنسبة الى دين عام كدين الاسلام ؟ ان زمنا كهذا لا يكفى ـ وقد تبين أنه لم يكف ـ لاهتداء الناس كافة بهديه . ولم تقوم القيامة على الدين ولم تقم على شرههم وطمعهم ؟

قد وعد الله بأن يتم نوره وبأن يظهره على الدين كله ، فسار فى سبيل التمام والظهور على العقائد الباطلة أعواما ، ثم انحرف به أهله عن سبيله ، وساروا به الى ما يرون ونرى ، ولن ينقضى العالم حتى يتم ذلك الوعد ، ويأخذ الدين بيد العلم ، ويتعاونا معا على تقويم العقل والوجدان ، فيدرك

العقل مبلغ قوته ، ويعرف حدود سلطته فيتصرف فيما آتاه الله تصرف الراشدين ، ويكشف ماmكنه فيه من أسرار العالمين، حتى اذا غشيته سبحات الجلال وقف خاشعا ، وقفل راجعا، وأخذ أخذ الراسخين فى العلم ، الذين قال فيهم أمير المؤمنين على بن أبى طالب (كرم الله وجهه) فيما روى عنه : « هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب ، الاقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب ، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علما ، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخا » واعتبر بعد ذلك بقوله : « فاقتصر على ذلك ولا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك ، فتكون من الهالكين ، هو القادر الذى اذا ارتمت الاوهام لتدرك منقطع قدرته ، وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوسواس أن يقع عليه فى عميقات غيوب ملكوته ، وتولهت القلوب اليه لتجرى فى كيفية صفاته ، وغمضت مداخل العقول فى حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته ، ردعها وهى تجوب مهاوى سدف (١) الغيوب متخلصة اليه سبحانه فرجعت اذ جبهت (٢) معترفة بأنه لا ينال بجور الاعتساف كنه معرفته ، ولا تخطر ببال أولى الروايات خاطرة من تقدير جلال عزته » (٣)

هنالك يلتقى (أى العقل) مع الوجدان الصادق (القلب) ولم يكن الوجدان ليدابر العقل فى سيره داخل حدود مملكته، متى كان الوجدان سليما ، وكان ما استضاء به من نبراس الدين صحيحا ، اياك أن تعتقد ما يعتقده بعض السذج من أن فرقا بين العقل والوجدان (القلب) فى الوجهة ، بمقتضى

---

(١) السدف جمع سدفة كظلمة لفظا ومعنى

(٢) جبهه ضرب جبهته ورده

(٣) هذا الكلام فيه من الصـــنعة وسمات التوليد مايدل على أنه موضوع على (على كرم الله وجهه)

الفطرة والغريزة ،فانما يقع التخالف بينهما عرضاعند عروض العلل والامراض الروحية على النفوس وقد أجمع العقلاءعلى ان المشـاهدات بالحس الباطنى (الوجـدان أو القلب) من مبادىء البرهان العقلى ، كوجدانك انك موجود ، ووجدانك لسرورك وحزنك وغضبك ولذتك والمك ونحو ذلك

منحنا العقل للنظر فى الغايات ، والاسـباب والمسـببات ، والفرق بين البسائط والمركبات ـ والوجدان لادراك مايحدث فى النفس والذات من اللذائذ وآلام ، وهلعواطمئنان ، وشماس واذعان ونحو ذلك مما يذوقه الانسان ، ولا يحصيه البيان ، فهما عينان للنفس تنظر بهما ، عين تقع على القريب : واخرى تمـد الى البعيـد ، وهى فى حاجة الى كل منهما ولا تنتفع باحداهما حتى يتم لها الانتفـاع بالاخـرى ، فالعلم الصحيح مقوم الوجدان ، والوجدان السليم من اشد اعوان العـلم . والدين الكامل علم وذوق ، عقل وقلب ، برهان واذعان ، فكر ووجدان . فاذا اقتصر دين على أحد الامرين فقد سقطت احدى قائمتيه ، وهيهات أن يقوم على الاخرى ، ولن يتخالف العقل والوجدان حتى يكون الانسان الواحد انســانين ، والوجود الفرد وجودين

قد يدرك عقلك الضرر فى عمل ولكنك تعمله طوعا لوجدانك، وربمـا ايقنت المنفعة فى أمـر وأعرضت عنه اجابة لدافع من سريرتك ، فتقول ان هذا يدل على تخالف العقل والوجدان ، ولكنى اقول : ان هـذه حجة من لا يعرف نفسـه ولا غيره ، عليك ان ترجع الى نفسك فتتحقق من أحد الامرين ـ اما ان يقينك ليس بيقين ، وانه صورة عرضت عليك من قول غيرك، فانت تظنها علما وما هى به ، واما أن وجـدانك وهم تمكن فيك ، وعادة رسخت فى مكان القوة منك ، وليس بالوجدان الصحيح ، وانما هو عادة ورثتها عمن حولك وظننتها شعورا

منبعه الغريزة وما هي منه في شيء .
لابد أن ينتهي أمر العالم الى تآخي العلم والدين ، على سنة القرآن والذكر الحكيم ، ويأخذ العالمون بمعنى الحديث الذي صح معناه « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله » ، وعند ذلك يكون الله قد اتم نوره ولو كره الكافرون وتبعهم الجامدون القانطون ، وليس بينك وبين ما أعدك به الا الزمان الذي لابد منه في تنبيه الغافل ، وتعليم الجاهل ، وتوضيح المنهج ، وتقويم الاعوج ، وهو ما تقتضيه السنة الألهية في التدريج (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا * انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا * أن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) وهو خير الناصرين

الإسلام
ومدنية أوربا

تمهيد

لم يبق علينا من الكلام الا ما يتعلق بالامر الرابع مما ذكرته الجامعة (١) وهو « ان تمكن العلم والفلسفة من التغلب على الاضطهاد المسيحي في أوربا وعدم تمكنهما من التغلب على الاضطهاد الاسلامي دليل واقعي على أن النصرانية كانت اكثر تسامحا مع الفلسفة »

ليس من السهل على أن أعتقد أن اديبا كصاحب الجامعة يقول هذا القول ـ وهو ناظر الى الحقيقة بكلتا عينيه مع معرفته بلسان الغربيين واطلاعه على ما كتبوا في هذه المسألة وهي من أهم المسائل التاريخية ـ وانما هي عين الرضا تناولت من حاضر الحال ومما انتهى اليه سير التاريخ ما تناولت ، ثم أملت على قلبه ماجرى به قلمه

هل يصح أن تسمى الاستكانة للغالب تسامحا ؟ وهل يسمى العجز مع التطلع للنزاع عند القدرة حلما ؟ أم يسمى غل الايدي عن الشر بوسائل القهر كرما ؟ هل تعد مساكنة جناب البابا للملك ايطاليا في مدينة واحدة واجتماع الكرسيين العظيمين : كرسي المملكة الايطالية وكرسي المملكة البابوية ـ في عاصمة واحدة تسامحا من قداسة البابا مع الملك ؟ أليس الاجدر بالمنصف أن يسمى ذلك تسامحا من الملك مع البابا ، لأنه صاحب القوة والجيش والسلطنة ، ويمكنه أن يسلب

---

(١) كلام الجامعة في نقد الاسلام كان مبنيا على أربعة أمور ، تقدم الرد على ثلاثة منها ، وفي هذا المقال الرد على الرابع

البابا تلك الثمالة التى بقيت له من السلطة الملكية ؟ كما أن الأليق به أن يسمى تلك الحالة التى عليها أهل أوربا اليوم من طمأنينة العلم بينهم بجانب الدين — تساهلا من العلم مع الدين ، لا تسامحا من الدين مع العلم ، بعدما كان بينهما من الحوادث ما كان ، وبعد غلبة العلم واسـتيلائه على عرش السلطان فى جميع الممالك ورضاء الدين بأن يكون تابعا له فى أغلبها

اقتباس أوربا من مدنية الاسلام

السبب الأول : الجمعيات

كان جلاد بين العلم والدين فى أوربا وتألفت لنصرة العلم جمعيات وأحزاب ، منها ما اتخذ السر حجابا له حتى يقوى . ومنها ما ابتدأ بالمجاهرة . وكان الدين يظفر بالعلم كما سبق بيـانه ، لكثرة أعوانه وضـعف أعوان العلم ، حتى أشرقت الآداب المحمدية على تلك البلاد من سـماء الاندلس ، وتبع اشراق تلك الآداب واشتغال الناس بها سـطوع نور العـلم العربى من الجانب الشرقى كما ذكرنا . وقد وجـد هـذان النوران استعدادا من النفوس للاستضاءة بهما فى السـبيل التى تؤدى بهما الى المدنية التى كانا يحملانها . هذا الاستعداد كسبته الانفس بما ضايقها من غلو رؤساء الدين فى استعمال سلطانهم ، واشتدادهم فى اسـتعباد العقل والوجـدان حتى ضاق ذرع الفطرة عن الاحتمال ، فأخذ الشـعور الانسـانى يتلمس السـبيل الى الخـلاص ، واذ لاح له هـذان النوران اتخذهما له هداية ، واستقبلهما بوجهه . وكان بعد ذلك ما كان من تأثر الدين لاهل العلم واحراقهم بالنيران ، ونفيهم من الاوطان ، ومقاومة رؤساء الدين للحكومات ولاهل الافـكار المستقلة ، فى أدنى الاشياء وأعلاها ، حتى انه عندما شرع ملوك فرنسا فى فرش شوارع باريس بالبلاط على الاسلوب الذى وجدوه فى مدينة قرطبة ، وصدر الامر بمنع تربية الخنازير

فى تلك الشوارع ، اغضب ذلك قسس القديس انطوان . ونادوا بأن خنازير القديس لابد أن تمر فى الشوارع على حريتها الاولى ، وحصل لذلك شغب عظيم اضطر الحكومة أن تسمح بذلك مع صدور الامر بأن توضع فى اعناقها اجراس. وقالوا أن الملك فيليب السمين مات بسقطة عن فرسه عندما انزعج الفرس من منظر خنزير وصلصلة الجرس فى عنقه

لقائل ان يقول : ان القسس فى ذلك الزمان كان يمكنهم أن يمتنعوا من وضع الاجراس فى اعناق الخنازير فرضاهم بذلك يعد تسامحا عظيما مع العلم (أو الصناعة)

ويسهل على ان اوافقه على أن مثل هذا الضرب من التسامح فى اجراس الخنازير كان يظهر من حين الى حين ، الا انه فيما اظن لا يكفى فى تشييد هذه المدنية التى يفتخر بها الاوربيون اليوم ونحن لا نبخسها قدرها كذلك

السبب الثانى : الضغط الدينى

شدة الحاجة وغلو الرؤساء كانا يوقدان الغيرة فى قلوب طلاب العلوم فلم تفتر لهم همة ،فعظم امرهم واكتشفوا كثيرا من الحقائق التى نفعت العامة ونبهت العقول للاخذ بما يهتدون اليه ، وصارت الحرب بينهم وبين رؤساء الدين سجالا ، الى ان ظهر دعاة الاصلاح الدينى « البروتستانت» فانضم دعاة العلم اليهم ظنا منهم ان سيكونون معهم من المجاهدين فى سبيل العلم . وكان منهم « ايراسم » الشهير، فلما انتصر طلاب الاصلاح ودالت لهم دولة استمروا يعاقبون بالموت على الافكار التى تخالف ظاهر ما يعتقدون كما تقدم ، فانفصل ايراسم ومن معه من حماة الحرية واستقلال الارادة الشخصية ، وترك المصلحين يتفرقون شيعا ويقتل بعضهم بعضا ، وقال : ما كنت اظن أن دعاة الاصلاح يكونون كذلك أعداء العلم

هذه الطوائف التى تفرقت عقائدها فى الاصلاح لم تنتظر الا ان تأمن من عدوها العام ،وهو الكنيسةالكاثوليكية الرومانية، فلما امنتها اخذ بعضها يصول على بعض ، واشتعلت نيران الحروب بينهم . قال احد افاضل مؤرخيهم « وكلما ارتفعت طائفة منهم الى عرش القوة ، لوثت يديها بالجرائم فى العمل لافناء البقية ، حتى سئمت النفوس دوام تلك الحال ، ووجدت من توالى حوادث الانتقام وظهور مضاره فى كل طائفة ان الافضل لكل طائفة ان تمنح الاخرى من الحرية مالا تستغنى عنه واحدة منهما ، والعلم كان يعمل عمله فى كشف الحقائق وترقية الآداب ، وكان من اقوى المنبهات الى مضار الحروب ومفاسد العدوان على حرية الاشخاص ، من اية طائفة كانت، من هذا نشأ ذلك الاصل العظيم : اصل التسامح والرضا بمجاورة المخالف فى الراى : نشأ من القهر والقسوة التى كانت كل طائفة تعامل بها الاخرى » انتهى كلام المؤرخ بالمعنى

السبب الثالث : الثورة

ولا حاجة بى الى ذكر ماجاءت به الثورة الفرنسية وكيف كانت قيامتها على الدين ورؤسائه مما هو معلوم ، وانما انبه القارىء الى الاعتبار بما تقدم من القول ، وبما يمكنه ان يقف عليه فى كتب القوم ، ليعلم ان الدين المسيحى فى اوربا لم يحتمل العلم فضلا وكرما ، وانما قويت عليه احزاب العلم فساموه استكانة وخضوعا ، ولو شاء الا يحتمل لم يستطع الى ذلك سبيلا

السبب الرابع : ترك المسيحية

رؤساء الدين المسيحى رجال ذوو عزيمة واقدام وغيرة على دينهم ، قلما يدانيهم فيها رؤساء دين من الاديان ، وهم مع غلوهم فى الدين واشتدادهم فى استعمال سلطانهم على

النفوس ، كانوا ولا يزالون يتخذون كل وسيلة لتأييد دينهم ، وهم اشد الناس حرصا على تقويم اركانه ودفع الشبه عنه ، ولم يزدهم العلم الجديد الا وســـائل وسبلا لترويج عقائده وآدابه، ولم تفتر لهم همة فى نشره وتزيينه للقلوب، ومعذلك كله نرى أن رجال العلم وحماة المدنية يتسللون منه ، والعامة من الشعوب فى تخاذل عنه . والامة الفرنسية ـ التى كانت تدعى بنت الكنيسة ـ اصبحت من اشد الناس عليه ، ورأت فلسفتها ان تحدد حرية أهل الدين فى تعاليمهم واجتماعهم: كل ذلك ومدارس اللاهوت لا تزال عامرة ، وطـــلاب اللاهوت يعدون بالالوف ، كل ذلك وكثير من الدول يرى من مزاياها حماية الدين المسيحى فى اقطار الارض

قال احد رؤساء البروتستانت ـ فى خطبة من خطبه التى القاها فى بعض البلاد الفرنسية سنة ١٩٠١ ، بعد كلام له فى ان المسيحية رومانية او بروتستانتية فقدت خاصتها الدينية كما فقدت فائدتها الاجتماعية ـ مانصه مترجما: « اذا كان الدين المسيحى ليس شيئا سوى الكثلكة المحتاجة الى الاصلاح (المذهب الرومانى) او الكثلكة التى دخلها الأصلاح بالفعـــل (المذهب البروتستانتى) فالقرن الموفى للعشرين (القـــرن الحاضر) لا يكون مسيحيا أبدا »

وقد جاء فى كلام هذا الخطيب ما يصرح بانه يريد أن يطلب للمسيحية معنى آخر ينطبق كل الانطباق على اعتقاد المسلمين فيها ، فان وفق للنجاح فى سعيه زال الخلاف ـ ان شاء الله ـ بين الدين والعلم ، بل بين المسيحية والاسلام

عود الى سماحة الاسلام

آخذ بيد القارىء الآن ، وارجع به الى مامضى من الزمان ، واقف به وقفة بين يدى خلفاء بنى أمية والائمة من بني العباس ووزرائهم ـ والفقهاء والمتكلمون والمحدثون والائمة المجتهدون

من حولهم ، والأدباء والمؤرخون والاطباء والفلسكيون والرياضيون والجغرافيون والطبيعيون وسائر أهل النظر من كل قبيل مطيفون بهم ، وكل مقبل على عمله ، فاذا فرغ عامل من العمل اقبل على أخيه ووضع يده فى يده ، يصافح الفقيه المتكلم والمحدث الطبيب والمجتهد الرياضى والحكيم ، وكل يرى فى صاحبه عونا على مايشتغل هو به ــ وهكذا أدخل به بيتا من بيوت العلم فاجد جميع هــؤلاء سواء فى ذلك البيت يتحادثون ويتباحثون ، والامام البخارى حافظ السنة بين يدى عمران بن حطان الخارجى يأخذ عنه الحديث ، وعمرو بن عبيد رئيس المعتزلة بين يدى الحسن البصرى شيخ السنة من التابعين يتلقى عنه ، وقد سئل الحسن عنه فقال للسائل « لقد سألت عن رجل كان الملائكة ادبته ، وكان الانبياء ربته ، ان قام بأمر قعد به ، وان قعد بأمر قام به ، وان امر بشيء كان الزم الناس له ، وان نهى عن شيء كان اترك الناس له ، ما رأيت ظاهرا أشبه بباطن منه ، ولا باطنا اشبه بظاهر منه »

بل أرفع بصرى فاجد الامام أبا حنيفة أمام الامام زيد بن على (صاحب مذهب الزيدية من الشيعة) يتعلم منه أصول العقائد والفقه ، ولا يجد احدهم من الآخر الا ما يجد صاحب الرأى فى حادثة ممن ينازعه فيه اجتهادا فى بيان المصلحة ، وهما من أهل بيت واحــد ــ امر به بين تلك الصفوف التى كانت تختلف وجهتها فى الطلب وغايتها واحدة وهى العلم ، وعقيدة كل واحد منهم أن فكر ساعة خير من عبادة ستين سنة كما ورد فى بعض الاحاديث

الخلفاء ائمة فى الدين مجتهدون وبأيديهم القــوة وتحت أمرهم الجيش ، والفقهاء والمحدثون والمتكلمون ، والائمــة المجتهدون الآخرون هم قادة أهل الدين ومن جند الخلفاء ، الدين فى قوته والعقيدة فى أوج سلطانها ، وسائر العلماء ممن

ذكرنا بعدهم يتمتعون فى أكنافهم بالخير والسعادة ورفه العيش وحرية الفكر ، لا فرق في ذلك بين من كان من دينهم ومن كان من دين آخر ، فهنالك يشير القارىء المنصف الى أولئك المسلمين ، وأنصار ذلك الدين ، ويقول : ههنا يطلق اسم التسامح مع العلم فى حقيقته ، ههنا يوصف الدين بالكرم والحلم ، ههنا يعرف كيف يتفق الدين مع المدنية ، عن هؤلاء العلماء الحكماء تؤخذ فنون الحرية فى النظر ، ومنهم تهبط روح المسالمة بين العقل والوجدان (أو بين العقل والقلب كما يقولون)

يرى القارىء انه لم يكن جلاد بين العلم والدين . وانما كان بين أهل العلم وبين أهل الدين شيء من التخالف فى الآراء ، شأن الاحرار فى الافكار الذين أطلقوا من غل التقييد ، وعوفوا من علة التقليد ، ولم يكن يجرى فيما بينهم اللمز والتنابز بالالقاب ، فلا يقول أحد منهم لآخر انه زنديق او كافر أو مبتدع ، او ما يشبه ذلك . ولا تتناول احدا منهم يد بأذى ، الا اذا خرج عن نظام الجماعة ، وطلب الاخلال بأمن العامة ، فكان كالعضو المجذوم فيقطع ليذهب ضرره عن البدن كله

ملازمة العلم للدين
وعدوى التعصب فى المسلمين

متى ولع المسلمون بالتكفير والتفسيق ورمى زيد بأنه مبتدع وعمرو بأنه زنديق ؟

أشرنا فيما سبق الى مبدأ هذا المرض ، ونقول الآن : ان ذلك بدأ فيهم عندما بدأ الضعف فى الدين يظهر بينهم ، وأكلت الفتن أهل البصيرة من أهله ـ تلك الفتن التى كان يثيرها أعداء الدين فى الشرق وفى الغرب لخفض سلطانه ، وتوهين أركانه ـ وتصدر للقول فى الدين برأيه من لم تمتزج روحه بروح الدين ، وأخذ المسلمون يظنون أن من البدع فى الدين مايحسن

أحداثه لتعظيم شأنه تقليدا لمن كان بين أيديهم من الامم المسيحية وغيرها . وانشئوا ينسون ماضى الدين ومقالات سلفهم فيه ، ويكتفون برأى من يرونه من المتصدرين المتعالمين ، وتولى شئون المسلمين جهالهم ، وقام بارشادهم فى الاغلب ضلالهم ، فى أثناء ذلك حدث الغلو فى الدين ، واستعرت نيران العداوات بين النظار فيه ، وسهل على كل منهم لجهله بدينه ان يرمى الآخر بالمروق منه لادنى سبب ، وكلما ازدادوا جهلا بدينهم ازدادوا غلوا فيه بالباطل ودخل العلم والفكر والنظر (وهى لوازم الدين الاسلامى) فى جملة ماكرهوه ، وانقلب عندهم ما كان واجبا من الدين محظورا فيه

لا اكاد اخطىء القارىء اذا زعم أن المسلم انما استفاد اسم زندقة وتزندق ومتزندق وزنديق من فضل ما علمه جيرانه اذ كانوا يقولون : هرتقه وتهرتق وهو هرتوقى : أو ما يماثل ذلك ـ أو زعم ان قد فشت فى المسلمين سرعة التكفير بطريق العدوى من أهل الملل المتشددة . وان الذى سهل سريان العدوى بتلك السرعة الشديدة هو ضعف المزاج الدينى عند المسلمين بجهلهم بأصوله ومقوماته، ومتى ضعف المزاج استعد لقبول المرض كما هو معلوم

ان المسلمين لما كانوا علماء فى دينهم كانوا علماء الكون وائمة العالم ، ولما اصيبوا بمرض الجهل بدينهم انهزموا من الوجود واصبحوا اكلة الآكل ، وطعمة الطاعم ، هل وقف الجهل بالمسلمين عند تكفير من يخالفهم فى مسائل الدين أو يذهب مذهب الفلاسفة أو ما يقرب من ذلك ؟ لا ، بل عدا يهم الجهل على ائمة الدين ، وخدمة السنة والكتاب ، فقد حملت كتب الامام الغزالى الى غرناطة وبعد ما انتفع بها المسلمون ازمانا هاج الجهل بأهل تلك المدينة وانطلقت السنة المتعالمين من البربر بتفسيقه وتضليله ، فجمعت تلك الكتب خصوصا نسخ

« احياء علوم الدين » ووضعت في الشارع العام في المدينة واحرقت . قال قوم يعدون انفسهم مسلمين في ابن تيمية ــ وهو اعلم الناس بالسنة واشدهم غيرة على الدين ــ : انه ضال مضل . وجاء على اثر هؤلاء مقلدون يملئون افواههم بهذه الشتائم وعليهم اثمها واثم من يقفوهم بها الى يوم القيامة

اهمال آثار السلف

اهمل المسلمون علوم دينهم ، والنظر في أقوال سلفهم ، حتى انك لا تجد اليوم في أيديهم كتابا من كتب ابي الحسن الاشعري ولا ابي منصور الماتريدي ، ولا تكاد ترى مؤلفا من مؤلفات أبي بكر الباقلاني اوابي اسحاق الاسفرايني ، واذا بحثت عن كتب هؤلاء الائمة في مكاتب المسلمين أعياك البحث ، ولا تكاد تجد نسخة صحيحة من كتاب

كتب على القرآن تفاسير كثيرة في القرن الثالث من الهجرة وما بعده الى السادس . منها تفسير الطبري وتفسير ابي مسلم الاصفهاني وتفسير القرطبي وتفسير الجصاص وتفسير الغزالي وتفسير ابي بكر بن العربي وكثير غيرها وفيها من آراء اولئك الائمة ووجوه استنباط الحكم والاحكام مالا غنى لطالب علم الدين عنه ، فهل يجد الباحث المجد نسخة من هذه الكتب الجليلة يمكن الوثوق بصحتها الا بطريق المصادفة وحسن الاتفاق ؟ وهل يليق بامة تدعي انها على دين ، وان لها فيه سلفا ، ان تهجر آثار سلفها ، وتدع ما كتبوا طعمة للعث وفراشا للتراب ؟ هل وقع مثل ذلك من المشتغلين باللاهوت المسيحي في زمن من الازمان ؟

ان حالة طلبة العلوم الدينية الاسلامية اصبحت مما يرثى له في اكثر بلاد المسلمين ، فهم لا يقرءون من كتب الكلام الا مختصرات مما كتب المتاخرون . يتعلم اذكاهم منها ما تدل عليه عباراتها ، ولا يستطيع أن يتعلم البحث في ادلتها ،

وتصحيح مقدماتها ، وتمييز صحيحها من باطلها ، وانما يتلقاها كانها كتاب الله او كلام نبيه صلى الله عليه وآله وسلم يأخذ ما فيها بالتسليم . فاذا ناظره مناظر فى بعض قضاياها وعجز عن تصحيحه قطع الجدال بقوله : هكذا قالوا . وان لم يكن القول متفقا عليه . بل قد يكون القول مما لم يقل به سوى صاحب الكتاب الذى اشتغل به ، وربما كان صاحب الكتاب ممن لو رآه احد من السلف لم يرضه تلميذا يعى عنه مايقول

كاد ينقطع طلب العلوم الدينية فى سورية والحجاز وتونس والجزائر ، وقل جدا فى المغرب الاقصى ، ولم يبق الاهتمام به الا فى بعض الصحارى ، وذلك اما لصعوبة طرق التعليم ، واقتضائها الزمن الطويل — وحاجات الناس مانعة لهم من افناء اعمارهم فى عمل لايسد من حاجتهم — واما لتفضيل الآباء تربية ابنائهم على الطرق الحديثة فى اوربا او فى المدارس الاخرى وليس فيها من الدين شيء ، وان كان فيها شيء منه فهو مما لايعد تعليما دينيا ينظر اليه — واما للفتور والخمود ، اللذين نشأ عن التقليد والجمود . وبذلك تجد المسلمين قد تولاهم الجهل بدينهم ، واخذتهم البدع من جميع جوانبهم ، وانقطعت الصلة الحقيقية بينهم وبين سلفهم ، حتى لو عرض على الجمهور الاعظم منهم ما اتفق عليه السلف من الاحكام لا نكروه واستغربوه وعدوه بدعة فى الدين . وصح فيهم ما قال عمر الخيام فى بعض اشعاره الفارسية مخاطبا للنبى عليه الصلاة والسلام « ان الذين جاءوا بعدك زينوا لك دينك ووشوه وزركشوه حتى لو رايته انت لانكرته »

فهذا الصنف من المسلمين — وهو معظمهم — قد انكر دينه الحق وعاداه ، ونقم على أهله القائمين بخدمته ، وانما اصطفى لاعتقاده بعض افراد لم يعرف عن السلف اختصاصهم بالثقة ، ولم يسمح الدين باختصاصهم بالتقليد ، فاذا وقع من هذا

الصنف ما فيه أذى للعلم واهله ، فهل بعد ذلك واقعا من دين الاسلام ــ دين محمد صلى الله عليه وسلم ــ دين القرآن ــ دين السنة الثابتة ــ دين الخلفاء الراشدين ، ومن تبعهم من السلف الاولين ؟

متابعة العلم للاسلام ومباينته لسواه

الحق اقول ــ والحس يؤيدني : ما عادوا العلم ولا العلم عاداهم الا من يوم انحرافهم عن دينهم ، واخذهم في الصد عن علمه ، فكلما بعد عنهم علم الدين بعد عنهم علم الدنيا وحرموا ثمار العقل . وكانوا كلما توسعوا في العلوم الدينية ، توسعوا في العلوم الكونية ، وضربوا الزمان بسوط من العزة ، واما غيرهم فكلما اتصلوا بالدين وجدوا في المحافظة عليه انكرهم العلم وتجهمهم واكفهر وجهه للقائهم ، وكلما بعدوا من الدين سالمهم العلم وبش في وجوههم . ولذلك يصرحون بأن العلم من ثمار العقل ، والعقل لا يصح أن يكون له في الدين عمل ، ولا ان يظهر منه فيه أثر ، والدين من وجدانات القلب ، ولا علاقة بين ما يجد القلب وما يكسب العقل . فالفصل تام بين العقل والدين ، ولا سبيل الى الجمع بينهما : سامحهم الله فيما يسمونه تسامحا مع العلم ، وهم يصرحون بانه عدوه الذى يستحيل أن يكون بينه وبينه سلم

هل عرفت السبب في اضطهاد المسلمين للعلم ؟ اقول « اضطهاد » ولا أريد به ما كان عند الامم المسيحية من الاشتداد في ابادة أهله والتنكيل بهم ، واختراع ضروب التعذيب ، والتفنن في صنع آلات الهلاك ، مع الاخذ بالشبهة ، والاكتفاء في الاعدام بمجرد التهمة ، فان ذلك لم يقع عند المسلمين لا أيام علمهم ، ولا في ازمنة جهلهم ، ولكن أريد من الاضطهاد الاعراض عن العلم ، ورمى الألفاظ السخيفة في وجوه أهله ، وقذفهم بشيء من الشتائم مع الابتعاد عنهم

لا ريب انك قد ايقنت بان السبب في هذا الذي يسميه الاديب اضطهادا — انما هو جهلهم بدينهم . فالدواء الذي ينجع في شفائهم من هذا الداء لا يكون الا ردهم الى العلم بدينهم ، والتبصر فيه ، للوقوف على أسراره والوصول الى حقيقة ما يدعو اليه ، كان الدين واسطة التعارف بينهم وبين العلم ، فلما ذهبت الواسطة تناكرت النفوس وتبدل الانس وحشة

الدعاة في الإسلام

فهل قام بينهم دعاة للعلم حقيقيون ، أو دعاة لاصول الدين عارفون ، ثم استعصت قلوب المسلمين عليهم ، وجمحت نفوسهم عن الانقياد لهم ؟ وهل كثر أولئك الدعاة في أطراف بلاد المسلمين كثرتهم في أوربا من أواسط القرن السابع عشر من التاريخ المسيحي الى أن ظهرت قوة العلم في أوائل القرن السابع عشر وفيما بعد ذلك ؟ لا . انما رأينا من الصادقين افرادا يظهرون متفرقين في عصور مختلفة ، ربما لا يجتمع اربعة منهم — فما يزيد — في قرن واحد ، ويأخذون في العمل لما وجهوا اليه ، ثم لا يكادون ينطقون ببعض الكلم ، فيحس الناس بهم ، فيأخذ المستعد أهبته لمفارقة ماكان عليه واتباعهم حتى تشعر السياسة (نعوذ بالله منها) بما عسى أن يكون من أمرهم فتخمد أنفاسهم ، قبل ان يبلغوا من قلب أحد ما ارادوا من غرس أفكارهم ، فينطفىء النور ، ويدلهم الديجور

فهل يعد الاديب هذه الضربات من أيدى أرباب السياسة اضطهادا للعلم لأجل حماية الدين ؟ أنزه كل اديب عن أن يظن ذلك ، وانما هي صدمات تقع على الدين لا تختلف عن امثالها مما يصيبه منهم مباشرة ، فلا تعد حجة على الدين في نظر المنصف

التقليد دون التقليد

ربما يقول القائل : ان كان المسلمون قد أخذوا الجمود في

التقليد والنفرة من العلم والاعتقاد بالعداوة بين الدنيا والآخرة وبين العقل والدين وما اشبه ذلك مما هم فيه ، وورثوه عن الامم السابقة عليهم خصوصا اقرب الملل اليهم . فما بالهم لم يقلدوا المسيحيين فى الحرص على نشر دينهم ، والتوسيع فى علومه مذيلا بما اخذوه عنهم ، ولم يقسموا انفسهم قسمين كما قسم المسيحيون اخوانهم قسمين : قسما ينقطع الى الآخرة فى الاديار والصوامع ، وقسما يشتغل بالدنيا ليقيت نفسه ويقيت أهل القسم الاول ، ويحمى نفسه ويحميهم من العدوان ؟ وما لك ترى المسلمين خملوا وارتخت أعصابهم ، وسئموا النظر فى علوم دينهم كما ذكرت ، ثم صاروا أبعد الناس عن معرفة الطرق لتحصيل الغنى والثروة ، والقبض على ناصية القوة وصولجان العزة ؟ وطرحوا انفسهم فى تيار من القدر كما يقولون ، يجرى بهم الى حيث لا يعلمون ؟ ثم هم مع ذلك احرص الناس على حياة ، واشدهم لهفا على الحطام ، فلا ترى الجمهور منهم فى شىء للدين ولا للدنيا فما هذا التناقض ؟

فاقول له : انك قد نسيت ان المقلد يكون دائما أحط حالا واخس منزلة من المقلد . فالمقلد انما ينظر من عمل المقلد الى ظاهره ولا يدرى سره ولا مابنى عليه . فهو يعمل على غير نظام ، ويأخذ الامر لا على قاعدة ، ولذلك سقط المسلمون فى شر مما كان عليه مقلدوهم ، لاسيما انهم قد خلطوا فى التقليد واضافوا الى دينهم مالا يمكن أن يتفق معه ، فصاروا فى مثل حال المتخبط الذى تنازعه عدة قوى يذهب مع كل منها آنا ثم ينتهى أمره بعد الخيبة بالتعب الشديد ، فيستلقى الى أن يستريح ، فينهض الى العمل على هدى أو يموت

لما كان المسلمون علماء كانت لهم عينان : عين تنظر الى الدنيا والاخرى تنظر الى الآخرة ، فلما طفقوا يقلدون اغمضوا احدى

العينين ، واقذوا الاخرى بما هو أجنبى عنهم ، فقدوا المطلبين، ولن يجدوهما الا بفتح ما اغمضوا ، وتطهير ما اقذوا

الاصلاح والمصلحون

للقائل ان يقول : كيف تدعي ان دعاة العلم والدين قليلٌ بين المسلمين مع اننا نسمع اصواتهم تتلاقى فى جو مصر وسورية وغيرهما من البلاد فى هذه الايام ؟ كل يقول : دينى ملتى ، اسلام مسلمون ، قرآن سنة ، مجد الاسلام القديم ، سلفه الصالحون ، تعلم ، تعليم ، كتب قديمة كتب جديدة ، وما يشاكل ذلك مما يظهر منه ان الداعين الى العلم او المنبهين الى الاخذ باصول الدين الاسلامى كثيرون ، ولا نرى مع ذلك من اغلب المسلمين الا آذانا صما واعينا عميا ، وصدا عما يدعو اليه هؤلاء ؟

ويمكننى ان اقول له : ان الصادق فى هؤلاء ليس بكثير عده ، والجمهور منهم قلما يخلص قصده ، وما تجد اكثرهم الا متجرين بهذه الكلمات ، لكسب بعض دريهمات ، ويظهر لك ذلك من انهم يلفظون هذه الاسماء وقلما يدرسون شيئا من مدلولاتها ليقفوا على الحقيقة منه ، وانما يلقف بعضهم عن بعض ظواهر كالزبد لا تمكث فى الارض . واما الصادقون على قلتهم فقد بدأ بعض الناس يسمعون مايقولون ، ويطلبون الرشاد مما يعلمون ، خصوصا فى امر الدين والجمع بينه وبين مصـــــالح الدنيا ، ولا سيما فى بلاد الهند وبين مسلمى روسيا . ولكن الاصلاح ليس ريحا تهب فتمسح الارض من الشرق الى الغرب فى وقت قريب فانتظر

قد يقول القائل : لم لم يكثر هؤلاء كثرتهم بين الاوربيين فيما مضى ، حتى يغلبوا الظالمين من اهل السياسة ويستميلوا العادلين منهم اليهم ، وينهضوا بالمسلمين من هذه الرقدة التى طال امدها عليهم ؟ ولم لا يزال اهل البصيرة منهم قليلين

متفرقين يهمسون بالقول ولا يجهرون ، وليس للعلم فيهم دعاة عمليون ؟ أليس ذلك سبيلا لمؤاخـــذة الاسلام وحجة عليه ؟

واقول له : ان حظ المسلمين لا يصح أن يكون أسعد من حظ مقلديهم ، بل المنتظر ان يكون أتعس ، وقد اقامت المسيحية مايزيد على الف سنة قبل أن يظهر فيها العلم ، أو تنشأ الحرية الشخصية ، أو تسرى فيها الحركة العلمية ، الى مافيه صلاح الجمعية الانسانية ، مع توالى المنبهات ، وتواصـل الصدمات اثر الصدمات ، ولم يمض على المسلمين من يوم استحكمت فيهم البدعة ، واطبقت عليهم ظلم المحدثات ، ودخلوا جحر الضب الذى دخله من كان قبلهم الا اقل من ثمانمائة سنة ، فلم يمض عليهم وهم فى بدعهم الجديد ، ذلك الزمن الذى قد يكون عمرا لمثل هذه الحالة ، ثم تقضى نحبها فى آخره . وما أظن ان يمر على المسلمين مثل تلك المدة قبل أن يبلغوا من صلاح الدين والدنيا ماهم أهل له

الفرق بين التعصبين

وعلى كل حال لا يجوز فى شريعة الانصاف ان يذكـر المسلمون فى جانب جمهور المسيحيين اذا ذكر الغلو فى التعصب الدينى فضلا عن أن يقال ان المسلمين اشد افراطا فيـه . والشاهد يدلنا على انه قد يكون للمسلمين فى التعصب الفاظ وكلمات ، ولكن الذى يكون من جمهور المسيحيين انما هـو أعمال وضربات فى المعاملات ، وما على طالب الحقيقة الا أن يسيح بفكره فى مثل المستعمرات الهولاندية فى الشرق . ومملكة الترنسفال قبل سقوطها ، وبلاد الناتال فى الجنوب ، ثم يرجع الى بعض بلاد الروسيا فى الشمال من قبل عشرين سنة ، ثم يرجع الى الجزائر وما يليها فى جهة الغرب ، ليعلم كيف تكون الشدة فى المعاملة مع غير أهل المذاهب المسيحية ، وكيف يبلغ

التعصب من اهله حدا تنظر اليهم فيه الانسانية شزرا ، ولا تقبل لهم فيه المدنية عذرا

ما على الباحث الا ان ينظر فيما يكتبه الكتاب الفرنسيون ليعلم انهم فى حيرة من امرهم مع المسلمين ، يريدون أن تكون لحكومتهم طمانينة فيما ملكت من بلاد المسلمين ولكن حكومتهم لا تجد السبيل اليها مع ما اتخذته قاعدة لعملها وهو الشدة والافراط فى القسوة على المسلمين خاصـــة وحدهم دون سواهم ، وارباب الاقـلام يبحثـون عن تلك الطمانينة مع المحافظـة على تلك القســوة ، ويابى الله ان يعثرهم على مايبحثون عنه ، لانهم يطلبون الجمع بين الضدين فى موضوع واحد وهو محال كما يقرره فلاسفتهم(١)

---

(١) آخر ما استقر عليه رأيهم وشرعت دولتهم في تنفيذه هو اخراج المسلمين من دينهم ولغتهم (العربية) بكل ما يمكن من وسائل العلم والتعليم والاكراه والاجبار وعدم تمكينهم مع ذلك من تعلم العلوم الطبيعية والاجتماعية والقانونية لئلا يطالبوا بالاستقلال الوطني او المالي ، وقد حملت في الماضي أن أكرهوا سلطان المغرب على توقيع مرسوم يخول الحكومة الفرنسية الحامية له تنفيــذ ذلك في شعب البربر ، فانشات لهم قانونا بربريا بعيــدا عن الشريعة الاسلامية بعد الكفر عن الايمان في الاحكام الزوجية والارث وغير ذلك ، ومدارس تعلمهم بها دين النصرانية باللغة الفرنسية ، واللغة البربرية بالحروف اللاتينية ، وتحرم عليهم تعلم اللغة العربية والديانة الاسلامية ، حتى اذا ما تم لها اخراج البربر من الاسلام أكرهت العرب على ذلك ومن أبى تطرده من البلاد • وأما ايطالية الكاثوليكية الموالية للبابا فقـد حاولت حين احتلالها ليبيا استئصال المسلمين من قطر طرابلس الغرب وبرقة وجعل بقايا اطفالهم ايطاليين كاثوليكيين بالقوة القاهرة تنكيلا وتقتيلا !! (والله أشد باسا واشد تنكيلا) وفي الجزائر وتونس فرضت اللغة الفرنسية على الاهالي ، وحرمت التعليم باللغة العربية ، وحاربت المدارس الاهلية الاسلامية ، واضطهدت علماء المسلمين حتى هاجر الكثيرون من بلادهم الى مصر وسورية

الفهرس

صفحة

وكلاء مجلات دار الهلال

لبنـــان و الاقليم الشمالي : وكالة الهلال ــ شارع فرنسا
صندوق البريد ٣١٥٧ ــ بيروت

العـــراق : السيد محمود حلمي ــ المكتبة العصرية
بيغداد

اللاذقيـــة : السيد نخلة سكاف

جـــدة : السيد هاشم بن علي نحاس ــ ص . ب ٩٣٤

البحـــرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ــ ص . ب ــ ٢١

البـــرازيل :
Dr. Michel H. Tomé,
Pateo Do Colegio No. 3
3° Andar — Sala 9
SAO PAULO — BRASIL

غـــانا :
Mr Joseph Hassan,
The Cine Travel Co.,
P.O. Box 1883,
ACCRA, GHANA

سيراليـــون :
Messrs. Allie Mustapha & Sons,
P.O. Box 410,
Freetown Sierra Leone

سنغـــافورة
Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Saasit,
Alsaktab Attijari Assharqi,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

انجـــلترا :
ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU,
7, Bishopsthorpe Road,
London S. E. 26,
ENGLAND

هذا الكتاب

كان الأستاذ الإمام محمد عبده شخصية بارزة في عدة ميادين : العلم والتعليم والدين والسياسة ، وكانت له جولات وصولات في كل هذه الميادين ، فدافع عن الإسلام ضد مهاجميه ، وسجل آراء سديدة في طائفة من المسائل العامة التي تهم أبناء العروبة ، وأصدر الكثير من الفتاوى الإسلامية لمن سألوه من أبناء الأقطار الإسلامية ، وألقى العديد من الدروس الدينية والاجتماعية الرائعة ، وكتب في مختلف الموضوعات في الصحف . واشترك في الثورة العرابية ، ونفي من البلاد ، واشترك مع أستاذه جمال الدين الأفغاني في إصدار مجلة «العروة الوثقى» في باريس ، ولما عاد الى مصر ، تابع كفاحه في كل الميادين

وقد عني رئيس تحرير سلسلة كتاب الهلال بتقديم تراثه في مجموعة جديدة ، يعني فيها بعرضه في كتب مقسمة حسب أنواع هذا التراث المجيد ، ومزودة بالتوضيح والتحقيق والتعليق وال[illegible] والتفسير التاريخي . وهذا الكتاب هو الثاني [illegible] هذه المجموعة ويتناول موقف الإسلام [illegible] والمدنية ، كما شرحه الإمام ، ودفاعه ضد [illegible] حملوا عليه من المغرضين ورجال الاستعمار

